

نريد ثورة إسلامية على مبدأ الصوفية الصافية
الداعية الإسلامي
إلى التصوف من جديد
١
الله آباد
الإحسان
مجلة فصلية تصدر من الجامعة العارفية، الهند
منهج أهل التصوف يستمد أصوله وفروعه من الكتاب والسنه
مفتي الديار المصرية
قضية الشيخ والمريد بين التمسلف والتمصوف
فقه الباطن وأثره في التوازن بين الروح والجسد
البيعة الصوفية وأهميتها في العصر الحاضر
أهمية تربية الصوفية وأثرها على المجتمع
فضيلة الإمام السيد محمد زكي إبراهم
ظاهرة التصوف في منهج المفكرين
المنهج الذوقي الإشراقي الصوفي
نظرة على شطحات المشايخ
مقال إيجابية التصوف



١٤٣٤هـ/٢٠١٣م

الجامعة العارفية

مؤسسة دينية علمية تهدف إلى تهذيب العقول وتزكية النفوس وتزويد الطلبة بالمواد التعليمية القيمة تجمع بين القديم النافع والجديد الصالح و بين ما ينظف الجسد ومايطهر الروح، وهي تشتمل على الشريعة كما تشتمل على الطريقة والحقيقة، وتنفخ في الشباب روح العلم والدين والجذب والسلوك، وتهيئهم ليفلحوا في الدنيا والآخرة ويقودوا الأمة في المعاش والمعاد. وأما طريقها فهي طريق وسط بين إفراط في العقيدة و تفريط في العمل، طريق أهل السنة وجادة أهل المعرفة الذين أنعم الله عليهم، لايحبون ولايبغضون إلا لله وفي الله.

المراسلات

أكادمية شاه صفي

الجامعة العارفية

سيدسراوان، كوشامبي

الله آباد، أترابراديش(الهند)

SHAH SAFI ACADEMY, JAMIA ARIFIA

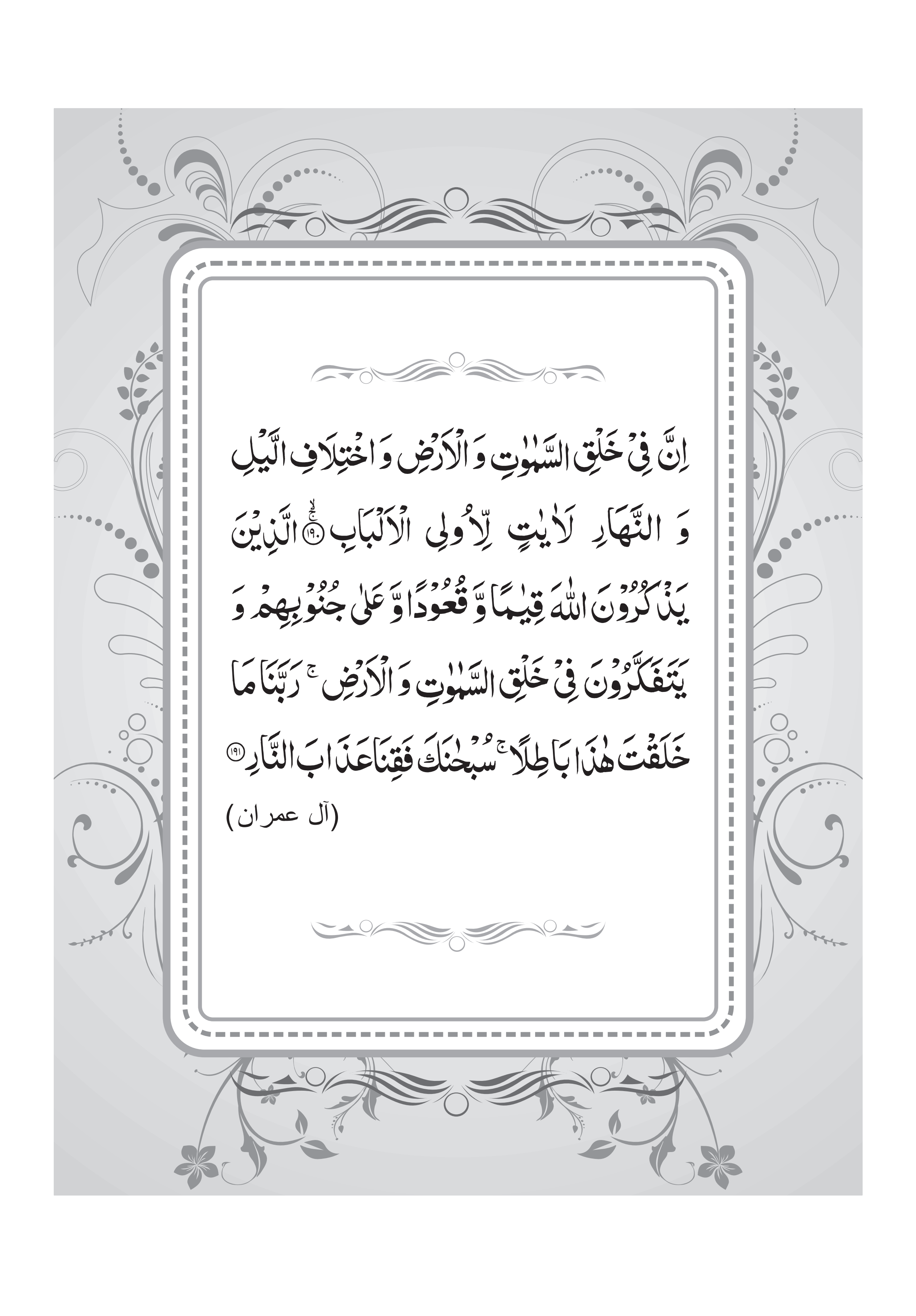


Saiyed Sarawan, Kaushambi, Allahabad, U.P., Pin-212213 (india)

رقم البريد:212213 الهاتف : 9696973121-91+(الهند)201140010981+(مصر)

البريد الإلكتراني:shahsafiacademy@gmail.com

محتويات



إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ الَّيْلِ
وَالنَّهَارِ لَاٰيٰتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۝١٩٠ الَّذِينَ
يَذْكُرُونَ اللّٰهَ قِيٰمًا وَّقُعُودًا وَّعَلٰى جُنُوبِهِمْ وَ
يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ رَبَّنَا مَا
خَلَقْتَ هٰذَا بَاطِلًا ۚ سُبْحٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝١٩١

(آل عمران)



العلم والعمل متلازمان، فالعلم بدون العمل عقيم والعمل بدون العلم سقيم ومعرفة الله تعالى بدون العلم محال والعلم بغيرها على صاحبه وبال، ولأجل ذلك يحتاج طالب معرفة الله تعالى إلى أن يصرف حياته في سبيل العلم ليحصل عليه من بطون الكتب أو يصبر نفسه مع العلماء العاملين ليقتبسه من مشكاة صدورهم، ولا يجب عليه أن يستكمل منهجًا مقررا دراسيا و يقضي السنوات الطويلة فى المدارس الإسلامية بل تكفيه صحبة العلماء الصالحين والمشايخ الذاكرين، قال الله تعالى: ﴿فَسْئَلُوٓا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (النحل:43). لقد أمرنا الله تعالى في هذه الآية بتوجيه أسئلتنا إلى الذاكرين لا إلى الغافلين فإن سوالناأهل الغفلة والنسيان وأخذ الدين عنهم مفضي إلى العمى والحيران وليس الذكر أن يجلس أحد على سجادة الصلاة ويأخذ السبحة ويكرر الكلمات الخاصة عل الهيئات المخصوصة عقيب الصلوات المكتوبة و إنما الذكر أن يقدم رضا وسخط الله ورسوله قبل كل شيءٍ من قول وعمل وكلما غفل قلبه عن ذكره أو طرأ عليه طارئ النسيان فر إلى الله بقلب منيب وسارع إلى مجالسة أوليائه الصادقين، قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ (الكهف:24) وقال تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ (التوبة: 119) اعلم أن العمل بما علمناه ضروري فإن العلم بلا عمل شجر بلا ثمر، وإن قليل العلم مع العمل خير من كثير العلم بلا عمل، ومن زاده الله تعالى هدى وصلاحا مع قليل علمه خير ممن ضاعفه علماولم يبارك فيه بهداية التقوى والأعمال الصالحة. فالمقصود من العلم هوالعمل، وإذا فات المقصود ضاعت الجهود.

• العارف الرباني الشيخ **أبو سعيد** حفظه الله



كلمات

عن "الإحسان"

حسن سعيد الصفوي

كنت أحلم منذ لم أتمكن أن أتصفح كتب العربية لوكانت مجلة عربية في التصوف في الهند تمثل التصوف الحقيقي وتزود الناس بالمواد الطاهرة والسلوكية وتزيل الغبار عن وجوه الصوفية الصافية ــ قدس الله أسراسهم ـ فإني قد ولدت ونشأت في بيئة صالحة صوفية عمادها الصلاح والتقوى، والتفكر في رضوان الله وسخطه قبل كل شيء من قول وعمل، فعابرت نظري على الهند كلها ولكن لم أجدها في شرق الهند ولا في غربها فخابت أمالي وكانت هذه المشكلة لم تزل تدور في خلدي وظللتُ آمل في الحين بعد الحين أن أقف على مجلة ولكن لم يأت يوم أحصل فيه على الدواء لداء ابتليتُ به.

وهكذا كنتُ لم أزل مضطربا والأيام تدور بدورتها حتى أتى فضل السبق إلى " أكادمية شاه صفي" التابعة للجامعة العارفية والمشيخة العارفية - بسيد سراون، الله آباد، يوبي، الهند، التي تجري تحت رعاية الداعية الإسلامي العارف الرباني الشيخ أبي سعيد إحسان الله المحمدي - أدام الله ظله علينا -(شيخ المشيخة العارفية العامة للطريقة الجشتية الصفوية ومؤسس الجامعة العارفية.)

فهذه هي الأكادمية التي بادرت خطوتها و شمرت عن سواعد جدها أن تصدر المجلة باللغة العربية في التصوف الإسلامي،لكي تحيي تعليمات ساداتنا الصوفية مما انمحت وتجدد علومهم مما اندرست وتعيد إلى وجهها مسحة الجمال و ومضتها وتقاوم صورتها المشوهة التي شوهت من قبل دخلاء التصوف ومحرفيه وتعرفه إلى المجتمع الإسلامي بصورته الصحيحة النقية الطاهرة،ولذلك بذلت قصارى مجهوداتها أن تقدمها بين يدي الناس جاعلة لها كنزا من العلم ومنبعا للمعرفة، ولهذا مدت يدها للحصول على المقالات القيمة و الأبحاث الجيدة إلى العلماء الأجلة الأعلام،الجهابذة الفحول الذين هم نبراس للأرض وضياءها،الذين لعبوا أدوارهم البارزة في ميدان العلم والدعوة الإصلاح.

هذه المجلة شاملة من جميع نواحي التصوف وهي أشفى للصدر،وأدعى إلى الفكر،تبريء العليل،

وتروي الغليل وتهدي الطالب إلى السبيل .نستطيع أن نأخذ منها الدليل،يسطع فيها وهج الحنيفية البيضاء، وسوف يبقى بإذن الله سراجا منيرا لكل من يسرله الله الإخلاص والهمة والسعي المبصر في طلب الكشف عن التصوف.

وإضافة إلى ذلك، أن لهذه المجلة لشانا عظيما، وهوأنها ستعمل بين العلماء والشيوخ والكتاب من الهند والعرب لاسيما مصرعمل القنطرة على النهر، فإنها ـ حسب علمي واطلاعي ـ أول مجهود علمي في سبيل الترابط والتشييد للعلاقات بين علماء الإسلام من أهل السنة والجماعة المنتسبين إلى أرباب الزهد والتصوف، المتسمين بالاعتدال والوسطية فكرا وبحسن الخلق والظن عملا على نطاق دولي، خاصة بين الدولتين العظيمتين؛ الهند والمصر، فإن الخطوط التي رسمها أهل السياسة والحكومة على أرض الله الواسعة لاتستطيع أن تعرقل بين القلوب التي ألفها الله تعالى دينا و فكرا. فإني أتمنى أن يسد الخليج العلمي والفكري بين الدولتين و يقوم العلماء ـ من جانبين ـ بالوفاق والاتحاد والتعاون فيما بينهم والتبادل الفكري العلمي والديني الروحي الذي هوواجب شرعي في عصرنعيشه وقد فاقه التفرق والعداء و التطرف والإرهاب، والله هو الموفق ومسبب الأسباب.

تقديم الشكر والامتنان

وتسر الأكادمية أن تقدم خالص الشكر وغاية الامتنان إلى كل من زيّن المجلة بمشاركته في مصر والهند ولبّى ندائها عندما نادته للحصول على خواطرهم الإيمانية بما فتح الله عليهم،خاصة لفضيلة الدكتور الشيخ محمد مهنا(أستاذ القانون الدولي بالأزهر الشريف، مصر) الذي ساعدنا في إعدادها كل وقت و حين، وبه تيسر الأمر ـ فجزاه الله خير الجزاء ـ . وكذلك إنها لاتنسى أبدا من تقديم الشكر أيضا إلى من وجهت إليهم الدعوة فجاؤوا معتذرين بسبب كثرة شواغلهم وازدحام مسؤلياتهم، رغم ذلك إنها مع رجاء تام وإيقان كامل من سيادتهم بأنها تحصل على مقالتهم فى عددها الثاني ـ إن شاء الله تعالى ـ.

نداء إلى قُرّاء الإحسان:

هذه مسئولية كبيرة حملناها على عواتقنا إنها أول تجربة في حياتنا ــ باللغة العربية ــ فمن الأمر البديهي وقوع الزلل والخطايا والنقص والنسيان التي هي داخلة في جبلة الإنسان، فإنه لايخلو النوع البشري كله منها إلا من خصهم الله تعالى بفضله، فنلتمس من سويداء قلوبنا إلى كل من يطلع على الخطأ التكرم بإنباء الإدارة عليه فجزاكم الله خيرالجزاء. *****

إلى التصوف من جديد

ذيشان أحمد المصباحي[1]

لقد وجب العود إلى التصوف من جديد، من حياة مادية لادينية إلى حياة روحية ربانية، ومن التعنف والإرهاب إلى التلطف والسلام، ومن مدنية برقية ثرية بالطيارة والكمبيوتر إلى زاوية أخوية أخلاقية، ذات عيون ساهرة وقلوب متكسرة، وقد أصبحت هذه العودة اليوم أشد مماكانت بالأمس.

"من تصوف ولم يتسلف فقد تضلل
ومن تسلف ولم يتصوف فقد تمرد
ومن جمع بينهما فقد تحقق."

وذلك لأن بعد عصر النبي الأمين عليه الصلوة والسلام وعصر أصحابه الذين رضي الله عنهم ورضواعنه، مال الناس عامة إلى الدنيا وزخرفها، فقام الزهاد المتجافون عن دار الفرار، المنيبون إلى دار الخلود بالزوايا للذكر والفكر، ولإحياء الركن الثالث من الدين، و ذلك هو الإحسان، وكانوا هم الصالحون المحسنون الذين سموا بالصوفية فجاء اصطلاح التصوف مكان الإحسان، وهذا كله إنما وقع في عصر التابعين أو عصر أتباعهم الذي هومن خير القرون أو متصل بها، إذا كانت الصلوات قائمة والمساجد عامرة، والقلوب مؤمنة، وكان كل ماتغير في الناس هو الميل إلى الدنيا فحسب، فقام الصالحون فتركوا العيش الرغيد وجاهدوا في الله حق جهاده لتزكية النفوس وتطهيرها من حب الدنيا الذي هو رأس كل خطيئة، وإنه متاع قليل والله عنده حسن مآب، يقول الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوٰتِ مِنَ النِّسَآءِ وَالْبَنِيْنَ وَالْقَنَاطِيْرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْاَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا ۚ وَاللّٰهُ عِنْدَهٗ حُسْنُ الْمَاٰبِ﴾(آل عمران: ١٤)

وأما اليوم فقد تغير كل شيء، تغير الظاهر والباطن، ذهب العلم والعمل، كثرت الغوغاء في المساجد

[1] أستاذ الجامعة العارفية ، سيدسراوان ، الله آباد

والبغضاء في البواطن، تنورت المعابد وأظلمت النفوس، يزينون القبور ولايزكون الصدور، لاصلوة ولاصيام، ولادعاء ولاسلام، الناس يجادلون في التكفير ولايجاهدون في الإيمان، لقد اكتسح العامة سيلُ اللادينية، و انغمس العلماء في أمواج التكفير والتضليل، قست القلوب، وتجمدت العيون، وتدنست النفوس، وعم التطرف وشاع الإرهاب والتحزب، وبالجملة ذهب الإيمان وانقضى الإسلام، وانتهى الإحسان، فلم يبق من الدين إلا لفظه ومن التدين إلارسمه، تقيد شبابنا بمثالب الدنيا حيث لاتتركهم برهة، فليس لديهم وقت للذكر أو العبادة، هذه شكوى عامة، يرى أن الروح قد غلبت عليها وأن تزيين الوجوه وترويح الأجساد هو كل شيء لجيل جديد معاصر، جاءت الديمقراطية فجاءت الحرية بمعنى الكلمة، الحرية من الدين والحرية من الحياء والأخلاق، وهذا كله يؤكد ماسبق بأن العودة إلى التصوف قدأصبحت اليوم أشد مما كانت من قبل.

ربما يؤكد على ماسبق ماظهر في عصرنا من ظاهرتين، ظاهرة تهم أصحابها القبور فحسب، وليس ذلك إلا تجارة دينية رابحة في الدنيا وخاسرة في الآخرة، وظاهرة أخرى مبغضة لعظمة الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، ظاهرة ليس لديها إلا ادعاء للأحوال وظاهرة أخرى لسانها ذاكر وقلبها غافل، هناك رجال ينتمون إلى السلف و يكفرون كل من يخالف لشرذمتهم القليلة، ورجال ينتسبون إلى الصوفية الصافية صورة ولقبا ولاسيرة و معنى.

ومن أهم الدواعي للعودة إلى التصوف هو التشتت والتفرق في صفوف المسلمين، وكثرة الحقد والبغض وسوء الظن والتفسيق والتضليل فيما بينهم، وهذه مشاكل تعرقل في سبيل وحدة الأمة المسلمة في المعاش والمعاد وليس لها حل إلاتز كية النفوس التي يوفرها علم التصوف وصحبة الصوفية الذين سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق كما وصفهم الغزالي.

ومن تلك الدواعي قضية خطيرة ظهرت في عصرنا، وهي قضية الإرهاب والتطرف، قد تأسست في القرن العشرين الميلادي مؤسسات وجماعات في مختلف البلاد على عنوان الدعوة والإصلاح، وبالعكس لعنواناتها، قامت بالتخريب والفساد، وحتى بتفجير القنابل وهدم القصور وقتل النفوس وتدميرالأموال ظلما وطغيانا، وهي ظاهرة تسببت تشويه صورة الإسلام وتصويره بصورة الإرهاب والإفساد وإن هذه الحركات الدعوية المفسدة قد ملأت أذهان الشباب وقلوبهم بالأفكار المعادية ضد

الأمة المدعوة، والعواطف المعاندة المقاتلة خلاف الأمم الأخرى التي تستحق منا الاعتناء الخاص والمودة الخالصة، وقد كانوا أخرجوا ليأمروا الناس بالمعروف وينهوهم عن المنكر وهذا العمل لايمكن إلابالحب العميق لكافة الناس لأن شأن الداعي شأن راعي الغنم المحافظ من البهائم المفترسة، وكيف تكون الرعاية إذا يكون الراعي نفسه معاندا لغنمه. وقد صدق من قال إن الدعوة الإسلامية عمت بسيف الخلق وبرماح الإحسان، وإذا كان الأمر كذلك فليس لنا سبيل إلاإلى إحياء التصوف من جديد وبث روح الخلق والخير والحب والصلاح في نفوس شباب الأمة.

والأمر المهم والسوال الأول بهذا الصدد ما هو الطريق لإحياء التصوف في العصر الحاضر؟ بل مامعنى الإحياء، إذ الزوايا الصوفية قائمة في جميع الأقطار وفي جميع بلدان العالم الإسلامي ومدنه، تنعقد الحفلات الكثيرة لايمكن عدها لذكرى الصوفية الكرام، والسماع بالآلة وبغيرها رائج هنا وهناك، تزين القبور وتعقد الحلقات، فمامعنى لإحياء التصوف وما هي الحاجة لتلك الجهود وما هي الفائدة لإقامة الحركة والثورة، وهل هذا إلا سعي بغير مسعى رمي بغير مرمى؟

ونرد على هذا السوال بأن الأمر ليس كذلك، إن لفظ التصوف موجود بلاشك و إن أغلبية هذه الأمة تنتمي إليه، ولكن اللفظ ليس كاف للمعنى، والانتماء لايغني من الاتباع، قال النبيﷺ مشيرا إلى صدره: "التقوى ههنا"[1] والتصوف أولا هوالتقوى، ومكانه هوالقلب وليس بالوجه، فمعنى إحياء التصوف قبل كل شيء السعي المبذول بالإرادة في تزكية النفس، وقال بعض الصوفية: التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف، فمعنى إحياء التصوف ثانيا أن نزين أنفسنا بمكارم الأخلاق و نتحلى بمحاسن العادات ونجتهد لغلبة الأخلاق مكان غلبة القانون والمشروع، فإنه لا يتم الأمن والسلام العام بالقانون والقضاء حتى يعلو الخلق، فإن في الخلق تأثيرا ليس في غيره.

ويركز التصوف بعد التزكية والأخلاق على الحب والإنفاق، وجعل الناس عيال الله، فإن هذه فكرة تأتي بالسلام في المجتمع الإنساني و الوفاق في الأمة المسلمة على الخصوص، وبجانب آخر، هذه فكرة تسهل الدعوة الإسلامية في العصر الجديد، فإن هذا العصر قد تحرر من التعصبات الشعبية والقومية بل ومن التعصبات الدينية إلى حد كبير، بفضل العلم الجديد وقيام مجتمع جديد

[1] صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم

مختلط بلغات شتى و أديان مختلفة وحضارات متنوعة، وقد طويت الأرض بها رحبت، فعندما نحب امرأ ينتمي إلى لغة و دين وحضارة، يقرب حبنا أياه من ديننا وهو دين الفطرة، وينفتح باب الدعوة الإسلامية لأمم أخرى فيدخلون في دين الله أفواجا، فعلينا أن نجتهد بكل مافي وسعنا، لإحياء التصوف من هذه الناحية.

ومن إيجابيات العصر الجديد أنه يوافق تماما للتصوف، فإنه ليس عدو في داخل المسلمين ولافي خارجهم إلا رجال من السلفية المتشددين في ظاهر الشريعة، يتهمون الصوفية بإتهامات من ترك الظاهر و ادعاء الباطن، والتساهل في الحديث والغلو في شأن الأنبياء والأولياء، والأسف على من يلقبون أنفسهم بالصوفية و يشددون في السلفية لفظا و بيانا ويدفعون السيئة بالسيئة طباق النعل بالنعل، وهذا ليس بطريق صوفي أصيل، بغض النظر عماتقول فيهم السلفية المعاصرة، وردا على هذا يقول الداعية الإسلامي العارف الرباني الشيخ أبوسعيد إحسان الله المحمدي الصفوي أدام ظله على رؤوسنا:

"نريد ثورة إسلامية على مبدأ الصوفية الصافية"

فإن عملية إحياء التصوف لا تتم إلا عن طريق الصوفية. فعلى كل من ينتسب إلى جماعة الصوفية التي هي جماعة أهل السنة في الحقيقة، أن يحسن إلى الجميع صديقا كان أو عدوا، فإن سيوف الأخلاق ورماح الحب تأخذ بالقلوب وتجلعها أسارى بغير قتل نفس وإراقة دم.

وهناك رجال يدعون إلى تصويف السلفية وتسليف الصوفية، يقول الدكتور يوسف القرضاوي:
أنا شخصيا أدعو إلى تسليف الصوفية وتصويف السلفية، فالمتصوف ياخذ من انضباط السلفية في عدم الأخذ بالأحاديث الموضوعة وعدم الأخذ بالشركيات والقبوريات، ونريد من السلفي أن يأخذ من الصوفية الرقة والروحانية وخشوع القلب، نعمل عن هذا المزيج المسلم المطلوب.[1]

والحق أن السلفي ليس إلا من كان في قلبه الخوف والرجاء والخشوع والترحم واللينة كماكان في قلوب أسلافنا، فهو عين الصوفي، وكذا إنما الصوفي هورجل مرتبط بدين الأسلاف وطريقهم القويم المشيد بالكتاب والسنة كماقال سيدالطائفة الصوفية جنيد البغدادي قدس سره: إن طريقنا هذا مشيد بالكتاب والسنة(الرسالة القشيرية ١/ ٧٩ ط. دار المعارف – القاهرة).

[1] الشرق الأوسط، ٢٢، ديسمبر ٢٠١٠

ففي الواقع لافرق بين صوفي وسلفي، وهذا إذا استعملت الكلمتان بمعناهما الأصيل، أما مصطلح الصوفي إذا استعمل للمتصوف أو المستصوف، والسلفي إذا قصد به المتطرف أو الإرهابي فهما خارجان مما نحن فيه، منحرفان عن الجادة القويمة المستقيمة التي وجب علينا اتباعها وسلوكها.

وإنما المطلوب في دعوة القرضاوي ـ كما أظن والعلم عند الله ـ تكميل العبد دينه بالتمسك بالكتاب والسنة ظاهرا، وبالأخلاق والزهد باطنا، فعلى العبد المؤمن المدعي لكماله أن يتصوف ـ وهوالأخذ بالتقوى والحب والمعرفة والأخلاق كما عليه أن يتسلف، وهو الأخذ بالكتاب والسنة و آثار الصحابة والأسلاف، وليس الدين الكامل إلاالجمع بين هذا وهذا.

والمرء الذي ادعى التصوف ولم يأخذ بطريق السلف أو ادعى التسلف ولم يتزهد في الدنيا ولم يزك نفسه ولم يتحل باطنه بالتقوى والحب والمعرفة والأخلاق فهو ليس بصوفي ولا سلفي، بل ليس بمؤمن حقا، ولنا أن نقول من تصوف ولم يتسلف فقد تضلل ومن تسلف ولم يتصوف فقد تمرد ومن جمع بينهما فقد تحقق.

قيل إن التصوف هوالجانب الباطني من الإسلام، هو المراقبة أو المشاهدة المشارإليه في حديث جبريل بكلمة الإحسان "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"[1] ويشهد هذا على أن التصوف ليس لبس الصوف ولاالظواهر وإنما هوالروح والعواطف، وبكلمة أخرى؛ الإيمان هو التصديق الباطني والإسلام هوالعبادات الظاهرة، والإحسان هوالأحوال الطاهرة، فهوتطهير الباطن بشرط أن يكون الظاهر أيضا على وفق الشرع والدين، هو روح ولاجسد، وسيرة ولاصورة، ورقة ودموع ولاقلنساة وعمامة، وعلى كل حال، إنما هوجانب داخلي أو روحاني أو عاطفي من الإسلام وركن أهم من أركان الدين الثلاثة، ومع كل ذلك، اتهمه البعض بالباطنية السرية الساخرة بظاهرالشريعة من العبادات والمعاملات، وأضافه البعض إلى المظاهر من العمائم والقلنسات العالية وشموع المقابر وسماع الأغاني الصوفية، و كلاهما معاندان للتصوف الحقيقي، أولهما عدو ظاهر والآخر عدو باطن، والواجب على من يقوم لإحياء الجانب الباطني للإسلام أن يحرر التصوف من نقد هذا وقيد ذاك. والله المستعان وعليه التكلان.

*****

[1] صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم

نريد ثورة إسلامية على مبدأ الصوفية الصافية

الداعية الإسلامي العارف الرباني **الشيخ أبوسعيد** المحمدي الصفوي يتحدث عن ضرورة إحياء التصوف في القرن الحادي والعشرين

الداعية الإسلامي والعارف الرباني الشيخ أبوسعيد إحسان الله المحمدي الصفوي المتولي على المشيخة العامة للطريقة الجشتية الصوفية العارفية بالزاوية العارفية سيد سراوان، الله آباد، هو من أعلام التصوف في العصر الحاضر في الهند، تتسم شخصيته باتباع الشريعة الغراء وخاصة بالميزات الصوفية من الحب والوفاء والبذل والعطاء وغيرها وتمتاز بتربية المريدين في أقرانه، يسعى لإحياء التصوف وتوطيد العلاقة بين المدرسة والزاوية ولتحسين صلة العبد مع خالقه وصلته مع مخلوقه، وترويج الأمن والسلام في العالم، أسلم على يديه مآت من التائهين في ظلمات الكفر والشرك والذنوب والآثام، أسس الجامعة العارفية برحاب زاويته لإخراج جيل ناشئ يتحلى بالفقه والتصوف، وتصدر مجلة الإحسان باللغتين الأردية والعربية تحت إشرافه، إنه في هذا الحوار قد تكرم بالإجابة عن أسئلة طرحناها عليه حول التصوف ومسائله، وشاطرنا همومه وآرائه ومشاعره نحوه، نقدم ذلك الحوار إلى القراء الكرام ونرجو أنه يكون ممتعا ويزيدهم علما ومعرفة بالتصوف. (ضياء الرحمن العليمي)

الإحسان:من هم العلماء الربانيون؟ وما علامة العلماءالسوء؟

الشيخ أبوسعيد المحمدي: المراد من العلماء الربانين هو العلماء الذين تذكر صحبتهم ورؤيتهم بالله تعالى وتزيد الناس إيمانا وإيقانا بيوم الدين ويوم الآخرة، وكانت صلاتهم وصيامهم ومحياهم و مماتهم لله رب العلمين، فهم كائنون في الدنيا وبائنون عنها، لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكرالله تعالى، يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار، فلا يعيشون إلا لله ولا يحبون إلا لله ولايغيظون إلا في الله، وهم الذين يخرجون جلساءهم من الشك إلى اليقين، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الكبر إلى التواضع، ومن الشهرة إلى الخمول، ومن الانغماس في الدنيا إلى الزهد والتبتل إلى الله تعالى، ومن البخل إلى الإنفاق في سبيل الله، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن ذمائم الأخلاق إلى محامدها، فهم يشفون العليل ويروون الغليل، وهم الذين أمرنا الله بمعيتهم قال الله تعالى:﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾(التوبة: ١١٩)وقال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾(لقمان: ١٥)

وأما العلماء السوء فهم الذين قصدهم من العلم التنعم بالدنيا وشهواتها وزخرفاتها، والتوصل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها، فلا يفعلون بمايقولون، تبعد الناس عن الدين صحبتهم، وبالدنيا وأغراضها الفانية تذكر رؤيتهم، وفي الغفلة والمعصية، والبغضاء الشحناء يوقع منطقهم، فيريدون العاجلة ويجعلون العلم لها وسيلة ويسعون لها سعيهم، وأولئك كان سعيهم مذموما مدحورا، وقد ورد في العلماء السوء تشديدات عظيمة دالة على أنهم أشد الخلق عذابا يوم القيمة وقد أوصانا الله ورسوله ومن اهتدى بهديهم بالاجتناب من صحبتهم قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾(الكهف: ٢٨)

الإحسان: لماذا توقفت مسيرة الدعوة الإسلامية التي كانت في عهدالسلف الصالحين في السنوات التالية؟

الشيخ أبوسعيد المحمدي: لم تتوقف مسيرة الدعوة الإسلامية قط ولن تتوقف مادارت القمران، ولكن أصابتها ضغطات ونكسات و وقفات، قدتتابعت حركة الدعوةالسلامية في كل زمان، وما زال الدعاة المصلحون العاملون في كل صقع وقطر مستمرين في مسيرتهم الدعوية، يخرجون الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ويقومون بتربية النفوس وتزكية القلوب وإصلاح الطبائع إلا أنها قد انخفضت وارتفعت وتوترت وتحمست قدر ابتعادهم عن القرآن والسنة والسيرة النبوية الغراء، ومناهجها الدعوية والإصلاحية ،وتمسكهم بتوجيهاتها، فكلما كانت علاقتهم بقول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾(آل عمران: ١١٠)قوية، وصلتهم بقوله تعالى: ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾(التحريم: ٦) وبقول النبي صلى الله عليه وسلم:" الدين النصيحة "[1] وطيدة، وكانت استنارتهم من قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(النحل: ١٢٥) كثيرة، كانت جهودهم في مختلف ميادين الدعوة والإصلاح كبيرة، وكانت حياتهم مليئة بالحب والوفاء لله ولرسوله وللمؤمنين ، وكلما ضعفت هذه العلاقة بالقرآن والسنة وصاحبها ركدت هذه المسيرة وتوترت حركة الدعوة الإسلامية.

واعلموا إن الدعوة والإصلاح يطالبنا بالبذل والإيثار والتضحية و الإنفاق في سبيل الله، فعلى أفرادالأمة ورجالها أن يحملوا بأعباء الدعوة الإسلامية على عواتقهم ويبذلوا كل غال وثمين في سبيلها، ويجاهدوا لتكون كلمة الله هي العليا، مستجمعين بكل مواصفاتها وشروطها، وداعين الله تعالى أن يلهمه الرشد والصواب في خطواتهم والنجاح في مساعيهم، قال الله تعالى:﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾.(العنكبوت: ٦٩)

[1] صحيح مسلم كتاب الأيمان، باب بيان أن الدين النصيحة (١/ ٧٤)

الإحسان: **كيف تقوم بالدعوة والإصلاح فيما بين أهالي الهند ولاسيما الكفار والمشركين؟**
الشيخ أبوسعيد المحمدي: ليس هناك لأحد أي طريق سوى طريق القرآن والسنة، وإنما الدعاة والمصلحون كلهم استضاؤا من مشكاة القرآن والسنة، فعلى منوالهم أدعو بإذن الله تعالى الكفار والمشركين، إلى كلمة الإسلام، بالإيمان القوي الثابت والخلق المحمدي والعمل المتواصل والحرص الشديد والحب والوفاء والبذل والإيثار والحكمة والموعظة الحسنة ،أما الخلق المحمدي فهو من أكبر المعجزات الخالدة للنبي صلى الله عليه وسلم وهو أعظم تاثيرا في النفوس وهداية إلى رب العلمين ، فكل من يزورني في زاويتي من غيرالمسلمين، أو أنا ألتقي بأحد في مختلف أقطار الهند أتظاهر معهم بالخلق المحمدي، وهذا يزرع في قلوبهم حب الإسلام والمسلمين ولا يزال هذا الأمر يزداد وينمو فتنبت شجرة الإسلام وتتأصل فيؤمنون بالله ورسوله، ويذرون أربابا من دون الله وراء ظهورهم ويكونون من عبادالله المخلصين. لباب القول أن الخلق المحمدي هو أكبر وسيلة لتبليغ الرسالة الإسلامية فيما بين الناس.
الإحسان: **يقول بعض الناس إن التصوف يدعو الناس إلى الجمود والتعطل والانقطاع عن مجرى الحياة، هل توافق سماحتكم مع هذا ؟**
الشيخ أبوسعيد المحمدي: .وإذا أمعنا النظر في مصطلح "السالك" وجدنا أن كلمة السلوك تقتضى الحركة والنشاط والانتقال من حال إلى حال ومن مقام إلى مقام، فالسالك لايزال يزداد إيمانا ودينا وعلاقة مع الله تعالى ومع خلقه في ضوء القرآن والسنة ولايبرح يتضاعف حركة ونشاطا حتى يتكامل فيقوم بإصلاح المجتمع، أللهم إلا أن يقال أن التصوف يدعو الناس إلى التعطل عن حب الدنيا وأعراضها الفانية والانقطاع عن مجرى الحياة الفاسدة لفترة خاصة ليرجع السالك إليها داعيا ومصلحا. وهذا التعطل والانقطاع محمود ومطلوب من الله تعالى وهذا كان شان إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام قال الله تعالى حكاية عن خليله :﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي﴾(مريم: ٤٨)
الإحسان: **قد رفض البعض التصوف قائلين إنه رهبانية، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لا رهبانية في الإسلام، فما رأيك في هذا الأمر؟**
الشيخ أبوسعيد المحمدي: أولا أسئلكم في أي متون الحديث عثرتم على هذا الحديث، وهل هذا حديث صحيح يستدل به على إنكار الخلوة والاعتكاف لساداتنا الصوفية؟ وبعد، فمفهوم الرهبانية عندي هوالعزلة عن الخلق اتقاء من شر الناس وحفاظة على الدين والتبتل إلى الله تعالى والاعتكاف على التزكية ومجاهدة النفس لابتغاء رضوانه وعمارة القلب بخشيته ومحبته، وهي ربانية لارهبانية في الحقيقة،

وقد ورد ذكرها في سورة الحديد/ ٢٧ قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ۚ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾

قد ذكر في هذه الآية أن القوم قد ابتدعوا الرهبانية لرضاء الله تعالى ولكنهم لم يرعوا حقوقها فكانوا من الفاسقين، وهذا يفيد أن الرهبانية ليست مذمومة في أصلها وإنما المذموم هوعدم الوفاء بحقوقها، والرهبانية بالمعنى المذكور إذا كان مصحوبة برعاية آدابها ومتطلباتها، تثمر بالأجر والثواب عند الله تعالى، وكيف تكون الرهبانية من الأعمال المضادة للإسلام وقد ذكر الله تعالى في مقام المدح: أصحاب الكهف والرقيم الذين اعتزلوا قومهم وما يعبدون من دون الله وآووا إلى الكهف فنشر لهم ربهم من رحمته وهيأ لهم من أمرهم رشدا، وكذلك قد ورد في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتحنث في غار حراء، وكان عمل الخلوة وسيلة لنزول الوحي إليه، قال النبى صلى الله عليه وسلم : يوشك أن يكون خير مال الرجل الغنم، يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن[1] وأما قوله صلى الله عليه وسلم : لا رهبانية في الإسلام[2] فشأنه شأن قول النبي صلى الله عليه وسلم كل بدعة ضلالة، وهو عام خص عنه البعض، فليس كل بدعة ضلالة وكذلك ليست الرهبانية بجميع معانيها منكرة.

"لم يكن التصوف داعيا إلى الجمود والتعطل قط ولن يكون أبدا، فقد قال السادة الصوفية قدس الله أسرارهم إن من استوى يوماه فهو مغبون، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يكون التصوف سببا للجمود والركود لقافلة الحياة"

الإحسان: ما الفرق بين التصوف والباطنية؟

الشيخ أبو سعيد المحمدي: التصوف: هو الرعاية للآداب الباطنية مع العمل بأحكام الشريعة الظاهرة والباطنه، والباطنية: هي عدم المبالاة بأوامر الشريعة الظاهرة ونبذها وراء الظهور وادعاء الاشتغال بالباطن، وهي زندقة وضلالة ولا تمت إلى الإسلام بصلة. قال الشيخ العارف بالله قطب الدين الدمشقي قدس الله سره في الرسالة المكية: واعلم أن لكل صورة معنى، ولكل محسوس معقولا، ولكل شهادة غيبا، فمن لم يثبت

[1] صحيح البخاري، كتاب: بدء الخلق، باب: خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال
[2] كشف الخفاء (٢/ ٣٧٧) قال ابن حجر لم أره بهذا اللفظ.

للمعنى صورة، فهو باطني ملحد عنيد، ومن لم يثبت للصورة معنى، فهو ظاهري جامد بليد، ومن يجمع بين الظاهروالباطن، ويثبت لكل محسوس معقولا، ويطالع في كل شهادة غيبا، فهو سُنِّي رشيد سعيد صُوفي[1]

الإحسان: قد كثر الكلام في مسئلة وحدة الوجود، فما مفهومها عندكم؟

الشيخ أبوسعيد المحمدي: إن وحدة الوجود مفهومها عندي هوالإيمان بأن الله تعالى واجب الوجود، موجود بالذات وأن ليس هناك شيء موصوف بالوجود الذاتي سوى الله تعالى، قال تعالى﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾،﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾(الإخلاص: ١، ٤) فهوأحد واحد في ذاته وصفاته فلا ند له ولا ضد، كان الله ولم يكن معه شيء غيره وهو الآن كما كان. وهذا المفهوم منزه من جميع شوائب الحلول والاتحاد بل هوالإيمان الحقيقي، وقد ذكر في جميع كتب العقيدة الإسلامية أن الموجود بالذات هوالله تعالى وهوعلى كل شيء شهيد و هو الأول والآخر والظاهروالباطن وهو مالك الملك وحده لاشريك له، وهوالحاكم المطاع فعال لما يريد، ويفعل ما يشاء، ولا إرادة ولامشيئة إلا لله تعالى ولا راد لها، وهو معنى قول "لاموجود إلا الله" وأما ما سوى الله تعالى فهو ممكن الوجود وموجود بتجلي إرادة الله ومشيئته وإنما الواجب والقديم هو الله تعالى فقط، قال الله تعالى:﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝﴾(الرحمن :٢٦،٢٧).وقال تعالى:﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾وأما القول بأن هذه النظرية مستوردة من فلاسفة الهند فلايبتني على أساس قويم وقد اتضح ذلك من مفهومها المذكور فيما سلف.

الإحسان: ما الفرق بين الصوفي والمتصوف والمستصوف؟

الشيخ أبوسعيد المحمدي: الصوفي: هو الرجل المحسن الواصل إلى الله تعالى ورضوانه بأنه تجرع مرارة المجاهدة مع النفس والهوى والشيطان والشهوات فتخلى عن كدورات البشرية وتجرد عن العلائق الدنيوية وتحلى بالأخلاق الفاضلة والأحوال السامية والمقامات العالية فأصبح فانيا عن نفسه وباقيا بالله تعالى وإرادته ورضائه.

والمتصوف :هو الطالب للدرجة المذكورة بالمجاهدة والتزكية.

والمستصوف: هو من تشبه بهم لأجل المنال والجاه والحظوظ العاجلة الفانية، وهو عند الصوفية كالذباب والذئاب، والمستصوفون لاعلاقة لهم في الواقع بالتصوف ورجاله وإنما صلتهم بهم بالإسم والرسم،وهم قطاع الطريق فإياكم وإياهم.

---

[1] الرسالة المكية: فصل في علامة قذف النور في قلب الذاكر، مخطوط بمكتبة دار العلوم، ديوبند، برقم: ٧٣٠١٨

الإحسان: ماهو الدور الذي يستطيع أن يقوم أصحاب التصوف في مجال الدعوة الإسلامية في العصر الراهن؟

الشيخ أبوسعيد المحمدي: إن العصر الذي نعيش فيه انها هو عصر اضطراب قلبي وبلبلة روحية فإن المادية المطلقة والإباحية قد أتعب الناس وأنقض ظهورهم، فهم يتخبطون خبط عشواء في طلب الأمن والسلام وليس هناك حل صحيح دائم لمشاكلهم التي تواجهونها إلا في الإسلام. فالحاجة ماسة إلى أن نسترحم عليهم ونهديهم إلى سبيل الإسلام، وفي هذه الظروف القاسية يستطيع رجال التصوف والزاوية أن يقوموا بدور بارز في مجال الدعوة الإسلامية لهدايتهم نحو وارف ظل الإسلام، فإن الزاوية في الزمن الماضي كانت قد أقيمت على أساس الدعوة والإصلاح، والتربية والتزكية، وقامت بدور نشيط في ميادينها، ولكن الأسف كل الأسف أنها ـ بالجملة ـ في العصر الحاضر قدضعفت أركانها وتضعضعت مبانيها، فأصبحت فوضى بغير نظام بل هي جثة باردة لاحراك بها، ولم يبق باسم أصحاب الزاوية إلا طالب الدنيا وحطامها، وباسم التصوف والزاوية إلا بقايا مرذولة من بعض الرسوم والكلمات والمصطلحات والشطحات التى تتردد على ألسنتهم، فيَضلّون ويُضلّون، وهذا من واجب المهتمين بالدين والمتحمسين للدعوة الإسلامية أن يبذلوا قصارى جهودهم في إحياءالتصوف ونظام الزاوية وتنقية موارده وإعداد جيل رباني يتأسى بسلفهم الصالح ويستنير من ماضيهم المشرق، ليحملوا بمسؤلية الدعوة الإسلامية على عواتقهم، ويخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، فالعالم كله على شفاجرف هار ينتظر من ينقذه من أغلال الجاهلية المعاصرة، من الحروب الرهيبة والمادية المظلمة إلى ساحة السلام، والعدل والإنصاف والحب الوئام.

الإحسان: ماذا تقول عن العلاقة التي توترت في العقود الماضية بين المدرسة والزاوية؟

الشيخ أبوسعيد المحمدي: لم تزل الصلات بين المدرسة والزاوية قوية راسخة منذ زمن طويل، فكان علماء الشريعة يتوجهون إلى المشايخ لأخذ الدين عنهم، ولتزكية القلوب وتربية النفوس بعد الفراغ من أخذ العلوم الإسلامية وكان أصحاب الزوايا ورجال التصوف يكرمون المتكلمين الصالحين والفقهاء والمحدثين، فإن الدين لايكتمل إلا بالجمع بين الظاهر والباطن، والفقه والتصوف، وإليه أشار الإمام مالك بن أنس بقوله: من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ومن جمع بينهما فقد تحقق، وقد توترت تلك الصلة في العقود الماضية فنتج عنه أ ن فشا الكذب والبغض والحسد وغيرها من الأخلاق الفاسدة فيما بين العامة منهم والخاصة، ونفقت سوق النفاق العملي وظهر من بينهم جيل من العلماء السوء الذين أفسدوا على الناس إيمانهم ودينهم وجعلوهم كلاب الدنيا، عاكفين على عبادة البطن والمادة، وقام أناس من الملحدين الباطنيين باسم التصوف فأخرجوا قلادة الشريعة من أعناقهم وقطعوا على الناس طريقهم، واليوم نحن في أشد

الحاجة إلى تجديد الصلة بين المدرسة والزاوية وتطهير موادهما وتنقية مواردهما ليكون العلماء متحلين بآداب التصوف والإحسان وليكون رجال الزاوية متزينين بالعلوم والآداب الشرعية فيكونون عباد الله إخوانا، يجاهدون في سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا.

الإحسان: ما هو الأساس الذي يمكن إحياء التصوف عليه في العصر الحاضر وماذا ترى له في المستقبل؟

الشيخ أبوسعيد المحمدي: عندما نحن نتحدث عن التصوف وإحياءه وإعادة ماضيه المجيد إليه نعني به نفخ الروح في المجتمع والحياة الإسلامية، ولا نعني به إحياء علم التصوف، فليس التصوف علم ينفخ، إنما هو روح تنفخ، أما إحياء التصوف ومبدأه فأقول فيه ما قال الإمام مالك بن أنس رحمه الله: لايصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح أولها، فلا يمكن استعادة مجد التصوف إلا باقتفاء آثار سنن سيد المرسلين واتباع السلف الصالح واحتضان أصول التصوف، وتعليمات السادة الصوفية قدس الله أسرارهم وهي:الحب لله ولرسوله، وخوف الآخرة، والنصيحة والخدمة والعدل والمساواة وحرية التعبير عن المشاعر. و اليوم حاجة الناس إلى التصوف أكثر وأكبر من جميع العصور الماضية، فقد بلغت قوة العقل والتفكير إلى قمتها وتوفرت لهم جميع التسهيلات المادية ولكنهم مع ذلك يعيشون حياتهم مضطربة منغصة، وهم في طلب الراحة والسكينة، والسكينة في ذكر الله تعالى،قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ۝﴾(الرعد: ٢٨) فنريد ثورة إسلامية سليمة على مبدأ الصوفية الصافية ونرى للتصوف مستقبلا زاهرا ونأمل له أمرا عظيما.

الإحسان: كيف نتعامل مع المتطرفين والمناوئين للتصوف والصوفية؟

الشيخ أبوسعيد المحمدي: لايغب عن أذهاننا أن المتطرفين والمناوئين للتصوف هم أيضا من جملة عباد الله تعالى، والدين نصيحة لهم أيضا، فنعاملهم معاملة النبي صلى الله عليه وسلم أعداءه، ونتعامل معهم تعامل الطبيب مع المريض بالنصيحة والسعي لإصلاح أفكارهم ومعتقداتهم الفاسدة، نوضح لهم معالم الرشد و العرفان ونكشف لهم طريق الحق والإيقان وننظر إليهم بعين الاسترحام والاستعطاف وندعوهم إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة ولانجادلهم إلا بالتي هي أحسن، موقنين بأن الله هوأعلم بمن ضل عن سبيله و هو أعلم بالمهتدين، فلا نحقر هم ولانزدري بهم ولا نستكبر عليهم، ونبتهل إلى الله لهدايتهم نحو سبيل الحق اليقين ونأخذ العفو ونأمر بالمعروف ونعرض عن الجاهلين لانحبهم إلا لله ولا نبغضهم إلا في الله ولانغضب عليهم إلا بالحق.

*****

احتياج المريد إلى شيخ كامل

العلامة قطب الدين الدمشقي

الشيخ العارف بالله قطب الدين محمد بن أيمن الأصفهيدي الشافعي، من أعلام التصوف في القرن الثامن الهجري، عاش في عصر الإمام عفيف الدين عبدالله بن أسعد اليافعي، كتب متنا جامعا في التصوف وسماه بـ"الرسالة المكية" قد تلقى القبول بين السادة الصوفية، درسه المشايخ مريديهم في رحاب المسجد الحرام بمكة وفي الزوايا الصوفية بالهند، فكان من أهم الكتب الدراسية في الطرق الصوفية خاصة في الطريقة الجشتية إلى زمن طويل، وقد شرحه الشيخ سعد الدين الخير آبادي شرحا مبسوطا وسماه بـ"مجمع السلوك" باللغة الفارسية، ستطبع هذه الرسالة لأول مرة بتحقيق وتخريج و شرحها أيضا مترجما إلى اللغة الأردية تحت رعاية "أكادمية الشاه صفي". توفي الشيخ الدمشقي في أواخر القرن الثامن الهجري. رحمه الله رحمة واسعة. وإليك اقتباس من"الرسالة المكية".

لا بد للمريد من شيخ كامل يقتدي به، لأنه رفيق في الطريق، ويعلم أن لهذا الشان محكا ومعيارا، وهو القرآن، والأخبار، وإجماع الأمة المسلمة. فما وافق المعيار وخرج من المحک سالما من الغش فهو صحيح، و ما خالف ذلک فهو فاسد باطل، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ (المائدة: ٣٥) و قال عليه الصلاة و السلام: "أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم"[١]. و روى الغزالي ـ رحمه الله تعالى ـ في الإحياء: أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: "الشيخ في قومه كالنبي في أمته"[٢]، و قال ـ رحمه الله تعالى ـ : ليس ذلک بكثرة ماله و لا لكبر شخصه ولا لزيادة قوته، بل لزيادة تجربته التي هي ثمرة علمه وعقله، و لذلک ترى أجلاف الخلق يوقرون المشايخ بالطبع، فضلاً عن ألطاف الناس.

فَالشَّيخُ هو الَّذي سَلَک طَرِيقَ الحقِّ وعرَف المخاوفَ والمهالکَ، فَيُرشِد المريدَ و يشير إليه بما ينفعه وما يضرُّه، فلا يكون الشيخ وصحبته أقل من الجليس الصالح، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: "مثل الجليس الصالح كمثل العطار، إن لم يجدک من عطره عبق بک رائحته، ومثل الجليس السوء

[١] قال العجلوني: رواه البيهقي ، وأسنده الديلمي عن ابن عباس بلفظ أصحابي بمنزلة النجوم في السماء بأيهم اقتديتم اهتديتم. كشف الخفاء (١/ ١٣٢)

[٢] قال السخاوي: ابن حبان في الضعفاء والديلمي كلاهما من حديث رافع بن أبي رافع عن أبيه مرفوعا به، وذكره ابن حبان في ترجمة عبد الله بن عمر بن غانم الأفريقي وأنه رواه عن مالك عن نافع عن ابن عمر مرفوعا، قال وهذا موضوع انتهى. ولعل البلاء فيه من غير الأفريقي فهو جليل القدر ثقة لا ريب فيه، وممن جزم بكونه موضوعا شيخنا ومن قبله التقي ابن تيمية فقال إنه ليس من كلام النبي وإنما يقوله بعض أهل العلم، وربما أورده بعضهم بلفظ "الشيخ في جماعته كالنبي في قومه يتعلمون من علمه ويتأدبون من أدبه" وكل ذلك باطل ويروي عن أنس مرفوعا "يجلوا المشايخ فإن تبجيل المشايخ من إجلال الله عز وجل فمن لم يجلهم فليس منا" أسنده الديلمي وأصح من هذا كله "ما أكرم شاب شيخا لسنه إلا فيض الله له في سنه من يكرمه". المقاصد الحسنة (ص: ٤١٢)

كمثل القين إن لم يحرقك ناره عبق بك دخانه و رائحته".[1]

يحتاط المريد في اختيار الشيخ و يجتهد في معرفته

إذا وصل المريد إلى الشيخ يحتاط ويجتهد في معرفة الشيخ أنه هل يصلح للمشيخة شيئا و يجوز الاقتداء به؟ فإنَّ أكثر الطالبين هلكوا في هذا المنزل، بل هلاک عموم الناس كان بالاقتداء بالأئمة المضلة، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ﴾ (إبراهيم: ٢٢)والسلطان هوسلطان الحق، قال رسول الله ﷺ: "لا يعجبنكم إسلام رجل حتى تعلموا ماعقده عقله".[2]

و طريق معرفته أن يعلم المريد أن جميع الأنبياء ـ عليهم السلام ـ متابعتهم فرض لازم، و حق، و صواب، لا سيما نبينا محمد ﷺ خاتم الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، ودينهم في الأصول واحد. ويجتهد في معرفته ـ أعني معرفةَ الله تعالى ومعرفة صفاته عزوجل ـ و معرفة الكتب، والرسل، والملائكة، وأمورالآخرة، لايسع فيها الخلاف والنسخ، إذ الحقائق لاتقبل النسخ و إنما النسخ في الأحكام.

ثم يعلم أن اختلاف الأئمة في فروع الإسلام، لابأس به، بل هو رحمة، وكل مجتهد مصيب، يعني لو أخطأ في إصابة الحق يستحق الثواب كفلا وإن أصاب يستحق كفلين كما في الخبر.

و أما المخطي في الأصول فضال، مبتدع، عاص، وطريقة نجاته من البدعة بمتابعة الكتاب، والسنة، وإجماع الأمة في معرفة ذات الله تعالى وصفاته ـ جل وعلا ـ، فإن وجد الشيخ على هذا المذهب يبحث بعد ذلک عن علمه بالطريقة والحقيقة، فإن كان مبتدأ يعرف ذلک من أفواه الناس ومن أحوال الجماعة الذين يقتدون به، يحبونه ولاينكرون عليه. فإن علم أنه لا ينكرعليه علماء زمانه، ورأى بعض العلماء يقتدون به، وأكياس الناس من الشيوخ والشباب يبايعونه، ويرجعون إليه في طلب الطريقة والحقيقة، يعلم أنه ماهر في ذلک، والاقتداء به إن قبله الشيخ عين المصلحة، فيقتدي به وينقاد له فيما يأمره من معاملات الطريقة، ويعتقد في قلبه أن لا شيخ له غيره، ولا يوصله إلى الله تعالى إلا هذا، وهذا توحيد المطلب، وأنه ركن عظيم، غلط فيه كثيرمن المريدين وانقطعوا به من طريق الله حين ترددوا بين المشايخ، و ذاقوا من طريقة كل واحد ذوقة وتشوشوا فيه.

*****

[1] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، بلفظ: مثل الجليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحا طيبة ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد ريحا خبيثة.

[2] شعب الإيمان، فصل في فضل العقل الذي هو من النعم العظام التي كرم بها عباده (٤/ ١٥٦)

الإحسان من أركان الدين

أ . د / علي جمعة [1]

إن التصوف جزء أصيل من الدين والصوفية هم الذين قاموا على حفظ ركن "الإحسان" شأنهم شأن الفقهاء الذين حفظوا ركن "الإسلام" وكذلك شأن علماء العقائد الذين حفظوا ركن "الإيمان" .

وهذه الأركان الثلاث (الإيمان، والإسلام، والإحسان) هي أصول الدين التي سأل عنها أمين الوحي جبريلُ عليه السلام النبيَّ صلى الله عليه وسلم في الحديث المشهور الذي جاء فيه مُعلما الأمة أمور دينها، عن أبي هريرة، قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم بارزا يوما للناس، فأتاه جبريل فقال: ما الإيمان؟ قال: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، وبلقائه، ورسله وتؤمن بالبعث». قال: ما الإسلام؟ قال: "الإسلام: أن تعبد الله، ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان". قال: ما الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [2]، وقد كانت هذه الأركان الثلاثة متحققة في جيل الصحابة رضي الله تعالى عنهم من غير عناء أو كُلفة، ولا غرو في ذلك فإنهم قد تربوا في مدرسة النبي المصطفى والحبيب المجتبى ﷺ.

وبعدعهدالصحابة دخل في دين الإسلام أُمم شتى وأجناس عديدة، واتسعت دائرةالعلوم، وتوزعت بين أرباب الاختصاص؛ فاشتغل بعض علماء المسلمين بعلم أطلقوا عليه "علم التوحيد"؛ لدراسة الإيمان وقضاياه، مثل: كيف نعرضه على العالمين، وما هي المشكلات التي سنواجه بها أسئلة

[1] مفتي الديار المصرية والمدرس بالجامع الأزهر الشريف، القاهرة
[2] صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ و صحيح مسلم، كتاب الإيمان،باب: الإيمان ما هو وبيان خصاله

الفلاسفة والمفكرين و العلماء من الأديان الأخرى؟

كما قامت طائفة منهم بعلم آخر أطلقوا عليه اسم "علم الفقه"؛ لدراسة الإسلام: فهناك علم لدراسة الإيمان، وهناك علم آخر لدراسة الإسلام، وبقي : كيف نعبد الله كأننا نراه؟.. كيف نُخلِّي قلوبنا من كل قبيح، ونُحلِّيها بكل مليح ؟

من أجل ذلك قام السادة الصوفية بدراسة هذا الجانب، وجعلوه علمًا أطلقوا عليه اسم "علم التصوف"، أو "علم التزكية"، أو "علم الأخلاق"، وألفوا فيه كتبًا كثيرة؛ بيَّنوا فيها أصوله وفروعه وقواعده، ويُعَدُّ ذلك العلم علامة بارزة من مهمات الدين، وجزء لا يتجزأ من الإسلام.

وحقيقة هذا العلم أنه منهج أوطريق يسلكها العبدللوصول إلى ربه عز وجلَّ، أي الوصول إلى معرفته والعلم به، وذلك عن طريق الاجتهاد في الطاعات واجتناب المحظورات، وتربية النفس وتطهيرالقلب من الأخلاق السيئة، وتحليته بالأخلاق الحسنة.

وما ذكرناه يؤكده الإمام القشيري رحمه الله تعالى في رسالته؛ حيث قال:"اعلمواركمكم الله تعالى أن المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتسم أفاضلهم في عصرهم بتسمية سوى صحبة رَسُول الله صلى الله عليه وسلم إذ لافضيلة فوقها، فقيل لهم: الصحابة، ولما أدركهم أهل العصر الثاني سمي من صحب الصحابة بالتابعين، ورأوا ذلك أشرف تسمية، ثم قيل لمن بعدهم: أتباعالتابعين، ثم اختلف الناس وتباينت المراتب، فقيل لخواصِّ النَّاس ممن لهم شدة عناية بأمرالدين: الزهاد والعباد، ثم ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق فكل فريق ادعوا أَن فيهم زهدا، فانفردخواص أهل السنة المراعون أنفاسهم مع الله تعالى، الحافظون قلوبهم عَن طوارق الغفلة باسم"التصوف"، واشتهرهذا الاسم لهؤلاء الأكابرقبل المائتين من الهجرة"[1].

ومنهج أهل التصوف يستمد أصوله وفروعه من القرآن والسنة النبوية، وخير دليل على ذلك قول سيد هذه الطائفة (الصوفية) الإمام الجنيد: "علمناهذا مقيد بالكتاب والسنة"[2].

وتتمثل معالم التصوف في ثلاثة أمور، هي:

[1] الرسالة القشيرية ٣٤/١، ط. دار المعارف – القاهرة
[2] الرسالة القشيرية ٧٩/١ ط. دار المعارف – القاهرة

الأول: الاهتمام بالنفس ومراقبتهاوتنقيتها.

والثاني: الزهدفي الدنياوعدم التعلق بهامع الرغبةفي الآخرة.

والثالث: كثرةذكرالله عزوجل.

ولم يقف التصوف ولاالصوفيةعندحالةالذكروالزهدوالتعبدالفردي أوالجماعي، ولأصبح للتصوف مؤسسات كبيرة لهاامتدادفي العالم أجمع، وصارت تقوم بدور تنموي وسياسي واجتماعي؛ فقد أفرزت الصوفية على مرالعصور علماء ورجالا يزخر ويزدهر التاريخ الإسلامي بهم استنادا إلي شعبيتهم الجارفة، وحب جماهيرالمسلمين لهم، و ما وصلوا إلي هذه المكانة وتلك المرتبة إلا بحسن التأسي والسلوك على المنهج القوي الثابت عن الكتاب والسنة و احترام علماء الأمة والسعي إلى وحدة المسلمين وابتغاء تماسكهم؛ ولذا لم يقتصروا على جهاد النفس فحسب كمايرددمن لايعرفهم، ولكنهم جمعوا إلي ذلك القوة في محاربة الأعداء والطغاة، ومن نماذج هؤلاء: الإمام الغزالي ومحي الدين بن عربي والعزبن عبد السلام والإمام النووي.

وفي العهدغيرالبعيدحمل الصوفيةلواءالثورةالوطنيةفي مصرفي مواجهةأمراءالمماليك، حيث قاد الإمام الدرديرالصوفي الكبير ثورةكبيرةضدالمماليك قبل الثورةالفرنسية بثلاث سنوات، أجبرت المماليك على الاعتراف بأن الأمةمصدرالسلطات، و منعتهم من فرض ضرائب جديدة إلابرأي الشعب، مع الإقرارالكامل بحريةالأمةوكرامتها.

لقدكانت الصوفية- ومازالت-عاملافاعلاوأصيلافي المجتمع الإسلامي في مصر بل وفي العالم أجمع، وهومايدعوالطرق الصوفيةفي كل زمان إلى الالتفاف حول أصول التصوف والتمسك بما كان عليه الصحابة رضي الله تعالى عنهم من توحيد صافٍ، وفقه مستقيم، وأخلاق قويمة، وكذلك العودة إلى دورها الرائد في الدعوة إلى الله وقيادة المجتمع دينياواجتماعياوسياسيا، و لايضيرها ظهوربعض الفئات من المتواكلين والجهلة الذين يتكسبون من وراء ادعائهم الصوفيةوالانتساب إليها، فطريق التصوف جلي قوي لايحيدعن صراط الله المستقيم رغم تهجم المتهجمين واتهام المغرضين...حققنا الله بالإسلام في ظواهرنا، وبالإيمان في قلوبنا، وبالإحسان في أرواحنا، وجعلنا امتدادا صالحا لسلفنا الطيب في الاهتداء والهداية، والاقتداء والأسوة.

*****

مقال إيجابية التصوف

د.حسن الشافعي[1]

ربما يسأل:

هل التصوف مسلك سلبي هروبي استسلامي، أم هو مسلك سني إيجابي؟

والإجابة: إن التصوف بطبيعته مسلك إيجابي، وتنبع إيجابية التصوف فيما نعتقد من أنه لا يتعامل مع ظواهر الأمور بل مع حقائقها، فهو يتجه من البداية إلى قلب الإنسان بالتطهير والتعمير والمعرفة، أو بالتخلي والتحلي والتجلي.. وذلك من خلال رحلة روحية أو معراج نفسي يتضمن ثلاث مراحل، أو يمر بثلاث محطات: إذ ينخلع المريد- بسلوكه الجاد منذ قبوله عهد السلوك، على يد شيخه- من واقعه وشواغله التي يغلب عليها الطابع المادي اللاهي، المعرض عن الآخرة بفضل ما يصقل قلبه من أداء العبادات ومن ذكر الله، وهو زاده الحقيقي في هذا السفر، فيتخلص به من رعوناته وعيوب نفسه وانحرافات سلوكه، عن النهج المحمدي القويم، واحدة بعد الأخرى.. فتسقط عنه – بإذن الله- كما تسقط أوراق الشجرة الجافة عن غصونها، لتنبت من قلبها براعم جديدة.. تلك مرحلة التخلي، وهي مرحلة ذات طبيعة تعبدية خلقية، لكنها سلبية تستأصل فقط العيوب والآفات كبيرها وصغيرها.

أما العبد السالك في المرحلة الثانية من معراجه الروحي، فيسعي بواسطة الذكر والعبادة والتعرض لنفحات مولاه -عز وجل- الذي يلقي في قلبه الطمأنينة والسكينة برحمته فيشعره بمعيته ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾(الرعد/ ٢٨) ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾(البقرة/ ١٥٢)

وقد جرت عادة مولانا عز وجل ألا يرد من يقف على بابه مخلصًا إلا بعطاء جزيل (عبدي إنك لو جئتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً أتيتك بقرابها مغفرة)

بل بلغت رحمته ولطفه سبحانه أن يقول (من تقرب لي شبرًا تقربت إليه ذراعًا ومن تقرب إلي ذراعًا تقربت منه باعاً ومن أتاني يمشي أتيته هرولة).

وبحسب ترقي السالك في هذه الرحلة تتحول البراعم الصغيرة على غصونه أوراقا وزهورا وتحل الفضائل المستمدة من الأسماء الإلهية محل الرذائل التي سقطت في المرحلة الأولى، ومن ثم توصف

---

[1] رئيس مجمع اللغة العربية، القاهرة .

هذه المرحلة بالتحلي. وبعد التخلي والتحلي، وكلاهما تكمل خلقي ونضـج عـاطفي وطهـر روحـاني يتهيأ السالك بقمة مسعاه وغاية منتهاه وهي المعرفة بالله، واليقين بالله حق اليقين و بحقـائق الإيـمان التي تلقها عن بيئته تقليدا ' واستراح إليها بفطرته توحيدًا، وعلمها علم اليقين بأدلة العقل والوحي، تعليمًا وتوكيدا ، فتغدو أمامه كأنها مشهودة حاضرة، وفي نور القلـب ظـاهرة، ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النور/ ٣٥) هنالك يحيا المؤمن حياة جديدة غير تلك الغافلة اللاهية التي كانت مخدوعة بظواهر الحياة مع الذين ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾(الروم/ ٧) بل يصبر نفسه مع﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ وأين الثرى من الثريا، وأين الأيام التي ضاعت من الأنوار التـي شـاعت﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(الأنعام/ ١٢٢) ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت/ ٦٩)

أفهذا نهاية المطاف؟ يروي محمد إقبال عن أحد صوفية الهند (لقد عرج بمحمد صلي الله عليه وسلم إلى السموات العلى حتى بلغ قاب قوسين ثم عاد، والله لإن بلغت إلى هناك فلن أعود أبدا) إنها حال من المتعة والسرور كما عبر أحدهم (نحن في حال لو علمها الملوك لقاتلونـا عليهـا بالسـيوف) لكـن السالك المسلم لابد أن يسعى على القدم المحمدي، ويعود من معراجه إلى أرض الواقع ليعـيش بـين المسلمين، ليقود المريدين من جديد في هذه الرحلة العلوية المباركة، ويكابد تجـارب الجلـوة كـما ذاق مطايب الخلوة، ويجاهد أعداء الحق كما جاهدهم حبيبـه محمـد صـلى الله عليـه وسـلم يقـول أحـد أصحاب الشاذلي (واقذف بي بالحق على الباطل فأدمغه فإذا هو زاهق)

يقول بعض مؤرخي الاستعمار الفرنسي:

(إن عدونا الحقيقي هو هذا الدرويش، الذي لا مـأوى، والـذي يمشي فيسـير النـاس حولـه ويغـرس في نفوسهم العداء لنا والولاء لمحمد، إنه هو الذي يحاربنا في شمال القارة وفيما وراء الصحراء) أفبعد هذا يقال إن التصوف مسلك سلبي. جاء إلى النبى _ صلى الله عليه وسلم _ أصحابه فقال : يا رسول الله إنى أحبك، فأجابه :"إذن فأعد للبلاء تجفافا " فالحب _ فى منطق النبوة _ هو التضحية والتصوف حب صادق .

مديحه فيك حب صادق وهوى وصادق الحب يملى صادق الكلم

هذا هو التصوف، أهو مسلك سلبى هروبى استسلامى متخاذل ' أم هو مسلك إيجابى سني فاعل ؟!

*****

أهل التصوف الحق

السيد عبدالهادى القصبى[1]

عن لي أن أوجه رسالتي على صفحات مجلة "الإحسان" إلى نفسي أولا ثم إلى كل من يتحدثون باسم التصوف أوعن التصوف ثانيا سواء كانوا أعداء أم أدعياء لنعرف جميعا من هم أهل التصوف الحق. اسمتع معي ــ رعاك الله ــ إلى الإمام الصوفي الأصولي الفقيه المحقق المدقق أحمد بن زروق وهو يطل علينا من بين أكابر وسادات القرن التاسع الهجري ليقول لنا: إن أهلية التصوف لذي توجه صادق أو عارف محقق أو محب مصدق أو طالب منصف أو عالم تقيده الحقائق أو فقيه تقيده الاتساعات، لامتحامل بالجهل أو مستظهر بالدعوة أو مجازف في النظر أو طالب معرض أومصمم على تقليد أكابر من عرف في الجملة – والله أعلم-

فلينظركل منا أين هومن هذه الأصناف؟

وأين هومن هذه الأوصاف؟

هل هومريد لوجه الله صادق؟

والمريد الصادق هومن طلب السلوك إلى ملك الملكوك وذلك بإفراد القصد لحضرة الرب، قد كملت فيه أهلية الإرادة فعقد العزم على مرضاة الرب من أول الأمر ومجاهدة النفس ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ ﴿وَ نَفْسٍ وَّ مَا سَوّٰىهَا ۙ فَاَلْهَمَهَا فُجُوْرَهَا وَ تَقْوٰىهَا ۙ قَدْ اَفْلَحَ مَنْ زَكّٰىهَا ۙ وَ قَدْ خَابَ مَنْ دَسّٰىهَا ؕ﴾ وهذا هوالجهاد الأكبرالذي دلنا عليه رسول الله ﷺ عندعودة المسلمين من غزوة بدر حيث قال رغم صعوبتها"عدنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر.قالوا أو جهاد أكبرمن هذا يارسول الله؟ قال بلى، جهاد النفس" أوكما قال ﷺ ولولاميادين النفوس لماتحقق سيرالسائرين"كماقال ابن عطاء الله السكندري رضي الله عنه.

الفرق بين العالم والعارف هوأن العالم دون مايقول والعارف فوق مايقول العالم يصف لك الطريق كما وصفت له والعارف يصحبك في الطريق كماشاها وعاينها وكابدها العالم من أهل الدليل والبرهان والعارف من أهل الشهود والعيان العالم يدلك على الأسباب والعارف يدلك على مسبب الأسباب العالم يحذرك من الشرك الجلي والعارف يحذرك من الشرك الخفي.

[1] شيخ مشايخ الطرق الصوفية ورئس المجلس الصوفى الاعلى، مصر

أما العارف المحقق

فهو من أهل الشهود والعيان لامن أهل الدليل والبرهان، وأهل الشهود والعيان من أهل مقام الإحسان الذين قال فيهمﷺ "الإحسان أن تعبدالله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"فهم قوم اختصهم الله بمحبته وجعلهم من أهل ولايته، ففتح لهم الباب، وكشف لهم الحجاب، فأشهدهم أسرارذاته وأطلعهم على مكنون صفاته وبين لهم حقائق أفعاله.

أما المحب المصدق

فهو من شهد إحسان مولاه عليه أو طالع جمال الحق لما تجلى عليه فحمله ذلك على تعظيمه وإيثار رضاه والاستئناس بذكره عمن سواه، ونفاد الصبر عنه وعدم القراردونه وأنشدوا.

أحبك حبين حب الهوى	وحبا لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هوحب الهوى	فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهل له	فكشفك لى الحجب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا و ذاك لي	ولكن لك الحمد في ذا و ذاكا

فإن لم تحبه لأجل وصفة (من الجمال) فأحبه لأجل فعلة (من الإحسان) فهل عودك إلاحسنا، وهل رايت منه إلامننا وقدذهب المحبون بشرف الدنيا والآخرة كما قال سحنون رضي الله عنه لقول النبى ﷺ"المرء مع من أحب"والكلام في المحبة كثير ولكن يكفيك منه معرفة أن علامةالمحب الصادق الطاعة والاتباع والإيثار﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾إن المحب لمن يحب مطيع ولذلك قالوا "إن المحبة هي موافقة الحبيب في المشهد والمغيب".

أما الطالب المنصف

فهومن طلب العلم بإنصاف دون تعصيب ولا إسفاف. والإنصاف هوالاعتراف بالحق من غيرتوقف وكان سيدنا عمروقافا عندكتاب الله. ومن الإنصاف العمل بما علم دون التشوف لمابطن كماقال ابن عطاء الله "تشوفك لما بطن فيك من العيوب خيرمن تشوفك لماغاب عنك من الغيوب"وفي الحديث "من عمل بماعلم أورثه الله علم مالم يعلم"ومن الإنصاف عدم التجرؤ على العلم والخوض فيه دون دراية ولذلك قالوا ثلاثة أرباع العلم في كلمة"لاأدري"، وحكاية الإمام مالك في إجابته عن ثمان وثلاثين مسألة من أربعين لاأدري معروفة.

ومن الإنصاف الاعتراف بالحق دون مبالاة بمن قائله عالما كان أومتعلما، شيخا كان أو تلميذا، وحسبك قول أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه "يابني لاتعرف الحق بالرجال، ولكن اعرف الرجال بالحق اعرف الحق تعرف أهله"

أما العالم الذي تقيده الحقائق

أي حقائق العلم النافع الذي ينبسط في الصدر شعاعه وينكشف به عن القلب قناعة، وهوالعلم الذي يورث الخشية، ومن لم يخش الله فليس بعالم كما قال سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى:﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَٰؤُا ﴾ حيث قال من لم يخش الله فليس بعالم والفرق بين العالم والعارف كما ذكره ابن عجيبة في فتوحاته الإلهية هوأن العالم دون مايقول والعارف فوق مايقول، العالم يصف لك الطريق كما وصفت له والعارف يصحبك في الطريق كمامشاها وعاينها وكابدها، العالم محجوب والعارف محبوب، العالم من أهل اليمين والعارف من المقربين، العالم من أهل الدليل والبرهان والعارف من أهل الشهود والعيان، العالم من أهل الفرق والعارف من أهل الجمع، العالم من أهل إياك نعبد والعارف من أهل إياك نستعين، العالم يذكرك بالله في الصلوات والعارف من أهل يذكرك بالله في الأنفاس واللحظات، العالم يدلك على الأسباب والعارف يدلك على مسبب الأسباب، العالم يحذرك من الشرك الجلي والعارف يحذرك من الشرك الخفي.

أما الفقيه الذي تقيده الاتساعات

أي اتساعات الفقه دون تعصب أو تقليد أعمى مع الحفاظ على الأصول والقواعد، فمن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ومن جمع بينهما فقد تحقق.

وأهل الدليل والبرهان هم عموم عند أهل الشهود والعيان كمابينه أبوالحسن الشاذلي رضي الله عنه.

ويقول ابن عجيبة رضي الله عنه :إن العلوم الرسمية تدرك بالدلائل والبراهين فنهايتها الظن القوي، وهذا شأن الفروع الفقهية، أما علوم القوم فإنها مواقف وأسرار، وكشوفات واذواق، حتى يصير ماكان غيبا شهادة، وماكان علما ذوقا وحالا، وماكان دليلا مدلولا، وماكان نظريا ضروريا فهولاء ـ يرعاك الله ـ هم أهل التصوف الحق الذين تجب أن تذكروا إذا ذكرالتصوف.

أما سواهم!! ممن متحامل باجهل أو مستظهر بالدعوة أومجازف في النظر أو عامي غبي أو طالب معرض ومصمم على تقليد أكابر من عرف في الجملة، فإن كان في العمربقية ومدد وإذن المولى فسأذكر لك بعضا من شأنهم عافانا الله وإياك أن نكون منهم، والله يقول الحق ويهدي إلى سواء السبيل.

*****

الإحسان في الكتاب والسنة

الشيخ محمد يحيى الكتاني[1]

إن التصوف علم شريف لا يجهل قدره ولا ينكر فضله، فهو العلم المعني بإصلاح القلوب وتزكية النفوس والأخذ بأيدي العباد إلى خالقهم - سبحانه ـ على منهج النبوة، ولا شك أن الحكم على الشيء فرع تصور ماهيته كما قال الإمام سيدي أحمد بن زروق فى فاتحة قواعده، وقد عرف التصوف بتعريفات متعددة بعضها بالحد وبعضها بالرسم، غير أن كل من عرفه عبرعما يجده في نفسه وحاله من أثر هذا العلم الشريف في سلوكه إلى الله تعالى، ومن أجمع هذه التعاريف ماروي (عن أبي الحسن الفرغاني قال: سألت أبا بكر الشبلي ما علامة العارف؟ فقال: صدره مشروح، وقلبه مجروح، وجسمه مطروح، قلت: هذه علامة العارف، فمن العارف؟ قال: العارف الذي عرف الله عزوجل، وعرف مراد الله عزوجل على ماورد في كتاب الله وعمل بما أمر الله وأعرض عما نهى الله ودعا عباد الله إلى الله عزوجل. قلت: هذا العارف فمن الصوفى؟ فقال من صفا قلبه فصفى وسلك طريق المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، ورمى الدنيا خلف القفا، وأذاق الهوى طعم الجفا. قلت له: هذا الصوفي، ما التصوف؟ قال: تصفية القلوب لعلام الغيوب. قلت له: أحسن من هذا، فما التصوف؟ قال: تعظيم أمر الله والشفقة على عباد الله. فقلت له: أحسن من هذا، من الصوفى؟ قال: من جفا عن الكدر وخلص من العكر وامتلأ من الفكر وتساوى عنده الذهب والمدر.)

وقال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري: "التصوف علم تعرف به أحوال تزكية النفوس وتصفية الأخلاق وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية "

وسئل سيد الطائفة الجنيد البغدادي عن التصوف فقال: "اسم جامع لعشرة معان، الأول: التقلل من كل شيء من الدنيا عن التكاثر فيها ،والثاني: اعتماد القلب على الله عزوجل من السكون إلى الأسباب، والثالث: الرغبة فى الطاعات من التطوع فى وجود العوافي، والرابع: الصبر على فقد الدنيا

[1] خادم العلم بثغر الإسكندرية والمدرس بالجامع الأزهر الشريف، القاهرة

عن الخروج إلى المسألة والشكوى، والخامس: التمييز فى الأخذ عند وجود الشيء، والسادس: الشغل بالله عزوجل عن سائر الأشياء والسابع: الذكر الخفي عن جميع الأذكار، والثامن: تحقيق الإخلاص في دخول الوسوسة، والتاسع: اليقين في دخول الشك، والعاشر: السكون إلى الله عزوجل من الاضطراب والوحشة، فإذا استجمع هذه الخصال استحق بهذا الاسم وإلا فهو كاذب".

هذه ثلة من التعريفات التي تكشف لنا جليا حقيقة هذا العلم الشريف، والمتأمل فى هذا العلم والواقف على ماهيته يدرك أنه ليس بدعا من العلوم ولا مخالفا للأصلين العظيمين (الكتاب والسنة) بل هو مستمد منهما ومشتمل على زبدتهما، يقول الله تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (النازعات:٤٢،٤١) وقال سبحانه أيضا ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ٩،١٠) وغير ذلك من الآيات القرآنية التي تشير إلى ضرورة تهذيب النفس وتزكيتها ورياضتها وهو ما قام عليه التصوف الإسلامي. وقد جاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم داعيا إلى الله تعالى حاملا كل هذه المعاني النورانية مطالبا كل المسلمين بأن يسلكوا هذه السبيل وهى سبيل التزكية. والإرشاد النبوي إلى التزكية الروحية هو أحد مهام النبوة والتي تتمثل فى ثلاث مهام :

المهمة الأولى: مهمة البلاغ قال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ (المائدة : ٦٧)

المهمة الثانية: مهمة الحكم بما أنزل الله تعالى وإقامة العدل وتحقيق مقاصد الشريعة فى معاش الناس قال الله تعالى ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ (المائدة : ٤٩)

المهمة الثالثة :وهى مهمة التزكية وإصلاح النفوس ونشر مكارم الأخلاق قال تعالى ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ﴾ (البقرة: ١٥١) وقد أكد صلى الله عليه وآله وسلم على توضيح هذه المهمة وإجلاء منصتها وبين أن أعلى مراتب الإيمان هو مرتبة الإحسان وهو كما قال عليه الصلاةوالسلام "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"[1] وهو المعنون عنه عند الصوفية بمقام المراقبة .

وجدير بالذكر أن الحافظ ابن حجر في فتح الباري عند شرحه لهذا الحديث أشار الى بعض طوائف الصوفية الذين ينحرفون في تأويل هذا النص وتوجيهه بما يخالف معناه الظاهر فيقول بعضهم "فإن لم تكن" ثم يقف ويقول "تراه" بمعنى إذا لم تكن وفنيت عن نفسك فإنك تراه فى حال فنائك ،وقد شنع الحافظ عليهم فى هذا الموضع ووصفهم بالغلاة ورفض هذا التوجيه المنحرف والتأويل المتعسف .

ثم إننا نرى من يأخذ كلام الحافظ ابن حجر ليتخذه بابا للطعن فى التصوف والصوفية ، والحقيقة

[1] صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم

بخلاف ذلك وبيان هذا من وجوه :

الوجه الأول :أن كلام الحافظ ابن حجر فى هذا الموضع وكل المواضع التي انتقض فيها الصوفية فى كتابه فتح الباري إنما وجه انتقاضه لطائفة من الغلاة لا أصحاب التصوف المستقيم على منهج الكتاب والسنة

الثاني :من الضروري أن نعلم أن التصوف ليس كله على درجة واحدة ولا الصوفية كذلك بل مثلهم فى ذلك مثل غيرهم من الطوائف فيهم المقتصد وفيهم السابق وفيهم الغلاة الذين لا يعبرون إلا عن منهجهم المتشدد وفكرهم المنحرف، والتصوف كذلك منه الفلسفي ومنه غير الإسلامى ومنه التصوف الإسلامي الراشد، وهو ما ندندن حوله .

الثالث :أن انتقاد الحافظ لتوجيه الحديث على النحو الفاسد الذي أشار اليه انتقاد سديد، فهو لايصح شرعا و لا لغة . أما شرعا فإنه تحريف لكلام المعصوم صلى الله عليه وآله وسلم وانحراف عن مراده وأما لغة فهو خطأ من جهة النحو.

رابعا: أن منشأ الخطأ فى هذا القول الفاسد هو توهم أن قوله "فإنه يراك " هو جواب الشرط وهذا خطأ قطعا والصحيح أن قوله "فإن لم تكن تراه" اشتمل على أداة الشرط وفعلها. وأن جواب الشرط محذوف تقديره "فراقبه فانه يراك" لأنه لوكان قوله "فانه يراك" هو الجواب لكان المعنى فان لم تكن تراه يراك فإذا رأيته فإنه لايراك، وهو معنى فاسد بلاشك .

والخلاصة أن أي انتقاد في محله فإنه يصب فى جهة التصوف المنحرف والصوفية الجاهلين، أولئك الذين حذرنا منهم شيوخ التصوف الكمل العارفون أمثال الإمام أ بى يزيد البسطامي الذي قال (احذروا صحبة ثلاثة: الجبابرة المتكبرين، والقراء المداهنين، والصوفية الجاهلين.

أما التصوف السني السلفي الراشد المستنير فهو لب الإسلام، وجوهره الناصع المشرق، ذلكم التصوف الذي وضع لبنته المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم الذي أوتي مكارم الأخلاق وقال الله تعالى فى شأنه ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(القلم:٢) وقال بعض العارفين "التصوف أخلاق فمن زاد عليك في الأخلاق زادعليك في التصوف" وقال الإمام الجنيد "التصوف الدخول فى كل خلق سني والخروج من كل خلق دني"

هذه هي الحقيقة التي ينبغى أن تكون مقررة عندنا جميعا، فالتصوف أو الطريقة و الحقيقة.ـ وكلها معان رائقة ــ لا فرق بينها وبين الشريعة بل هي لب الشريعة وأصلها، غير أن كثيرا من المتصوفة الجاهلين الذين حذرنا منهم الربانيون، قد فرقوا بين الشريعة والطريقة والشريعة والحقيقة

وتوهموا أن الحقيقة تخالف الشريعة وأن الباطن يخالف الظاهر، ويدعون أنهم أهل الباطن و أن علماء الشريعة هم أهل الظاهر قصدا إلى تنقيصهم وتزكية لأنفسهم، بغير حق. وهذا خطر محدق وجهل مطبق لأن الحقيقة فى الشريعة ممتزجة بها امتزاج الماء بالعود الأخضر وقد أنكر السادة الصوفية الحقيقيون الإعراض عن ظواهر الشرع، قال السيد الشيخ سيدي أحمد الرفاعي رضي الله عنه "العلماء سادات الناس وأشراف الخلق والدالون على طريق الحق، لا تقولوا كما يقول بعض المتصوفة: نحن أهل الباطن وهم أهل الظاهر، فإنه لولا الظاهر لما كان الباطن ولما صح، القلب لا يقوم بلا جسد بل لولا الجسد لفسد"

فلا يمكن لإنسان أن يصل إلى ربه إلا بمتابعة الشرع الشريف فالطرق كلها مسدودة إلا على من اقتفى أثر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما قال الإمام الجنيد وقال الإمام الصوفي الجليل سهل بن عبد الله التستري "الدنيا كلها جهل إلا ما كان علما وعملا والعمل كله موقوف إلا ما كان على الكتاب والسنة، وتقوم السنة على التقوى" ونحن لا ننكر العلوم المكنونة ولا الأسرار المكتومة التي يختص الله تعالى بها من شاء من عباده وراثة نبوية وعطية ربانية، ولكننا ننكر أن يكون شيء من ذلك لأحد بمخالفة الشرع الشريف وترك العلم لأن التصوف الذي هو علم المعارف والأسرار لا ينبل الرجل فيه إلا بالعلم المصاحب للعمل، قال الإمام الصوفي عبد الله بن خفيف الشيرازي:"اشتغلوا بتعلم العلم ولا يغرنكم كلام الصوفية" أى جهلة المتصوفة.

ويقول الإمام الرفاعي أيضا "شيدوا دعائم الشريعة بالعلم والعمل، وبعدها ارفعوا الهمة للغوامض من أحكام العلم وأحكام العمل، أشياخ الطريقة وفرسان ميادين الحقيقة يقولون لكم خذوا بأذيال العلماء تفقهوا" ومن ذلك كله يظهر لنا أن من يدعي أنه لا حاجة له إلى علم الدين ولا إلى العلماء بل يكفيه الإلهام والفيوضات كلام مردود، قائله ليس صوفيا ولا يعرف طريقهم.

وختاما فإن التصوف هو أشرف العلوم وأزكاها. وأعلاها وأزهاها وأجلها وأبهاها، أنواره لامعة وأسراره هامعة، وهو خلاصة العمل بالعلم على وجه الإخلاص وثمرة المتابعة التامة لسيد الوجود صلى الله عليه وأله وسلم، أصوله قائمة على الكتاب والسنة والإجماع والقياس المستجمع للشرائط لا غلو فيه ولا شطط و لا إفراط فيه ولا تفريط.

جعلنا الله وإياكم من المتحققين بذلك والمتأهلين لما هنالك. ومن القائمين بالشعائر المحمدية فى كل وقت وحين، آمين.

*****

التصوف عِلمٌ وعَمَلٌ

الشيخ حسن نجار محمد[1]

إن التصوف عِلم يُعرَف به كيفية السلوك إلى ملك الملوك (ابن عجيبة).

هوعِلمٌ قُصد به إصلاح القلوب وإفرادُها لله تعالى عماسواه (الشيخ أحمد زروق).

وهذا هو صُلْب الإسلام و أُمُّه الذي يُبنى عليه.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام ١٦١، ١٦٢) ـــ وسواءٌ أكان التصوف مأخوذاً من الصُّفَّة أم من الصَّفاء ـــ فإن الذي يجمع كُلَّ ذلك الإخلاصُ في الفعل والتَّرك والتوجُّه في كل لله ربِّ العالمين.

انتشر حركة التصوف في العالم الإسلامي في القرن الثالث الهجريِّ تقريباً بين أفراد زهدوا في الحياة ورغبوا في العبادة، ثم تطور الأمر بتوالي الزمن حتى صار التصوف طُرُقاً متنوعةً. ويحفل التاريخ الإسلاميُّ بمجموعة كبيرة من ذوي الشأن من العلماء والقواد؛

فمن العلماء: النوويُّ، والغزاليُّ، والعزُّ بن عبدالسلام ـــ

ومن القُوَّاد: صلاح الدين الأيوبيُّ، ومحمد الفاتح، والأمير عبدالقادر الجزائريُّ، وشيخ المجاهدين عمر المختار ـــ رحمهم الله جميعاً ـــ .

هذا هو التصوف في أساسه، مَبناه على العِلم. لكن بمرور الزمن، ابتعد الأتباع كثيرًا عن هذا الأصيل، ودخل في طُرُق التصوف كثيرٌ من الجَهَلة، وترتب على ذلك مفاسدُ كثيرة شوَّهت في كثير من الأحيان حقيقة التصوف الجميلةَ وعكَّرتْ صَفائه.

مما جعل التصوف وأهله هدفاً سهلاً للهجوم عليه كُلِّيَّةً !! . ومع هذه الكثرة الكاثرة من الجهلة المنتسبين للتصوف؛ فإننا نرى اليوم مايمكن أن نسميه حركةً تصحيحيةً للتصوف، هذه الحركة

[1] الأستاذ بكلية اللغة العربية، بجامعة الأزهر الشريف، القاهرة ؛ جمهورية مصر العربية .

جديرةٌ بالاهتمام والمساندة لتُكمل طريقها في إعادة الأمور إلى نصابها ومسارها الصحيح. تتمثل هذه الحركةُ في إنشاء معاهد وأكاديميات تقوم على تدريس التصوف الصحيح والتعريف به. ويأتي على رأس هذه المعاهد في مصر (أكاديمية الإمام الرائد لدراسة التصوف وعلوم التراث).

أنشأ هذه الأكاديمية الإمام الراحل محمدزكيِّ الدين إبراهيم، رحمه الله تعالى. منشأُ هذه الأكاديمية إذن على العِلم؛ فصاحبها عالم نحيرٌوشاعرٌفحلٌ. وقدكان لهذا العِلم وذلك الأدب دورٌبارزٌفي الهدف من إنشاء هذه الأكاديمية، وهوالتصوف وسُلوك الطريق إلى الله تعالى بعِلمٍ وبَيِّنةٍ يَمتحان من القرآن والسنة، ولاتُضادّان أيًّا منهما. ولذلك فلاعجب أن نرى في التعريفات التى مرَّذِكرها أنَّه"عِلْمٌ".

إذن هوعلمٌ يَبرأُ من الخرافات والتُّرَّهات واتباع الهوى، إنه لايَحيد عن الأصول عن الأصول الشَّرْعية. وإذا قرأنا تاريخ العلماء المنتسبين إليه لن نجدهم يخرجون عن ذلك.وهذا يجعلنا نُقرِّرأنه من الظُّلم أن نحكم على التصوف من خلال أفعال الجَهَلة ممن ينتسبون إليه رَغْماً عنه وهومنهم براءٌ !! .

إن كثيراً ممن يتخذون التصوف طريقًا اليوم يَضرونه أكثرممايَنفعونه؛ فقد رَضُوا بالضَّعف والاستكانة والانهزامية والتسليم للظُّلم والظالمين، رَضُوا بالتقوقع فى صَوامعهم وتركوا الدنيا لغيرهم، ولم يشاركوا فى صنعها والتقدم بها وَفقَ المنهج الرَّبَّانيِّ. فتركوا المجال واسعاً أمام أهل الباطل. وليس هذا من التصوف في شيء؛ فالتاريخ شاهد عدلٌ قديماًوحديثاً على أن أهل التصوف كانوا عُنصرًا إيجابيًا إلى أبعد الحدود في الحياة ؛ كانوا علماء ومجاهدين وَسادة.

وهذا شيخ المجاهدين عمرالمختار (١٨٦١ – ١٩٣١م) يقضي آخرَعشرين سنة في حياته في جهاد الإيطاليين، وهو شيخ صوفيٌ للطريقة السنوسية ، وهذه كلماته ساعة إعدامه تقذف بالحِمَم على كل المتقاعسين؛ قال: " نحن لانستسلم، ننتصرأونموت، وهذه ليست النهاية، بل سيكون عليكم أن تحاربوا الجيل القادم والأجيال التي تليه، أمّا أنا فإن عُمُري سيكون أطول من عمر شانقي !! " .

وقدكان؛ فإن التاريخ يحفظ بطولات المختار، ويفخربها كل جيل مسلم، وهو في مع الشهداء في جنة الفردوس حَيٌّ عندربه!! .إن العِلْمَ والعَمَل في التصوف كجناحَي طائر لايهنض إلابهما. وإذا كان هذا هوالتصوف، وهذا هوبالفعل في حقيقته فَمرحَى به مَرحَى مَرحَى!! .

*****

التصوف الإسلامي

إن أساس نشأة هذا العلم هو انغماس الناس بعد عصر النبوة فى الملذات والشهوات

الشيخ / محمد عبدالظاهرمحمد الحسيني[1]

علم التصوف هوعلم زكاة النفس وطهارتها وتنميتها وزكاة النفس وصلاحها من أهم الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها المسلم والمسلمة ، وصدق الله تعالى حيث قال :﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ٩،١٠).وتظهر أهمية الحديث عن تزكية النفس بالنظرإلى الواقع الذي نعيشه اليوم ، وغلبةالحياة المادية فيه على الناس، وتلوث الفطروالنفوس بكثيرمن الآفات والشهوات التي قدأفرزتها الحياة المعاصرة التي صبغ الناس فيها ، بصبغة غريبة على الفطرة وعلى النفس المستقيمة النقية.

ولما كانت تزكية النفس مفهومها هوتخلية وتجلية وتنمية أى التطهيروالإصلاح والتصفية، تظهرلنا أهمية التصوف كعلم يعتني بالنفس إصلاحها ، يعتني بالقلب تطهيره، هذا القلب الذي به نجاة العبد وخلاصه فبصلاحه تكون النجاة ، وبفساده تكون الهلكة ، وإلى هذا المعنى أشارالحديث المتفق عليه يقول أسعدالمخلوقات عليه الصلاة والسلام : " ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسدالجسد كله ألاوهي القلب " .

ولما كان التصوف هو الإصلاح والتطهيروالنقاء والصفاء، فيلزمنا أن نقف على حقيقة ماهيته وتعريفه. يقول الشريف الجرجاني صاحب كتاب التعريفات : التصوف مذهب كله جد فلا يخلطونه بشيء من الهزل، وقيل تصفية القلب عن موافقة البرية ومفارقة الأخلاق الطبعية، وإخماد صفات البشرية ومجانبة الدعاوي النفسانية، ومُنازَلَةُ الصفات الروحانية، والتعلق بعلوم الحقيقة، واستعمال ماهو أولى على السرمدية ، والنصح لجميع الأمة ، والوفاء لله على الحقيقة ، واتباع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى الشريعة ، وقيل ترك الاختيار ، وقيل بذل المجهود والأنس بالمعبود. وقيل: حفظ حواسك من مراعات أنفاسك ، وقيل الاعراض عن الاعتراض. وقيل: هو صفاء المعاملة مع الله تعالى ، وأصله التفرغ عن الدنيا. وقيل هو : الصبر تحت الأمر والنهي. وقيل: خدمة التشرف وترك التَّكَلُّفِ واستعمال التَّظَرُّف. وقيل : الأخذ بالحقائق والكلام بالدقائق والإياس مما فى أيدي

[1] إمام وخطيب / الجامع الأزهر الشريف،القاهرة، مصر.

الخلائق. وقيل: الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرا فيرى حكمها من الظاهر فى الباطن، وباطنا فيرى حكمها من الباطن فى الظاهر فَيَحْصُل للمتأَدِّب بالحُكْمَين كَمَال [1].

وحقيقة هذا مانراه فى معنى التصوف لأن التصوف مأخوذمن صفا أى خلص فالصوفي هو الصفيُّ أى الخالص من كل شيء. ومن هنا ندرك أن التصوف هو مجاهدةالنفس لتصل إلى الرقي في الأخلاق والكمال فى الطاعة والعبادة ولهذا فهومبني على المجاهدة والإخلاص، المجاهدة التي ناجى الله تعالى بها عباده فقال:﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾(العنكبوت آخر آية).

ولعلنا ندرك بماذكرنا عن التعريف لهذا العلم الذي أسميه علم السلوك والسالكين، ماذكره أهل التصوف عن حقيقة المجاهدة والإخلاص، فقد قيل لبعضهم من المخلص؟ قال: المخلص الذي يَكْتُمُ حَسَنَاتِهِ كما يكتم سيئاته.

وكذلك قال بعض العارفين حين سُئِل ماغايةالإخلاص ؟ قال : أن لا يُحِبَّ مَحْمَدَةَ الناس ، وقيل لذى النون المصري متى يعلم الرجل أنه من صفوة الله تعالى ، يعنى مِنْ خَوَاصِّه الذين اصطفاهم الله تعالى ؟ قال : يعرف ذلك بأربعة أشياء ؛ إذا خلع الراحة يعنى تَرَكَ الراحة وأعطى من الموجود ، يعني يعطي من القليل الذي عنده وأحب سقوط المنزلة ، يعني أن لايفتخر بمنصب أوجاه حتى لايدخل العجب ؛﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾(الأعراف:٧٦). واستوت عنده المحمدة والمذمة؛ أي: المدح والذم عنده سواء ، ولعل هذا قدأخذ من حديث الرسول – صلى الله عليه وسلم – الذي رواه الترمذي وقال حديث حسـن"ليست الزهادة فى الدنيا بتحريم الحلال ولاإضاعة المال، ولكن الزهادة فى الدنيا أن تكون بمافى يدالله أوثق منك بمافى يدك،وأن يكون مَدْحك وذمك فى الحق سواء" .

وقال بعضهم : يحتاج العمل إلى أربعة أشياء حتى يَسْلَمَ.

أَوَّلُها: العلم قبل بَدئِـه، لأن العمل لايصلح إلا بالعلم فإذا كان العمل بغيرعلم كان مايفسده أكثر مما يُصلِحَهُ.

الثاني: النية في مبدئه لأن العمل لايصلح إلا بالنية كما قال : رسو ل الله – صلى الله عليه وسلم – في الحديث المتفق عليه " إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرء مانوى"(البخاري ومسلم عن عمر رضي الله عنه) .

فالصوم والصلاة والحج والزكاة وسائرالطاعات لاتصلح إلا بالنية، فلابد من النية فى مبدئها لِيَصْلُحَ العمل.

الثالث : الصبر في وسطه يعني يصبر فيها حتى يؤديها على السكون والطمأنينة.

الرابع : الإخلاص عند فراغه لأن العمل لايُقْبلُ بغير إخلاص ، فإذا عملت بالإخلاص يتقبل الله

[1] : التعريفات للجرجاني صـ٥٢ ط مصطفى البابي الحلبي .

تعالى منك ، وتُقْبِلُ قُلُوبُ العباد إليك ؛ قال السمرقندي الفقيه : " مَنْ أراد أن يَجِدَ ثَوابَ عَمَلِه فى الآخرة ينبغي له أن يكون عمله خالصا لله تعالى بغيررياء ثم ينسى ذلك العمل لكيلا يُبْطِله العُجْبُ لأنه يُقالُ حفظ الطاعة أَشَدُّ مِنْ فعلها " .

وقال آخر : مَن عَمِلَ سَبْعَةً دون سَبعَةٍ لم يَنْتَفِعْ بها يعمل. أولها : أن يعمل بالخوف دون الحذريعني يقول إني أخاف عذاب الله ولايحذر من الذنوب فلاينفعه القول شيئا. والثاني : أن يعمل بالرجاء دون الطلب ، يعني يقول إني أرجو ثواب الله تعالى ولايطلبه بالأعمال الصالحة لم تنفعه مقالته شيئا. الثالث: بالنية دون القصد يعنى ينوي بقلبه أن يعمل بالطاعات والخيرات ولايقصد بنفسه لم تنفعه نيته شيئا. والرابع: بالدعاء دون الجهد، يعنى يدعو الله تعالى أن يوفقه للخير ولايجتهد لم ينفعه دعاؤه شيئا، وينبغي له أن يجتهد ليوفقه الله كما قال الله تعالى:﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾(العنكبوت:٦٩). يعني الذين جاهدوا في طاعتنا وفي ديننا لنوفقنهم لذلك. والخامس: بالاستغفار دون الندم يعني يقول أستغفرالله ولايندم على ماكان منه من الذنوب لم ينفعه الاستغفار بغير الندامة " وَأَبْكِ على خطيئتك " [جزءمن حديث]. والسادس: بالعلانية دون السَّرِيرة، يعني يصلح أموره فى العلانية ولايصلحها فى السِّرِّ لم تنفعه علانيته شيئا. والسابع: أن يعمل بالكد دون الإخلاص، يعني يجتهد في الطاعات ولاتكون أعماله خالصةً لوجه الله تعالى، لم تنفعه أعماله بغير إخلاص ويكون ذلك اغترارًا منه بنفسه ، عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : قال الله تعالى : " أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا أشرك فيه غيري فأنا منه بريئ " [رواه الإمام أحمد وغيره] . يعني من ذلك العمل، ففي هذا الخبر دليل على أن الله تعالى لايقبل من العمل شيئا إلاماكان خالصا لوجهه ، فإذا لم يكن خالصا فلا يقبل منه ولاثواب له في الآخرة ومصيره إلى جهنم، قال الله تعالى:﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ۝ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾(الإسراء: ١٨ ، ١٩) .

ومن خلال هذه الأقوال والحكم التي ذكرت نستطيع أن نحدد معالم التصوف فهوعلم الأخلاق الربانية ، والمجاهدة النفسية ، والرياضة القلبية ، وكل هذا يحتاج إلى بذل الطاقة فى العبادة والطاعة للوصول إلى البغية، والاهتداء إلى الحق.

ولقد كان أهل التصوف فى البداية يُلَقَّبُون بالعُبَّاد ، والنساك ، والزهاد ، لما روي من رجالهم وأحوالهم فهم شغلوا بالتنزه عن الدنيا الفانية ، والانقطاع إلى الله عزوجل لكلية. فما أخذتهم زينة

الحياة الدنيا عن ذكرربهم جل علاه يريدون أن يحوزوا الباقيات الصالحات التي ذكرها الله عزوجل في قوله سبحانه﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾(الكهف:٤٦).
والباقيات الصالحات أمرنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالإكثار منها كما ثبت عنه فى الحديث الصحيح الوارد بشأنها والذي يقول فيه عليه أزكى الصلوات وأعطر التحيات" استكثروا من الباقيات الصالحات ؛ قالوا وما الباقيات الصالحات يارسول الله ؟ قال : التسبيح ، والتحميد ، والتكبير ، والتهليل ، وقول سبحان الله والحمدلله ولاإله إلاالله ، والله أكبر " .
هذا وبالنظر إلى ماكتب عن التصوف وأهله نجد أن الكتابة عن هذا العلم والمنتسبين إليه بدأت بالحديث عن الزهدكماذكرذلك عن كتاب الزهد لعبدالله بن المبارك ، وكذلك كتاب الزهد للإمام أحمد بن حنبل، وكذلك الحديث عن المحبة الإلهية والفناء فيها ورأينا أسماءً لامعة في هذا الفن وهذا العلم، كأمثال: سفيان الثوري، والجنيد، وشقيق البلخي، وإبراهيم بن أدهم، وابن المنكدة، وحاتم الأصم ، وغيرهم كثير . وجاء حجةالإسلام الإمام أبوحامد الغزالي فألف الكتاب الجميل " الإحياء " الذي قال عنه العلماء: " من لم يقرأ الإحياء فليس من الأحياء " .
ثم القشيري والرسالة القشيرية ، ثم الإمام الشعراني صاحب " الطبقات " وصاحب " الأنوارفي صحبةالأخيار "؛ إلى غيرذلك من المؤلفات والتراث العظيم الذي خلفه هؤلاء الأعلام الأجلاء الذين سطروا بأفعالهم قبل أقوالهم كيف يكون المسلم مع الله ، ومع النفس ، ومع الناس جميعهم محققين أمرالرسول الأكرم عليه الصلاةوالسلام في حديثه الذي رواه الإمام الترمذي عن أبي ذرالغفاري – رضي الله عنه – وقال عنه حديث حسن صحيح وفيه يقول أسعدالخلق – صلى الله عليه وسلم – " اتق الله حيث ماكنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن " .
وبالنظر إلى أحوال هذا العلم ومراحل نشأته وتطوره نلاحظ أن أساس نشأته ، هو انغماس الناس بعدعصر النبوة فى الملذات والشهوات، وانصرافهم عن الطاعات، والعبادات، والمجاهدة، والتزكية للنفس فقام أهل الفضل والإحسان والتقوى والولاية والرعاية إلى ردالناس إلى ماكان عليه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وصحابته من مجاهدة الطاعة وحسن القصد والتوجه إلى الله ، وإخلاص العبادة، فنشأهذا العلم ليردالناس إلى التوحيد وإلى العمل، وإلى أحكام الشريعة، وإلى الاقتداء بالهدي المحمدي، إلى قوة الاستجابة لله ورسوله كما قال الله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾(الأنفال: ٢٤).

*****

التصوف اصله وحقيقته

د/عادل محمود سرور[1]

إن المسلمين بعد رسول اللهﷺ لم يتسم أفاضلهم فى عصرهم بتسمية سوى صحبة رسول الله ﷺ ؛ إذ لافضيلة فوقها ، فقيل لهم : الصحابة - ولما أدركهم أهل العصرالثاني سمي من صحب الصحابة التابعين، و رأ وا في ذلك أشرف تسمية ، ثم قيل لمن بعدهم : أتباع التابعين. ثم اختلف الناس، وتباينت المراتب، فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمرالدين: الزهاد والعباد.

ثم ظهرت البدع ، وحصل التداعي بين الفِرَق، فكل فريق ادعو ا أنهم هم الزهاد مع أنهم إلى الدنيا راغبون، وأكثرهم عن ربهم غافلون؛ فانفردت طائفة من خواص أهل السنة أخلصوا لله في نياتهم وفي أعمالهم فكانوا بهذا الإخلاص التام العام هداة بررة، راقبوا أنفسهم مع الله تعالى على الدوام، وحفظوا قلوبهم عن طوارق الغفلة، وقد عرفت هذه الطائفة باسم الصوفية، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة؛ وقد قيل: إنهم سموا بذلك لأن غالب لبسهم الصوف؛ فللقرطبي نقلا عن ابن العربي في معرض الحديث عن لباس الصوف أنه قال:"وهو شعار المتقين ولباس لينا وخشنا في الغالب، فالياء للنسب والهاء للتأنيث. ولم يرتض بعض أشياخ الصوفية هذه العلة فذكر أن الصوفي سمي بذلك من المصافاة؛ فقد ذكر القرطبي ما أنشده بعض أشياخ هذه الطائفة إذ يقول:

تشاجر الناس في الصوفي واختلفوا فيه وظنوه مشتقا من الصوف ولست أنحل هذا الاسم غيرفتى صافي فصوفي حتى سمي الصوفي وقدجعل الله هذا الطائفة صفوة أوليائه، و جعل قلوبهم معادن أسراره، و محل تنزلات رحماته؛ فهم جميع أحوالهم مع الحق بالحق، يقومون بآداب العبودية؛ فيرجعون إليه بصدق الافتقار، لا على أعمالهم يعتمدون، لكن على فضل الله و رحمته يتكلون؛ لذلك يجب على الراغب في الهداية وسلوك الطريق المستقيم الموصل إلى الله تعالى أن ينهج نهج هؤلاء السادة الصوفية.

تختلف عبارات الناس في التصوف ما هو؟، فيقال: هو حفظ حواسك، ومراعاة أنفاسك. ويقال: هو الجد في السلوك إلى ملك الملوك. ويقال هو الإكباب على العمل، والاعتراض عن العلل. ويقال: هو الدخول في كل خلق سني، والخروج من كل خلق دني. ويقال: أن يميتك الحق عنك، ويحييك به. إلى

---

[1] Srour60@hotmail.com

غير ذلك مما لو استقصيناه لخرج بنا عن المقصود.
ويمكن القول بأن للتصوف حقيقة بالمعنى العلمي، وحقيقة بالمعنى العملي .
أما التصوف بالمعنى العلمي فهو علم بأصول تعرف به صفات النفس ودسائسها وأمراضها، وكيفية معالجتها، وتهذيبها، وتزكيتها على حسب الكتاب والسنة.
وأما التصوف بالمعنى العملي فهو الأخذ بالأحوط في المأمورات، واجتناب المنهيات والاقتصار على الضروري من المباحات، مع الإخلاص لله تعالى.
فالتصوف بهذا المفهوم العملي هو الاشتغال بعبادة الله تعالى، والتعلق به سبحانه. وهذا هو التحقق بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:٥٦) وبقوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾(الأنبياء : ٢٥)والعجيب أن نجد من لاذوق له يذم التصوف والصوفية ، ويقول الإمام الشعراني رادا عليهم : "وإياك أن تقول: طريق القوم لم يأت بها كتاب ولاسنة؛ فإنها كلها أخلاق محمدية، سداها ولحمتها منها " ويقول الشيخ أحمد الدردير في كتابه: (تحفة الإخوان): "إن طريق القوم هي تقوى الله تعالى التي أمرنا بها في كتابه العزيز على لسان نبيه و رتب عليها سعادة الدارين، وحصول المعارف والأسرار الإلهية، والتكفل بالرزق من غير مشقة، وحكم سبحانه أن كل من تمسك بها أكثرمن غيره كان عند الله أكرم" كما قي قوله تعالى:﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾(الطلاق:٢،٣)وقوله تعالى : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(الحجرات : ١٣) وخلاصة القول ما ذكره فضيلة الشيخ محمد أحمد الطاهر الحامدي في كتابه : (مرشد الأنام) من أن طريق الصوفية هو طريق مقوم موزون بميزان العقل والشرع يهدف إلى تخليص الأعمال من الحظوظ والأغراض الفاسدة، وإلى تكييف الحياة الإنسانية تكييفا دينيا صالحا ، أساسه تقوى الله ، ومراقبته على الدوام ، و ذكره باللسان والجنان. والحديث بقية ـ إن شاء الله ـ
(مستفاد من عدة مصادر أهمها:الرسالة القشيرية للإمام زين الدين أبي القاسم القشيري، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، وتعليقات شيخ الإسلام زكريا الأنصاري عليها، وتحفة الإخوان للشيخ أحمد الدردير، ومطية السالك إلى مالك الممالك لمولانا الشيخ أحمدالطاهر الحامدي ، ومرشد الأنام لفضيلة سيدنا الشيخ محمد أحمد الطاهر الحامدي. ورسالة بعنوان: نبذة عن التصوف لفضيلة سيدنا الشيخ مروان أحمد مروان.)

*****

قضية الشيخ والمريد

بين التمسلف والتصوف

د.محمد مهنا[1]

تلقينا رسالة من أحد الشباب الباحثين عن الحق، الصادقين فى طلب الحقيقة، فى زمان اندرس فيه الحق وذهب أهله، وعلا فيه الباطل وصال وجال أهله، يتساءل فيه عن ضرورة التأدب على يد شيخ ناصح يأخذ بيده فى الطريق إلى الله عز وجل، ومن هو هذا الشيخ وما شروطه، وكيف السبيل إليه، إلى غير ذلك من التساؤلات الواردة فى الرسالة التى ربما يكون فى نشر بعض مقتطفات منها أهمية فى بيان الأثر السيىء الذى يتركه منهج التمسلف فى أوساط الشباب وغيرهم من كبر وتعالم يؤدي حتمًا إلى التطرف، كما أنها رسالة أيضًا إلى المتمشيخين من محترفي التصوف وأدعياءه الذين يتصدرون للإرشاد دون أهلية لذلك الغرض أو لعرض أو لهوى فيصدون عن السبيل وهم يحسبون أنهم

الأدب مقام الأنبياء والصديقين ومن كان على قدمهم إلى يوم الدين.
والاعتراض والكبر والتعالم وسوء الأدب مقام إبليس ومن كان على قدمه.

يحسنون صنعًا، أولئك هم أشد فتنة وبلاءً وعداءً للتصوف من أعداءه من المتمسلفة .

يقول صاحب الرسالة فيما قال: قبل أن أبعث إليك بما يدور فى خلجات صدري أحب أن أعرفك بنفسي... فإني رضعت من أقوال المتمسلفة، وفطمت على كتب الشيخ النجدي، محمد بن عبد الوهاب. وترعرعتُ على أقوال الحراني ابن تيمية وعلى من هم على دربهم يسيرون، فظننت نفسي- حامل لواء الدفاع عن السنة والشرع ... فأورث ذلك فى قلبي من الأمراض ما الله به أعلم. وهداني الله إلى طريق القوم (الصوفية) أهل الصفاء والرجاء، ولكن وجدت الطريق قد تغيرت معالمه ... فالذي قرأته غير الموجود فى الواقع ... فسلكت بنفسي الطريق فشق ذلك عليَّ، فقمت أبحث عن

[1] أستاذ القانون الدولي بالأزهر الشريف، مصر

الدليل لكي يسلك بي الطريق، فإني مريض والمريض لا بد له من طبيب .
ورأيت الدليل والطبيب بعد البحث والتنقيب فى الإمام الحبر العلامة الفهامة إمام أهل الشريعة وقدوة أهل الحقيقة بقية السلف الصالح (الزكي إبراهيم رضي الله عنه وأرضاه) رائد العشيرة المحمدية، ولكن حال بيني وبينه القدر رحمه الله ، قبل أن ألقاه . فمضيت أبحث عن مثيله في هذه الديار ... فلم أجد حتى عزمت على السفر إلى بلاد المغرب لكي ألتقي بأبناء وورثة البيت الغماري رضي الله عنه، ولكن لم يسعفني القدر لقصر ذات اليد ، فرأيت مقولة للشيخ الإمام محمد زكي إبراهيم رضي الله عنه، يقول فيها

" من عمل بعملنا فهو منا وإن لم نره ونلقاه"

كما سمعت فى درس الأربعاء بالعشيرة: أن شيخنا أقرب منا الآن عما كان في حياته " ولكن هذا (يستطرد صاحب الرسالة)، لمن كان له قلب أو القي السمع وهو شهيد، أما مثلي ممن شب على أقوال أهل المغالاة فصعب عليه لفساد العقل ولما مُلِء من الفقه البدوي الجاف وظلمة القلب وغلظة الطبع وكثافة النفس .
فهل يحق لى أن أبحث عن شيخ ولو أرى فيه نصف مُدَّ الشيخ رضي الله عنه، أو أرى فيه الجعفري أو أبو العزائم أو التيجاني أو الغماري أو العزامي أو شيخ الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، أو النبهاني لكي يسلك بي الطريق، فالطريق على مثلي صعب، شيخ سلك فملك، يكون بمثابة الطبيب يلقن من الذكر والأوراد ما يرى فيه صلاح ما فسد من قلبي وقالبي، ويسقيني من كأس المعارف الربانية ما يقوي عزمي الذي أصبح كالخرق البالي ... فإني خائف وجل من أن يطغى الداء على قلبي وروحي فأضل وأشقى والعياذ بالله، وإني موقن بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما زال الخير فى وفي أمتي إلى يوم القيامة " .
أفيدونا بحق الله عليكم..ولصاحب الرسالة أسوق بعض ما قاله الإمام الرائد محمد زكي إبراهيم رضى الله عنه، في ضرورة الشيخ. ياولدي! الصوفية فى هذا يصدرون عن صحيح الشريعة، وصحيح الطبيعة، وصحيح التجربة، وصحيح الممارسة والواقع .
أما الشريعة، فالله تعالى يقول: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ (الإنبياء:٧) ويقول﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾(الفرقان: ٥٩)ويقول ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (الرعد:٧) ويقول ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (فاطر:١٤). ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ (الأنعام:٩٠) ﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ﴾ (لقمان:١٥).وفي الحديث الثابت " هلا اسألوا، فإن دواء العيَّ السؤال! وإذن

فلابد من هاد قدوة مسئول، ذا ذكر، خبير بوسائل الفرار إلى الله والهجرة إليـه، ألم تـر موسـى كيـف طلب المرشد ليتتبعه كما جاء محكم التنـزيل: هل اتبعك على أن تعلمن مما علمت رشـدا،وكيف كـان أدب موسى معه.

ولذا كان لطالب حفظ القرآن من المقرىء الموقف الخبير بأحكام التلاوة وصـحة الأداء، وقـل مثـل ذلك في كل علوم الدين واللغة وعلوم الدنيا فكرية كانت أم علمية، حتى الحرف والمهن والصناعات مهما علت أو دنت لا بد لها من مختص يلقنها ويكشف أسرارها، فمالم يكن للمرء شيخ في العلم ضـل وافترسه الشيطان واستهواه وجعل إلهه هواه، فهلك .

ومن هنا كان لابد للسالك إلى الله من إمام يرشده ويوجهه ويسدده ويكشف له أحابيل الشـيطان فى العبادات والمعاملات، والخطرات النفسية والإرادات القلبية والواردات التى قد تكـون أخطـر عـلى صاحبها من الكفر الصريح .

ياولدي : فكر فى موقف الإمام من الصلاة، وفي تلقي الرسول عن جبريل عليهما الصلاة والسلام .

ولهذا سجل كبار أئمتنا أخذهم وتلقيهم من كبار شـيوخهم، كـابرًا عـن كـابر، بالإجـازة الشرـيفة، والثبت المحكم، سواء في العلوم أو في تلقي البيعة الصوفية، واتصال السند، ولا يزال في عصرنا هذا يستعد الطالب لأعلى الدرجات الثقافية (الدكتوراة مثلا) ولا بد له من مشرف يشاركه رحلة العلم والجهد ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾(فاطر:١٩). وقد تلقينا من قواعد أهل العلم (غير الصوفية) قـولهم: لا تأخذ العلم من صُحَفي ولا القرآن من مُصْحَفِي .

والصُحَفِي : الذي جمع محصوله من الصُحِف وحدها دون مرشد .

والمُصْحَفي : من قرأ القرآن وحده، من غير مُوقّف، وهذا مجرح عند أهل العلم .

ثم تأمل مرة أخرى في بعثة الرسل إلى الناس؛ ونزول جبريل – عليه السـلام– عـلى الأنبيـاء علـيهم الصلاة والسلام بالتوجيه والهداية.

ولا تنس يا ولدي، أن التقاء روح الطالب والأستاذ، وتبادل الود ووحدة الإرادة واندماج الشخصية بالحب والتسامي، وقصد وجه الله تعـالى فيـه أثـر روحـي ونفسيـ مقـرر عنـد أهـل العلـم القـديم والحديث، وحين يكون السند موصولاً يكون من وراءه سر مجرب، يسميه الصوفية، (بركـة السـند) وإن لم يؤمن الجاهلون بسره، ألا ترى قوله تعالى ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾(الأحزاب:٤٦) تأمل، فمن هنـا تبـدأ

البركة، ثم تتسلسل !!

هل أدب المتعلم بدعة ؟

ومع كل هذه الأدلة الدامغة من الكتاب والسنة تجد من محترفي التمسلف البغيض من يجعل من آداب المريد عند الصوفية واحترام المريد لشيخه بدعة، بل شركًا، ووثنية، على طريقتهم فى تكفير أهل القبلة جملة وأفراداً لشبهات غير قائمة إلا في قلوبهم المريضة .

فالسنة التي يعلمها العوام والخواص من أهل القبلة، ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم "ليس منا من لم يوقر كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه" وقد أمر الله سبحانه وتعالى بتعظيم الآباء، وأمر المأموم أن يتأخر عن الإمام، والمتعلم أن يتأدب مع العالم، وتأدب الصحابة مع النبي صلى الله عليه وسلم، فكانوا يقبلون يده ورجله كما هو ثابت بالأحاديث الصحيحة، ويتبركون بآثاره، وقد روي عن الشافعي أنه كان يقول: " والله أكون عطشانا وكوب الماء أمامي فلا أجرؤ أمد يدي أشرب الماء ومالك جالس أمامي هيبة لمالك ".

وهذا أبو يوسف صاحب أبي حنيفة الإمام الأعظم، كان يقول " والله ما مددت رجلي قط، فى اتجاه مسكن أبي حنيفة ، وبيني وبين مسكنه سبع سكك. ولما لاحظ عبد الله بن الإمام احمد ابن حنبل تعظيم أبيه للشافعي، قال له :ياأبتي أراك دائمًا تقول الشافعي الشافعي، قال: يابني أرأيت الشمس للدنيا، والعافية للناس، هكذا كان الشافعي"، وأدب العلماء وأهل الفضل مع مشايخهم طوال تاريخ الإسلام المجيد أظهر من أن ينكرها أحد على كثرتها، أفكل ذلك وثنية وشركًا؟

أفرأيت من اتخذ إلهه هواه

إن أحدهم ليسخر من قول بعض مشايخ الصوفية، من لا شيخ له فشيخه الشيطان، لعله لم يعلم يا بني إن الشيطان الحقيقي هو هواه الذي اتخذه إله، فأضله بغير علم كما قال المولى عز وجل "أفرأيت من اتخذ إلهه هواه " فهذا الهوى هو الذي يجعل صاحبه يحكم على السنة بالبدعة، وعلى التوحيد بالشرك، وعلى أقوال العلماء بالسخرية، فمثله ممن اتبع هواه وكان أمره فرطا، كمثل الكلب إن تحمل عليه ينبح وإن تتركه ينبح .

فاعلم يابني! إنما يتبعون أهواءهم ومن ضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله والهوى من النفس، والنفس هي التي عليها مدار عمل الصوفية من السلوك، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم "إن أعدى أعدائك نفسك التى بين جنبيك " .

وقال صلى الله عليه وسلم " عدنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، قالوا أو جهادُ أكبر من ذلك يا رسول الله، قال بلى جهاد النفس "! وقال صاحب الحكم لولا ميادين النفوس لما تحقق سير السائرين، وقال شيخ شيخه أبا الحسن الشاذلي " حكم القدوس ألا يدخل حضرته أصحاب النفوس"، يابني إن كيد الشيطان كان ضعيفا، ولكنها النفس، والشيطان لا يدخل إلى بني آدم إلا من قبل النفس، لأنه يرى ما فيها من ضعف وثغرات بسبب الهوى الذي غلب عليها" إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ".

إسمع يا بني هذا الحديث أذكره لهواة تشريك الأمة وتبديعها وتفسيقها: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه الطبراني الكبير "ما تحت ظل السماء إله يعبد أعظم عند الله من هوىً متَبع" .

وقال الشافعي رحمه الله: تعلمت من الصوفية كلمتين: **الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك، والنفس إن لم تشغلها بالحق،شغلتك بالباطل .**

العلم مطالب تأتلف والذكر مشارب تختلف

إنهم يهولون من نصح بعض المشايخ لمريديهم بعدم اتباع أكثر من شيخ، ولشيوخ الصوفية فى ذلك وجه معتبر، فهم لا يمنعون المريد من التزود بالثقافة والعلم من أي باب كان، وعلى يد أي شيخ كان ولكنهم يمنعون أن يجمع المريد عدة وسائل للسلوك .

لأنه لا يجوز للمأموم أن يأتم إلا بإمام واحد فى فرض واحد، ولا للمريض أن يتناول أدوية لأكثر من طبيب لنفس المرض، والتربية والسلوك أمر مختلف عن العلم، ولذلك قالوا العلم مطالب تأتلف، والذكر مشارب تختلف، والشيخ أب روحي وحب الأب لا يمنع حب غيره وإحترام غيره وتوقيره.

هل يجوز الإنتقال من شيخ إلى شيخ؟

فإذا توفي الشيخ قبل نضوج المريد، جاز للمريد أن يتخذ من يتم به رحلته، وإذا ثبت أن الشيخ جاهل أو منحرف، تعين أن يبحث المريد عن سواه فإذا تم للمريد مقامه، جاز أن يتلقى للتبرك عن عدد من المشايخ، دون أن يدع طريقه الأصلي، الذي كان سبب الفتح بحال من الأحوال، كشأن كبار الرجال، سلفًا وخلفًا، وكما هو مسجل في أثباتهم، وإجازاتهم.

فرق بين الاعتراض على الشيخ والاستفسار

ويحمل المتمسلفة أيضًا على الصوفية عدم جواز مخالفة الشيخ والاعتراض عليه ولو بقلبه وإلا قد نقض عهد الصحبة ووجبت عليه التوبة، وفرق بين الاعتراض والاستفسار، والتصوف كله

أدب، ومن زاد عليك فى الأدب زاد عليك فى التصوف، والـدين كلـه أدب، ومـن زاد عليـك فى الأدب زاد عليك فى الدين، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول "**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**" ، ويقول "**أدبني ربي فأحسن تأديبي**"، وقال عنه مولاه "**وإنك لعلىٰ خلق عظيم**" فالمعترض منكر والمنكر متحدّ، فلا ثقة له في شيخه، وبهذا فسدت تبعيته، فالأدب مقام الأنبياء والصديقين ومـن كان على قدمهم إلى يوم الدين، والاعتراض والكبر والتعالم، وسوء الأدب مقام إبليس ومن كان على قدمه إلى يوم الدين.

الشيوخ هم أهل العلم والتقىٰ لا محترفي التمشيخ والتمخرق

والشيوخ التى نتحدث عنها هنا هم فقط أهل العلم والفضل والتقى مـن ورثـة الأنبيـاء، لا محـترفي التمشيخ والتعطل والتبطل والتمخرق من أهل البدع والأهواء والدجل والادعاء، فلا شأن لنا بهم، وإنما هو شأن الوهابية والمتمسلفة، فلا يرون إلا أمثال هؤلاء، وكل ميسر لما خلق له ونحـن لا نـرى إلا ما ذكرت من المشايخ الحقيقيين أمثال الإمام الرائد رضي الله عنه وأرضاه ومعاصريه ممن ذكـرت أو سابقيهم، كعمر المختار والأمير عبد القادر الجزائري والسنوسي، وصلاح الدين والسـلطان قطـز وابن عطا الله السكندري، والشاذلي والعز بن عبد السلام وابن حجـر الهيثمـي والرفـاعي والغـزالي والجنيد والمحاسبي والشبلي وسفيان الثوري ومالك بن دينـار وإبـراهيم بـن أدهـم، والفضـيل بـن عياض وشقيق البلخي وحاتم الأصم والحسن البصري وغيرهم ممن تركت أو نسيت، وأما من يرى هؤلاء السادة بعين النقص والانتقاد وسوء الأدب فهو ليس منا بشيء، وكل إنسان يرى الكـون مـن مرآة وجوده حتى رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسلم منهم بحجة التوحيد المظلوم والخوف مـن الشرك الموهوم إلا فى قلوبهم المريضة فقط.

كيف الدليل علىٰ الأولياء ؟

بني اسمع مني ميزانًا تلقاه العلماء عن ابن عطاء الله السكندري رضي الله عنه يغنيك عن كثير مماكتب في هذا الشأن إذ يقول رضي الله عنه :

"سبحان من لم يجعل الدليل على أولياءه، إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا مـن أراد أن يوصله إليه، والدليل عليه عز وجل غيب، والإيمان بالغيب هو أصل هذا الدين، فـإذا أراد الله بعبـد خيرًا كشف له عن سر الخصوصية فيمن يتبع فعرفه وألقى إليه القياد ليوصله إلى مولاه، ولا يعـرف أهل الله إلا أصحاب البصائر فكفار قريش لم يرو سر الخصوصية في النبي صلى الله عليه وسلم وإنـما

رأو فيه يتيم أبي طالب وطغت بشريته على خصوصيته في نظرهم ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ (الفرقان:٧)ففي الوقت الذي رآه الصحابة أهل البصائر نورًا يستقبلونه على أشراف المدينة، طلع البدر علينا من ثنيات الوداع، ولا يدعون نخامته تسقط على الأرض ويتبركون بماء وضوئه، وهذا أنس يقول عندما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أنار فيها كل شيء فلما مات أظلم منها كل شيء .

وهذا حسان بن ثابت يقول :

لما نظرت إلى أنواره سطعت   وضعت من خيفتي كفى على بصري

خوفًا على بصري من حسن صورته   فلست أنظره إلا على قدري

روح من النور في جسم من القمر   كحله نسجت في الأنجم الزهر

ورحم الله سيدي على وفا الذي قال في هذا المقام :

لو أبصر الشيطان طلعة نوره   في وجه آدم كان أول من سجد

أولو رأى النمرود نور جماله   عبد الجليل مع الخليل وما عند

لكن جمال الله جل فلا يرى   إلا بتخصيص من الله الصمد

هذا هو محل النزاع دائمًا في هذا الشأن، بين أهل الحق من الصوفية والسلف الصالح وبين أهل الباطل من المتمسلفة والمتمصوفة على حد سواء، ولذلك قال الإمام زروق رحمه الله: لا أجهل من متعصب بالباطل أو منكر ما هو به جاهل، والاعتقاد ولاية، والانتقاد جناية، فإن عرفت فاتبع وإن جهلت فَسلم.

فليست المشكلة يابني لا في الشيخ ولا في الأدب مع الشيخ، فهذا ما تظاهرت عليه آيات الكتاب ونصوص السنة وإجماع علماء الأمة، وغير ذلك من أدلة التشريع كما رأيت، وإنما هي فيمن هو الشيخ الواجب اتباعه، وهذا هو بيت القصيد ومغزي سؤالك.

وفي ذلك يقول الإمام الرائد رضي الله عنه وأرضاه.

يقول: هل اتخاذُ الشيـ   ـخ محتومٌ على القاصدْ؟

فقلت وهل تَربَّى قَطّ   مولودٌ بلا والدْ؟

وهل يُتْمُ اليتيم كفا   ه فاستغْنى عن الرافد؟

وهـــــل أبـصـــــرتَ مكـفــــوفًا ولا يحتـــــــــاج للقائـــــــــد؟
وهـــــل علـــــمٌ وهـــــل فــــنٌّ بغـــــير المرشـــــد الراشـــــد؟
وكيـــــــف يســـــير في البَيْـــــدَا غريــــــبٌ؟ أعـــــزلٌ؟ وافـــــد؟
وبـــــــــابُ الله مفتــــــــــوحٌ ولكـــــن مَـــــنْ هـــــو الرائـــــد؟

ذلك هو السؤال ؟

٢- انتهينا في قضية الشيخ والمريد، أن المشكلة ليست ولم تكن مطلقًا فى ضرورة الاتباع والتأدب على يد المشايخ والعلماء، فهذا ما تظاهرت عليه آيات الكتاب ونصوص السنة، وإجماع الأمة، وغير ذلك من أدلة التشريع المعروفة عند العلماء، اللهم إلا هؤلاء الشواذ المعروفين بالمتمسلفة الـذين احترفـوا تلبيس الأمور على جماهير المسلمين، وقلب الحقائق بأوهام ليست إلا فى قلوبهم المريضة .

إنما السؤال الحقيقى فى من هو هذا الشيخ الواجب الاتباع، والمؤتمن أن يسلم له المريد القياد.

واسمع يابنى فى ذلك الى صاحب الحلم رضى الله عنه وعن شيخنا وهو يقـول : لا تصـحب مـن لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله.

ويشرح ذلك الإمام زروق بقوله "من لا ينهضك حاله .. هو الذى لم ينازل الحقائق ولا رفع همته عن الخلائق، بل هو الراضى عن نفسه، المترفع عن أبناء جنسه، الذى يعتد بعلومه وأعماله، ويحمد نفسـه فى إدباره وإقباله ".

ولذلك قال الإمام أبو الحسن الشاذلي :" لا تصحب من يؤثر نفسه عليك فإنه لئيم، ولا مـن يـؤثرك على نفسه فإنه قل أن يدوم، واصحب من إذا ذكر، ذكر الله، فالله يغنى بـه إذا شـهد وينـوب عنـه إذا فقد، ذكره نور القلوب، ومشاهدته مفاتيح الغيوب ".

الشيخ الناصح

والشيخ الناصح بهذه الأوصاف: شيخ التعليم، وشيخ التربية، وشـيخ الترقيـة، فـإن تـوافرت هـذه الأوصاف الثلاثة فى رجل واحد كان هو الأكمل، وإلا فما لا يدرك كله، لا يترك كله .

شيخ التعليم

أما شيخ التعليم فمستنده كما يقول الإمام زروق واضح، إذ لا علم إلا بتعلم، ولا تعلم إلا من معلم، وقد تكفى دونه الكتب للحاذق الفهم مع نقص فى إدراكه وحظه.

قال الله تعالى ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ (العنكبوت: ٤٩).

ويشترط فى شيخ التعليم ثلاثة شروط :

أولها : علم صحيح، أي مبني على الكتاب والسنة، مؤيد بالقضايا العقلية والوجوه الفهمية المسلمة بالأدلة الصحيحة.

ثانيها: لسان فصيح يبين به عن المقاصد من غير احتمال ولا قصور، فالعبارة هى التى تغير المقاصد وتدفعها، وقد قال ابن العريف رحمه الله: الطالب يسأل ليعلم، فحقه أن يسأل عن مسألة بمسألة أخرى، والعامي يسأل ليعمل فحقه أن يذكر النازلة، وعلى العالم أن يبين بيانًا يمنع السائل من التأويل.

ثالثها : عقل رجيح يميز به مواضع العلم ويقي به نفسه من كل وصف منقص في دينه ودنياه، فيكون تقيًا ونقيًا، وعلامته فى ذلك وجود الإنصاف حيث يكون الحق مع غيره، والوقوف مع الحق، حيث لا يقابله أحد بلزوم لا أدري فيما يدري، والتبري من موضع التهم قولاً واعتقادًا.

وقد قال بن عباد النفرى الرندي رضي الله عنه : أوصيكم بوصية لا يعرفها إلا من عقل وجرب، ولا يهملها إلا من غفل فحجب، وهو أن لا تأخذ في هذا العلم من متكبر ولا صاحب بدعة، ولا مقلد، **أما** الكبر فطابع يمنع من فهم الآيات والعبر، وأما البدعة فتوقع في بلايا الكبر، وأما التقليد فعقال يمنع من بلوغ الوطر ونيل الظفر، قال: ولا تجعلوا لأهل الظاهر حجة على أهل الباطن، فكل باطن لا يستند إلى ظاهر فهو باطل، وكل ظاهر ليس له باطن فهو عاطل .

شيخ التربية

أما شيخ التربية فمستنده قول الحق تبارك وتعالى ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ (لقمان:١٥). وكان صلى الله عليه وسلم يربي أصحابه في دينهم ودنياهم بما يراه أصلح لهم، فأباح لقوم سرد الصوم ومنع قومًا منه، وتفقد فاطمة وعليًا لقيام الليل، وعائشة تعترض بين يديه اعتراض الجنازة، وأسر لبعض أصحابه اذكارًا ، وأطلق بعضها فى العموم، وكان يحدث حذيفة بالحوادث لاستعداده لقبولها، ولا يحدث بها غيره، إلى غير ذلك مما يطول ذكره ولا يخفى على متأمله. وفى قوله تعالى ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ (آل عمران: ٧٩) قال بن عباس : الربانى الذى يربى الناس بصغار العلم قبل كباره، ذكره البخارى فى كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل .

وشيخ التربية يحتاج الى ثلاثة أمور:

أحدها : معرفة النفوس وأحوالها الظاهرة والباطنة، وما يكتسب به كمالها ونقصها، وأسباب دوام

ذلك وزواله من وجه من العلم والتجربة لا ينقص ولا يختل فى أصله وغالب فرعه .
الثاني : معرفة الوجود وتقلباته، وحكم الشرع والعبادة فيما يجريان فيه نصحًا وتجربة، ومشاهدة وذوقًا للأجسام الكثيفة والأرواح اللطيفة حتى يعامل كلاً بما يليق به .
الثالث: معرفة التصرف فى ذلك، أى بأن يضع كل شيء في محله على قدره ووجهه من غير هوى، ولا ميل لحظ ولا يتم ذلك إلا بورع صادق فى تصرفه، ناتج عن عدم رضاه عن نفسه، وزهد كامل نشأ عن حقيقة إيمانية تهديه لترك ما سوى الحق سبحانه وتأدب كامل بمن صح أدبه، حتى قال أبو علي الثقفي الذي كان إمام وقته، وتوفي في ٣٢٨هـ، فلو أن رجلاً جمع العلوم وصحب طوائف الناس، فلا يقتدى به حتى يأخذ أدبه عن شيخ أو إمام وقال الجنيد إمام الطائفة رضي الله عنه "فمن لم يسمع الحديث، ويجالس الفقهاء ويأخذ أدبه من المتأدبين أفسد من اتبعه " وقال ابن عطاء الله، لأن تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه ".

شيخ الترقية

أما شيخ الترقية فمستنده قول أنس رضى الله عنه "ما نفضنا التراب عن أيدينا من دفنه صلى الله عليه وسلم حتى وجدنا النقص فى قلوبنا " فأفاد أن رؤية شخصه الكريم كان مفيدًا لهم، فكذلك من له نسبه منه بطريق الوراثة العلمية، ومن ثم كان النظر إلى العالم عبادة وقد جاء فى الخبر "إن لله عبادًا من نظر إليهم نظرة سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا ".
تأمل يا بنى بهذه المناسبة كلمة "نظرة " التى يسخرون من الصوفية عندما يقولونها وقد قال المولى عز وجل فى محكم التنزيل﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ (البقرة ١٠٤). والمحل لا يسمح بالإطالة، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم كما ورد فى رواية مسلم " خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم وما ذلك إلا لاختصاصهم برؤيته صلى الله عليه وسلم على القرب، ثم رؤية من رآه، كما قال العلماء .
وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه :
"إذا كانت السلحفاة تربى ولدها بالنظر فكيف بالعارف أو الولي، وقال الشيخ أبو العباس الحضرمي رضي الله عنه " فهنيئًا مريئًا لمن ذاق أو ذاق بعض ما ذاق أو رأى من ذاق، فقد قيل المطر قريب عهد بربه، فيستحب التزود منه والتبرك عند نزوله، كذلك ذكر الشارع صلى الله عليه وسلم وهو مطر من السحاب، فما ظنك المؤمن العارف بالله " .
وعلامة شيخ الترقية ثلاثة أمور :

أولها:رؤيته زيادة فى العمل، من ذلك قولهم" كنا إذا فترنا نظرنا الى محمد بن واسع ، فعملنا عليه أسبوعًا " .

ثانيها : عن خطابه تنمية للحال، وإلى ذلك أشار ابن بشيش رضي الله عنه " وأصحب من إذا ذكر ذكر الله ، فالله يغني به إذا شهد وينوب عنه إذا فقد .. الخ "

ثالثها: أن مخالطته مثيرة للأنوار في بساط الكمال، وحكاية حنظلة رضي الله عنه في هذا معروفة مشهودة عندما قال لأبي بكر رضي الله عنه نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فترق قلوبنا وتدمع أعيننا وكأننا نطاول أعنان السماء، فإذا خرجنا من عنده قست القلوب وانشغلنا بالضيع والأموال والأولاد .. إلخ ما قال، فصاح أبو بكر قائلاً هلك أبو بكر -رضي الله عنه - ثم صحب حنظلة وذهبا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشتكيا إليه حالهما فقال ساعة وساعة والله لو بقيتم على ما أنتم عليه عندي لصافحتكم الملائكة فى الطرقات أو كما قال صلى الله عليه وسلم . ولذلك قال ابن عطاء الله من تحقق بحال لا يخلو حاضروه منه .

وقال أيضاً ليس شيخك الذي واجهك بمقاله، إنما شيخك الذي نهض بك حاله وقال أهل العلم ربَّ حال رجل فى ألف خير من مقالة ألف في رجل واحد، ورحم الله بن عبّاد فى رجزه للحكم العطائية :

إن التواخىٰ فضله لا ينكر وإن خلا من شرطه لا يشكر

والشرط فيه أن تواخىٰ العارفا عن الحظوظ واللحوظ صارفا

وقاله وحاله سيان ما دعوا إلا إلى الرحمن

أنواره دائمة السراية فيك وقد حفت بك الرعاية

ذلك هو الرائد يابني الذي يتبع ويتأدب ويسلم إليه القياد وهو مغزى سؤالك الطويل، ولكنى أراك ولسان حالك يقول، وكيف السبيل إليه وأنَّى لى معرفته، وما علاماته ؟

أرجو يابنى أن تنصت إلى إجابة سؤالك من الإمام ابن عطاء الله السكندري رضي الله عنه وهو يقول: سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه ! وذلك عجيب. فعليك بالصدق فى طلب الحق جل وعلا، وهو أكرم من أن يتخلى عمن يطلبه ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾(البقرة:١٨٦).

*****

نظرة على شطحات المشايخ

أ/إمام الدين السعيدي[١]

إن التصوف ليس في الإسلام مسلكا جديدا وطريقا محدثا بل هو لب الإيمان والإسلام، أفكاره و أصوله، مآخذه ومبادئه كلها ماخوذة ومستوثقة بالكتاب والسنة، لامدخل فيها لغيرهما، وهذه المقولة توجد بالوضوح والصراحة في كتب الصوفية الأكابر أن الشرط الأول لسعادة الصوفي أن يكون متبعا لأحكام الكتاب والسنة.

قال سيد الطائفة الشيخ جنيد بن محمد البغدادي قدس الله سره: لم يمكن حصول النجاح في هذا الطريق إلا أن يكون في يده اليمنى كتاب الله وفي يده اليسرى سنة المصطفى، وفي ضوئهما مازال يسلك لئلايقع في ورطة الشبهات و ظلمات البدعة.[٢]

وقال: بناء طريقتنا وأساسها على الكتاب والسنة، وكل ما هومخالف للكتاب والسنة فهو مردود و باطل[٣]

ويقول العلامة الحافظ الإمام جلال الدين السيوطي رحمه الله في عقائد الصوفية: ونعتقد أن طريق الجنيد وصحبه طريق مقوم[٤]

وقال بعض المشايخ: كل حقيقة ردتها الشريعة فهي زندقة[٥].كذلك نقلت وشاعت أقوال كثيرة تويد وتوثق أن التصوف بجميع مسا ئله ومصادره منوط بالكتاب والسنة أصلا، ولكن قد صدرت من بعض الصوفية أقوال وأفعال وحركات وكيفيات تناقض بظاهرها الشريعة المطهرة وهي التي تسمى في مصطلحات الصوفية: شطحات وهفوات ومبهمات وموهمات. وعلى هذا قد ظن بعض الناس نحو الصوفية الكرام سوءالظن وحسبوا أن التصوف بدعة وفكر لا علاقة له بالإسلام، والواقع ليس كذلك.

---

١ أستاذ الجامعة العارفية ، سيدسراوان ، الله آباد
٢ تذكرة الأولياء - باللغة الفارسية - لشيخ عطار ص:٨.
٣ مرج البحرين (باللغة الفارسية) ، شيخ عبدالحق محدث الدهلوي، ص:٣٣ ، مطبوعة ايجوكيشنل، بريس ، باكستان
٤ نفس المصدر ص:٣٣
٥ نفس المصدر ص:٣٤

وفي السطور التالية أولا نكشف عن حقيقة ونوعية الشطحات والهفوات ثم نتكلم عليها بغاية التحقيق لمن أراد التبصر ونحاول أن لانترك غموضا و دقة.

الشطحات في اللغة: شطح في القول أو السير: تباعد واسترسل.

وفي تاج العروس: اشتهر بين المتصوفة الشطحات . وهي في اصطلاحهم عبارة عن كلمات تصدر منهم في حالة الغيبوبة وغلبة شهود الحق تعالى عليهم، بحيث لا يشعرون حينئذ بغير الحق ، كقول بعضهم: أنا الحق، وليس في الجبة إلا الله، ونحو ذالك وذكر الإمام أبو الحس اليوسي شيخ شيوخنا في حاشيته الكبرى وقد ذكر الشيخ السنوسي في أثنائه الشطحات: لم يقف على لفظ الشطحات فيما رأيت من كتب اللغة كأنها عامية، وتستعمل في اصطلاح التصوف.

الشطحات في المصطلح: فقد قال طاؤوس الفقراء الشيخ أبو نصر سراج قدس الله سره (المتوفى٣٧٨هـ): "معناه عبارة مستغربة في وصف وجد فاض بقوته، وهاج بشدة غليانه وغلبته"[1]

قال السيد الشريف الشيخ المخدوم أشرف جهانغير السمناني قدس الله سره: الشطح هو إفاضة ماء العرفان عن ظرف استعداد العارفين حين الامتيان[2]

مواقف ومسالك العلماء والمشايخ في الشطحات:

قال الشيخ أبو نصرسراج قدس الله سره: فإن الله تعالى فتح قلوب أوليائه و أذن لهم بالإشراف على درجات متعالية، وقد جاد الحق تعالى على أهل صفوته والمتحققين بالتوجه والانقطاع إليه بكشف ماكان مستترا عنهم قبل ذلك من مراتب صفوته و درجات أهل الخصوص من عباده، فكل واحد منهم ينطق بحقيقة ما وجد، ويصدق عن حاله و يصف ما ورد على سره بنطقه و مقاله، لأنهم لايرون حالا من الأحوال العالية حتى يحكموها، فإذا أحكموها يسمون بهممهم إلى حالة أعلى من ذلك، حتى تنتهي الطرق والأحوال والأماكن إلى غاية و نهاية هي أعلى النهايات و غاية الغايات، قال الله عز وجل:﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾(يوسف ٧٦). وقال: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾(زخرف ٣٢) وقال:﴿ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾(بنى اسرائيل ٢١) وليس لأحد أن يبسط لسانه بالوقيعة في أوليائه و يقيس بفهمه و رأيه مايسمع من ألفاظهم وما يشكل على فهمه من كلامهم، لأنهم في أوقاتهم متفاوتون، في أحوالهم متفاضلون، متشاكلون ومتجانسون بعضهم لبعض، ولهم أشكال و نظراء معروفون، فمن بان فضله وشرفه على أقرانه بفضل علمه وسعة معرفته فله أن يتكلم في عللهم و إصابتهم و نقصانهم و زيادتهم ومن لم يسلك

[1] اللمع، ص: ٣٧٥، الشيخ أبونصر سراج الطوسي، مطبع بريل، في مدينة ليدن.
[2] لطائف أشرفي، المترجم بالأردوية، ملفوظات مخدوم أشرف جهان غير سمناني، ص: ٦٤٤ مطبع سهيل بريس، باكستان

سبلهم ولم ينح نحوهم و لم يقصد مقاصدهم فالسلامة له في رفع الإنكار عنهم، وأن يكل أمورهم إلى الله تعالى و يتهم نفسه بالغلط فيما ينسبهم إليه من الخطاء وبالله التوفيق.[1] وقال أيضا: فربما يفيض من جانبيه من كثرة ما يحركونه، فالشطح لفظة ماخوذة من الحركة، لأنها حركة أسرار الواجدين، إذا قوي وجدهم فعبروا عن وجدهم ذلك بعبارة يستغرب سامعها، فمفتون هالك بالإنكار والطعن عليها إذا سمعها، و سالم ناج برفع الإنكار.[2] قال الشيخ علي بن عثمان الهجويري اللاهوري قدس الله سره: هذا الأمر مسلم باتفاق أولي الألباب أن المرء الذى يكون مستقيما على عقائد أهل السنة والجماعة لايكون خائبا و ساحرا، ولا يؤقر كافر، لأن هناك يلزم اجتماع الضدين، وكان أمر الحسين ابن منصور حلاج رحمه الله مؤسسا مضبوطا على الشريعة لأنه كان قائما بالصلوة وكثير الذكر والمناجات، وصائما متواصلا ومطيعا لأحكام الله، فلاشك أنه هو رجل صالح ومقرب ولكن لايقلد في مقولته "أنا ا لحق"، قد صدر هذا القول لأجل غلبة الحال والجذب، والمغلوب لايقتدى به[3]

قال الشيخ المحدث عبد الحق بن سيف الدين الدهلوي رحمه الله في رسالته "مرج البحرين":

في هذه المسئلة ثلاث طبقات.

الطبقة الأولى: هم الفقهاء المقلدون المتشددون والعلماء من أهل الظواهر المتعنتون. رأيهم الرد والإنكار، وفيهم نوعان: **الأول**: منكرون في الحقيقة وهم يجعلون تلك الأقوال والأحوال من الجهل والجنون، بسبب قساوة القلب و خباثة الباطن، هم في ضلالة عمياء وخطاء فاحش. **والثاني**: هم منكرون في الظاهر لسد الذرائع و قلبهم موافق لهم في نفس الأمر.

الطبقة الثانية: وهم المستصوفون الجهال الغالون في هذا الباب، هم يعتقدون فيما صدر عن المشايخ قولا أم فعلا أنه بظاهره وباطنه صواب، مستقيم بل هو عين الشريعة عندهم، لااعتداد عندهم لأقوال الفقهاء، معاذ الله رب العالمين.

الطبقة الثالثة: وهم المقسطون و أولوا العدل وهم يعتقدون أن ظاهر الشطحات شنيع و باطنها مستقيم، لايقلد ولا ينكر، بل يسلم والسلامة في التسليم.[4]وقال أيضا: إن أصحاب الشطحات هم المتشابهون بالمجانين لايملكون ضبط حالهم وأنفسهم في الاضطرار[5]

---

[1] اللمع في التصوف ص: ٣٧٧.

[2] نفس المصدر ص: ٣٧٥.

[3] كشف المحجوب المترجم بالأردوية ص: ٤٦٢/٤٦٤، شيخ علي هجويري قدس سره مطبع مكتبة رضوية، متيامحل دهلي.

[4] مرج البحرين،(باللغة الفارسية) ص:٣٧/٣٦/٣٥/٣٣.

[5] تحصيل التعرف في معرفة الفقه والتصوف للشيخ عبدالحق الدهلوي ص: ١٧٣/١٧١، ط: اعتقاد ببليشنغ هاوس، دهلي.

قال العارف الصوفي الشيخ منشي عزيزالله الجشتي الصفي فوري قدس الله سره (ت: ١٣٤٧ هـ): إني أعتقد أن شطحات المشايخ في محلها مستقيمة و متلبسة بالحق بما فيها من الحكمة اللطيفة و النكتة البديعة مثل قول بايزيد البسطامي قدس الله سره "سبحاني ماأعظم شاني" أو قول سيدنا علي كرم الله وجهه الكريم: "أنا مقيم القيامة" وغير ذلك. ينبغي هنا أن يؤول مقاله في ضوء الشريعة حتى المستطاع[1].

وحمل الشيخ العارف الكامل سعدالدين الخيرآبادي قدس الله سره (ت:٩٢٢هـ) أمثال هذا الكلام على تاويل القراء ة. مثلا لما قرأ تالي القرآن هذه الأية ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾(طه: ١٤) أو قرأ أحد هذا الحديث القدسي، من شهدني بالوحدانية وأقر بالرسالة دخل الجنة على ماكان من العمل.[2]

خلا صة المسالك والمو قف الصحيح منها

بالنظر إلى ما يرى في الشطحات و الهفوات من العلة والحكمة، هذه توجيهات لطيفة و تاويلات بعيدة قصرت عن إدراكها عقول الناس عامة إلا ما شاء الله، ولذا لايجوز أن يتبعها أحد ابتغاء الحقائق والغوامض، فربما من تعمق و غاص فيها ماحصل له إلا الاضطراب والخلجان، لعدم الوصول إلى كنهها فلاينبغي شرح الشطحات لكونها رمزا وسرا.

قال الشيخ أبو نصر سراج قدس الله سره: كا ن أصحاب رسول الله إذا أشكل على أحدهم شيء يلتجؤون في ذلك إلى علي بن طالب كرم الله وجهه، لعلم خص به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يشاركه فيه من أصحابه، وهو العلم الذي قال: "لو تعلمون ما أعلم". فمن أجل ذلك قلنا لاينبغي لأحد أن يظن أنه يحوي جميع العلوم حتى يخطئ كلام المخصوصين و يكفرهم و يزندقهم وهو متعرض من ممارسة أحوالهم و منازلة حقائقهم و أعمالهم[3]

وقال أيضا: علوم الشريعة على أربعة أقسام. الأول: علم الرواية والأثار والأخبار، الثاني: علم الدراية وهو علم الفقه والأحكام، الثالث: علم القياس والنظر والاحتجاج على المخالفين، الرابع: هو علم الحقائق والمنازلات وعلم المعاملات والمجاهدات، والإخلاص في الطاعات، والتوجه إلى الله عزوجل من جميع الجهات والانقطاع إليه في جميع الأوقات، وصحة القصود والإرادات وتصفية السرائر من الآفات، والاكتفاء بخالق السماوات وإماتة النفوس بالمخالفات والاكتفاء بأخذ البلغة عند غلبة

---

[1] عقائد العزيز للشيخ منشي عزيزالله شاه الصفي فوري ص: ٦٥، ط: راجه راهركمار لكنؤ
[2] عقائد العزيز للشيخ منشي عزيزالله شاه الصفي فوري ص: ٦٥، ط: راجه راهركمار لكنؤ
[3] اللمع ص: ٣٧٨

الفاقات والإعراض عن الدنيا و ترك ما فيها، طلبا للرفعة في الدرجات والوصول إلي الكرامات.
فمن غلط في علم الرواية غلطا لم يسأل عن غلطه أحد من أهل الدراية ومن غلط في علم الدراية شيئا لا يسأل عن غلطه أحد من أهل علم الرواية و كذلك من غلط في شيء من علم الحقائق والأحوال فلايسأل عن غلطه إلا عالما منهم كاملا في معناه.[1]
وقال ألاترى أن الماء الكثير إذا جرى في نهر ضيق فيفيض من حافتيه، فكذلك المريد الواجد إذا قوي وجده ولم يطق حمل مايرد على قلبه من سطوة أنوار حقائقه سطع ذلك على لسانه فيترجم عنها بعبارة مستغربة مشكلة على فهوم سامعيها إلا من كان من أهلها ويكون متبحرا في علمها.
قال سيد الطائفة جنيد البغدادي قدس الله سره في الشطحات التي حكيت عن أبي يزيد البسطامي قدس الله سره:
إني رأيت الغاية القصوى من حاله يعني من حال أبي يزيد قدس الله سره، حالا قلّ من يفهمها عنه أو يعبر عنها عند استماعها، لأنه لا يحتمله إلا من عرف معناه وأدرك مستقاه.[2]
وإني أقول على وجه البصيرة: هذه الكلمات شنيعة و قبيحة في الشرع لكن لا ترجع القباحة والشناعة إلى قائليها لذا لايقال لهم عاص و خاطئ في الأصل ولو كانت الأقوال خاطئة آثمة كما لا يحكم على الفرس بكونه نجسا لأجل ما يخرج منه من بول وروث، ولا ينبغي أن يتهم حزب الصوفية بسبب ذلك، ألا إنهم حزب الله، هم القوم الذين نفثوا في الروع والروح أنوار الإيمان وسواطع الإيقان وقاموا بأداء الحقوق نيابة للنبي صلى الله عليه وسلم وجاهدوا لتمكين الدين الذي ارتضى الله لهم، فأولئك هم خلفاء الله في الأرض لتنفيذ كلمة الحق وإعلاء الدين كما قال تعالى: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(انبياء ١٠٤)
فإياك والظن فيما صدر عنهم. قد رأيت الناس أكثروا الخوض في معانيها، فواحد قدجعله حجة لباطله وآخر قداعتقد في قائلها الكفر والردة عن الإسلام، والجميع قد غلطوا فيما ذهبوا إليه، فالسلامة في التسليم والآفة في العمل بها والإنكار عليها، كما هو المختار في تفسير الآيات المتشابهات.
ندعو الله تعالى أن يرشدنا إلى الصراط المستقيم ويجنبنا من الغلاة والمتطرفين والله الموفق للصواب.

*****

[1] اللمع ص: ٣٧٦
[2] اللمع ص: ٣٨٠

المنهج الذوقي الإشراقي الصوفي

أ.د: صلاح محمود العادلي[1]

هو أحد مناهج المعرفة البشرية التي سلكها العلماء والمفكرون والربانيون من السادة الصوفية الأجلاء وغيرهم عبر القرون، وأقره القرآن الكريم ووردت به السنة النبوية الشريفة، وظهر في سلوك وأحوال وأقوال وأفعال السلف الصالح ومن بعدهم جيلا بعد جيل، لكن في الواحد بعد الواحد. ويعتمد هذا المنهج في وصوله إلى الحقيقة في المقام الأول: إما على رؤية صادقة في المنام، أو كشف ومشاهدة في العيان، أو إلهام وإلقاء في قلب وخاطر الإنسان.

ولكي يصل الإنسان إلى هذه الدرجة فلا بد له من: صفاء القلب، ومجاهدة النفس، ومداومة العبادة والذكر والفكر بالمفهوم الشامل الجامع لجميع أنشطة الحياة والدين والدنيا.

في هذا المنهج يقول ابن سينا (ت ٤٢٨ هـ) ذلك الفيلسوف والمفكر الدارس للتصوف: (وإذا بلغك أن عارفاً حدث عن غيب فأصاب متقدماً ببشرى أو نذير، فصدق ولا يتعثرن عليك الإيمان).

وإذا أردنا وقائع تطبيقية لهذا المنهج والاتجاه، فمن ذلك:

أولا: الرؤيا في المنام

١ – يذكر القرآن الكريم سبع رؤى منامية أخبرت بأشياء وترتبت عليها آثار: أولاها رؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم قبيل غزوة بدر، والثانية رؤيا نبي الله يوسف عليه السلام،والثالثة والرابعة لصاحبي سيدنا يوسف في السجن، والخامسة رؤيا ملك مصر- الريان بن الوليد في عهد نبي الله يوسف، والسادسة رؤيا الخليل بذبح ولده إسماعيل، والسابعة رؤيا خاتم المرسلين لفتح مكة ودخوله هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين.

ونجد في السنة النبوية المنيفة قسماً خاصاً لحديث النبي صلى الله عليه وسلم عن الرؤى كما في كتاب "التعبير" من صحيح الإمام البخاري، وكتاب(الرؤيا) من صحيح الإمام مسلم، وكذلك في كتب السنن كالترمذي وسنن ابن ماجه والموطأ وغيرها، ففيها نجد ما حدث من رؤى رآها النبي صلى الله عليه وسلم أو رآها الصحابة رضوان الله عليهم وما تحمله من أخبار ماضية أو آتية.

[1] أستاذ العقيدة والفلسفة المساعد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة-جامعة الأزهر الشريف.

وكذلك ورثة الأنبياء وهم العلماء الربانيون، فمن ذلك قديماً ما ذكره الإمام أبو إسحاق الشاطبي المتوفى ٧٩٠هـ عما وقع له في سبب تسميته لكتابه (الموافقات) حيث يقول عنه: (ولأجل ما أودع فيه من الأسرار التكليفية، المتعلقة بهذه الشريعة الحنيفية سميته بعنوان(التعريف بأسرار التكليف) ثم انتقلت هذه السيماء- أى التسمية – لسند غريب – أى سبب – يقضي العجب منه الفطن الأريب، وحاصله أني لقيت يوماً بعض الشيوخ الذين أحللتهم مني محل الإفادة، وجعلت مجالسهم العلمية محطاً للرحل ومناخاً للوفادة، وقد شرعت في ترتيب الكتاب وتصنيفه، ونابذت الشواغل دون تهذيبه وتأليفه فقال لي: رأيتك البارحة في النوم، وفي يدك كتاب ألفته فسألتك عنه فأخبرتني أنه كتاب(الموافقات) قال: فكنت أسألك عن معني هذه التسمية الظريفة، فتخبرني أنك وفقت به بين مذهبي ابن القاسم وأبي حنيفة، فقلت له: لقد أصبتم الغرض بسهم من الرؤيا الصالحة مصيب، وأخذتم من المبشرات النبوية بجزء صالح ونصيب، فإني شرعت في تأليف هذه المعاني عازماً على تأسيس تلك المباني، فإنها الأصول المعتبرة عند العلماء، والقواعد المبني عليها عند القدماء، فعجب الشيخ من غرابة هذا الإتفاق. ينظر: الموافقات في أصول الشريعة لأبي إسحاق الشاطبي جـ١ صـ١٩ (خطبة الكتاب).

وحديثاً ما وقع للشيخ محمد متولى الشعراوى المتوفي ١٤١٦هـ -١٩٩٦ م وهو يشرح أحداث غزوة الأحزاب - في أوائل التسعينات من القرن العشرين الميلادي – حيث رأى بعدها رؤيا صادقة لرسول الله ومعه بعض أصحابه وصوب له بعض الأحداث وعدل بعض الأسماء فجاء في الحلقة التالية وأخبر الحاضرين بالرؤيا وما اشتملت عليه من تعديل وتصويب!

ثانياً: الكشف والمشاهدة في العيان:

١- فالقرآن الكريم قد ذكر قصة موسى عليه السلام مع الخضر الذي انكشف له من قبل الله تعالى مالم يصل إليه نبي الله موسى بعقله كما ورد في سورة الكهف من خرق السفينة، وقتل الغلام وإقامة الجدار، وتحدث القرآن الكريم كذلك عن آصف بن برخيا كاتب سليمان عليه السلام وإحضاره لعرش بلقيس ملكة سبأ فقال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ﴾ (النمل ٤٠).

٢- والسنة النبوية نجد فيها –ضمن ما نجد- وصف الرسول صلى الله عليه وسلم وهو بالمسجد النبوى بالمدينة المنورة لأحداث غزوة مؤتة – وهي بالأردن- في وقت حدوثها.

٣- ونجد كذلك لدى نفر من السلف الصالح وفي مقدمتهم الصحابة، فأبو بكر الصديق رضى الله عنه – كما في موطأ مالك وغيره - يخبر في مرض موته السيدة عائشة أن ما في بطن زوجته حبيبة بنت الحارث جارية (أى بنتاً)، وهذا الفاروق وهو على المنبر في المسجد النبوى بالمدينة يخطب الجمعة

يتوقف وينادي على أمير جيشه سارية بن زنيم في نهاوند من بلاد فارس (إيران) : يا سارية: الجبل الجبل، ورفع صوته فألقاه الله في سمع سارية وجيشه فأسندوا ظهورهم للجبل وكان الانتصار، وهي واقعة مشهورة ذكرها البيهقي و ابن كثير و ابن حجر في الإصابة وغيرهم.

٤- ووجدنا من العلماء قديماً أمثال الإمام القشيري في القرن السادس الهجرى في رسالته القشيرية وغيرها يذكر وقائع حدثت له من هذا القبيل، وحديثاً أمثال الشيخ عبد الحليم محمود (١٩١٠ م- ١٩٧٨م) شيخ الأزهر الأسبق " ١٩٧٣ م – ١٩٧٨ م" يذكر – ضمن ما يذكر – واقعة حدث له في اكتوبر ١٩٦٠م خلاصتها: أنه كان على سفر بالقطار مع اثنين من أصدقائه وجاء وقوفهم أمام كرسي يجلس عليه رجل ريفي تبدو عليه سمات الصالحين وبجواره سيدة ريفية لعلها أخته أو زوجته، فقد كان يتحدث إليها في ألفة بادية وابتسامة سهلة وكان كل شيء فيه يدل على أنه لا يحمل في قلبه كراهية لأحد ولا حقداً لمخلوق، قال الشيخ عبد الحليم: فراقني أن أنظر إلى هذا الوجه السمح وتعلقت عيناي به، وعندما وصل في حديثه مع السيدة إلى نهاية قصة أو خاتمة حديث، أخذ يدور بوجهه في من حوله: جالسين وواقفين، ثم نظر إلي: فمد عينيه نحوي وتركزت عيناه على وجهي..، وأردت أن أنهى هذا الوضع فاتجهت إلى صديقي أتحدث إليهما متكلفاً الحديث، وكان أحدهما بجوار الرجل، فانتهز الرجل فرصة صمت منا واتجه إلى من بجواره قائلاً له: بشر صاحبك- مشيراً إلي- بالحج هذا العام!!، وقد حدث وكان، برغم عدم تقديمي للحج أو الإعداد له، وكان سير الأحداث- بادئ الأمر ومنتصفه وقبيل خاتمته- على العكس من تلك البشرى، فحججت لأول مرة في هذا العام. ينظر : تقديم الشيخ عبد الحليم محمود لكتاب" المنار الهادي في سيرة الشيخ عبد الفتاح القاضي" لمؤلفه الشيخ عبد الجليل قاسم، وذكر تلك الواقعة أيضاً في كتابه(المدرسة الشاذلية) بالفصل الخاص بالشيخ عبد الفتاح القاضي.

ثالثا: الإلهام والإلقاء على القلب والخاطر

فنجد خواطر الشيخ الشعراوي والذي كان يقول عبارته الشهيرة(فيض جود لا بذل مجهود) ونجده في مثل قوله تعالى في سوره القصص﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ أي ألهمناها وفي مثل قوله صلى الله عليه وسلم في صحيح الحديث:(إن للملك بابن آدم لمة- أى إلهاما...).

وأخيرا فإن هذا المنهج وما قد يترتب عليه من أحكام شرعية وإن كان ليس ملزماً للشخص أو للغير، فإن الغير كذلك الذي لم يدرك ويتذوق هذا الأمر لا يحق له الإنكار، لأن من رأى وأدرك حجة على من لم ير ومن لم يدرك، والحال هنا كما قال الشاعر:

من ذاق طعام القوم يدريه ومن دراه غدا بالروح يشريه

وبالله تعالى التوفيق

البيعة الصوفية وأهميتها في العصر الحاضر

غلام مصطفى الأزهري

قد شاع بين الصوفية مصطلحات تدل على عمق العلاقة بين الشيخ والمريد، فسموا بداية ارتباط رجل مع شيخ كامل بالبيعة، والإرادة، والعهد، والتحكيم، وإلباس الخرقة، والطريق وغير ذلك وهي ألفاظ لها دلالات تربوية سلوكية عميقة يقصد بظاهرها ابتداء الرابطة بين المريد السالك والشيخ الكامل، وبباطنها بداية ربط المريد بالمراد والمطلوب وهو الله سبحانه تعالى.

البيعة عند الصوفية

البيعة والعهد في اصطلاح التصوف: هي إعطاء العهد من المريد الصادق على السمع والطاعة للشيخ المرشد في غير معصية، في المنشط والمكره والعسر واليسر وعدم منازعته الأمر وتفويض الأمور إليه.

وقد قال ابن خلدون في مقدمته: "اعلم أن البيعة هي العهد على الطاعة، كأن المبايع يعاهد أميره على أن يسلم له النظر في أمور نفسه وأمور المسلمين، لا ينازعه في شيء من ذلك، ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكره، وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيدا للعهد، فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري، فسمي بيعة مصدر باع، وصارت البيعة مصافحة بالأيدي، هذا مدلولها في عرف اللغة ومعهود الشرع وهو المراد في الحديث في بيعة النبي -صلى الله عليه وسلم- ليلة العقبة وعند الشجرة". [1]

والبيعة الصوفية والعهد تتضمن التزاما من قبل المريد بالولاء والطاعة التامة للشيخ والالتزام بآداب الطريقة، ولا شك أن هذه البيعة مثل بيعة إمام جماعة المسلمين، إذ أن إقامة الجماعة المسلمة و المملكة المسلمة واجب على المسلمين ولايكون إلا تحت راية الإمام، وكذا القيام بأمور الآخرة والرجوع إلى الله والخشوع و الخضوع الكامل له والتزهد في الدنيا واجب على المسلمين، ولا يكون إلا تحت رعاية الشيخ الكامل الذي يعلم أمراض القلب ومعالجته و الذي يوصل المريد والطالب إلى حالة الصفاء

[1] المقدمة لابن خلدون ص: ٢٧٩

الكاملة في العبادات والمعاملات الفرضية والنفلية مما يوصل سالكه إلى مراتب التحقيق والكمال.
فالمعروف أن تكاليف الشريعة الإسلامية جاءت تخاطب ظاهر المسلم و باطنه ، أي: جاءت بالفقه والتصوف، والفقه الظاهر والباطن "من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق"[1]. فلا بأس بالبيعة والعهد إذا كان الغرض منها تعلم العلم النافع من الشيخ واكتساب الجذبة الإيمانية وروح الأعمال الصالحة منه وتصفية النفس وتعمير الباطن وتوجهها إلى الإخلاص في العبادة خصوصا في عماد الدين الصلاة، والتي إن قبلت قبل ما سواها وإن ردت رد ما سواها . و بناءاً على ذلك فإن أي مسلم ملزم باتخاذ وسيلة أو طريقة صوفية لغرض تصفية صلاته ، لأن الصلاة كما تبين إذا صَفت صحّت وإذا صحّت قبلت وإذا قبلت نهت عن الفحشاء والمنكر ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ ﴾(العنكبوت: ٤٥) وبصفائها تصفو نفسه وتخلص من شوائب الكدورات في سائر العبادات والمعاملات ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ﴾(فصلت : ٣٥)
ولكل طريقة تربوية صوفية أسلوب أو منهج شرعي خاص تنتهجه في تنقية النفوس وعلاج القلوب من أمراضها. ولقد اقترن الدخول في أي طريقة صوفية باتباع سنة البيعة المحمدية ، فاتخذ المشايخ من البيعات الإسلامية في العصر الأول سنداً لهم في قبول المريدين بين طلاب طرقهم أو مدارسهم الصوفية.
إن البيعة في الطريقة الصوفية تعني المعاهدة بين طرفين: المريد والشيخ ، وتنص بنود هذه المبايعة أو المعاهدة – اختصاراً – على أن يلتزم المريد بالمحافظة على الواجبات والآداب الشرعية، ويراعي ما يُلقّنه له شيخه من الأذكار والأوراد والمجاهدات حالا بعد حال، ولا يهملها ولا يغفل عنها، فالمقصود بالبيعة والعهد عند الصوفية هو التأكيد على السالك والمريد بالانتقال من حياة الغفلة وغلبة الشهوات إلى حياة التوبة والمراجعة للنفس والتفتيش عن عيوبها والإقبال على الله، فيتحقق بهذا العهد الأكيد الانتقال من حال إلى أخرى، ومن مرحلة إلى مرحلة جديدة حتى الوصول إلى مبتغاه .
فالبيعة بهذه الصور تمثل – في لغة العصر – مستمسكات التسجيل في المدرسة الصوفية ، وكما أن كل مؤسسة تتميز بطريقة خاصة للتسجيل فيها ، فتطلب كل واحدة ، مستمسكات خاصة بها لتضمن الحقوق للطرفين ، فكذلك المدارس الصوفية ، فإن كل مدرسة أو طريقة صوفية قد تتميز بأسلوب أو طريقة خاصة للتسجيل فيها والدخول بين صفوف طلابها الذين يسمون بالمريدين.
ولو أجرينا مقارنة بين البيعات الإسلامية الخاصة كبيعة الخلافة الإسلامية أو بيعة الحكام وبين

[1] قول الإمام مالك بن أنس، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، كتاب العلم، الفصل الثالث

البيعات التي يأخذها شيوخ الطرق الصوفية على طلابهم أو مريديهم لوجدنا ما يأتي :

- البيعة الصوفية لاعلاقة لها بالسياسة أو الحكم والرئاسة .
- يبايع جميع مريدي الطرق الصوفية على إطاعة الشيخ كاملة في تطبيق الشريعة الإسلامية – فقها وتصوفا – تطبيقاً تاماً أو على قدر الاستطاعة حسب نوع المعاهدة بين الشيخ والمريد، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن شيوخ التصوف حافظوا على هذه السنة المحمدية – سنُة أخذ البيعة الخاصة – حية فعالة مؤثرة في كل عصر وذلك لأنهم بصفتهم وراث الجانب الروحي في الإسلام.

ولما كانت الشيوخ تأخذ البيعة من المسلمين على تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية الظاهرية والباطنية فهي – أي البيعة – في الواقع لله تعالى كما جاء في التنزيل العزيز:﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح : ١٠)

وجاء في موضع آخر :﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ١١١)

ولما كانت البيعة أو العهد في الواقع لله تعالى، حذر الله من نقضها تحذيراً، فقال تعالى:﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ (النحل : ٩١)﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء : ٣٤)وقال ربُّنا – تبارك وتعالى – في صفات أهل الجنة المكرمين:﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ (المعارج: ٣٢)ومن هذا تكون البيعة الصوفية هي البيعة الإسلامية الخاصة. وإحياء سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد ثبت في كثير من النصوص ما يدل على البيعة إما على الدخول في الإسلام أو على الالتزام بعمل من الطاعات التي تقرب إلى الله تعالى. وإليك بعض النصوص:

بيعة العقبة الأولى

عن عبادة بن الصامت قال: كنت فيمن حضر العقبة الأولى وكنا اثني عشر رجلا فبايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفترض الحرب، على: "أن لا نشرك بالله شيئا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئا، فأمركم إلى الله إن شاء عذبكم، وإن شاء غفر لكم"[1]

بيعة العقبة الثانية

عن جابر قال: فرحل إليه منا – أي من الأنصار- سبعون رجلا حتى قدموا عليه في الموسم، فواعدناه شعب العقبة، فاجتمعنا عنده من رجل ورجلين حتى توافينا ، فقلنا: يا رسول الله، علام

[1] مسند أحمد ط الرسالة (٣٧/ ٤١٥)

نبايعك ، قال: "تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله، لا تخافون في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني، فتمنعوني إذا قدمت عليكم، مما تمنعون منه أنفسكم، وأزواجكم، وأبناءكم، ولكم الجنة" قال: فقمنا إليه فبايعناه [1]

بيعة الرضوان

قال سلمة بن الأكوع عند ذكر قصة الحديبية "فبينما نحن قائلون نادى منادي رسول الله صلى الله عليه و سلم: أيها الناس البيعة البيعة، نزل روح القدس قال: فثرنا إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه وذلك قول الله لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة" [2]

البيعة يوم الفتح

حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا عبد الرزاق أنا بن جريج قال أخبرني عبد الله بن عثمان بن خثيم أن محمد بن الأسود بن خلف أخبره : أن أباه الأسود رأى النبي صلى الله عليه و سلم يبايع الناس يوم الفتح قال جلس عند قرن مسقلة فبايع الناس على الإسلام والشهادة قال قلت وما الشهادة قال أخبرني محمد بن الأسود بن خلف أنه بايعهم على الإيمان بالله وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه و سلم .[3]

هذه المبايعات عامة شاملة من الرجال والنساء والصبيان والشيوخ. وإليك بعض القصص التي كانت على الإسلام أو ركن من أركان الدين من أشخاص معينة في عهد النبي صلى الله عليه و سلم.

البيعة على الإسلام

عن مجاشع بن مسعود رضي الله عنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم أنا وأخي، فقلت: بايعنا على الهجرة، فقال: "مَضَت الهجرة لأهلها"، فقلت: علامَ تبايعنا؟ قال: "على الإِسلام والجهاد"[4]

البيعة على النصيحة لكل مسلم

عن زياد بن علاقة قال سمعت جرير بن عبد الله يقول يوم مات المغيرة بن شعبة قام فحمد الله وأثنى عليه وقال: عليكم باتقاء الله وحده لا شريك له والوقار والسكينة حتى يأتيكم أمير، فإنما يأتيكم الآن ثم قال: استعفوا لأميركم فإنه كان يحب العفو ثم قال: أما بعد فإني أتيت النبي صلى الله عليه

[1] مسند أحمد ط الرسالة (٢٢/ ٣٤٧)
[2] مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ٣٨٦)
[3] أخرجه الإمام أحمد وقال الهيثمي: رجاله ثقات
[4] صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير (٣/ ١٠٨٢)

وسلم قلت: أبايعك على الإسلام فشرط علي والنصح لكل مسلم، فبايعته على هذا، ورب هذا المسجد إني لناصح لكم ثم استغفر ونزل[1]

البيعة على أعمال الإسلام

عن بشير بن الخصاصِيَة رضي الله عنه، قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبايعه، فقلت: علامَ تبايعني يا رسول الله؟ فمدَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يده قال: "تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنَّ محمداً عبده ورسوله، وتصلي الصلوات الخمس لوقتها، وتؤدِّي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، وتجاهد في سبيل الله...".[2]

البيعة على التقوى

عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: كنّا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أو ثمانية أو سبعة، فقال: ألا تبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فردَّدها ثلاث مرات. فقدَّمنا أيدينا فبايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا: يا رسول الله قد بايعناك فعلى أي شيء نبايعك؟ فقال: "على أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئاً، والصلوات الخمس، و أن لا تسألوا الناس شيئا". قال: فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوطه فما يقول لأحد يناوله.[3]

مبايعة الصحابة بعضهم لبعض

ذكر ابن كثير في قصة معركة اليرموك التي كانت في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه: وقال سيف بن عمر، عن أبي عثمان الغساني عن أبيه، قال: قال عكرمة بن أبي جهل يوم اليرموك :قاتلت رسول الله في مواطن وأفر منكم اليوم؟ ثم نادى :من يبايع على الموت؟ فبايعه عمه الحارث بن هشام، وضرار بن الأزور في أربع مائة من وجوه المسلمين وفرسانهم.[4]

من تأمل في هذه النصوص وجد أنها بيعة للنبي عليه الصلاة والسلام على أنواع من الطاعات ووجد أن الصحابة فعلوا ذلك مع غير النبي عليه الصلاة والسلام للتعاون على طاعة من الطاعات.وقد تمسك السادة الصوفية بهذه السنة، وآتت ثمارها بفضل الله تعالى. فإن المرشدين يجددون النشاط الإيماني في عصرهم،وينفخون روح الدين في قلوب المسلمين ويعيدون النور المحمدي إلى ضيائه وبريقه بعد تطاول الزمن وتعاقب القرون، وهذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام: "العلماء ورثة الأنبياء" رواه

[1] صحيح البخاري، كتاب الإيمان (١/ ٢١)
[2] مسند أحمد ط الرسالة (٣٦/ ٢٨٤)
[3] صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس (٢/ ٧٢١)
[4] البداية والنهاية (٧/ ١٢،١١)

الترمذي في كتاب العلم عن أبي الدرداء رضي الله عنه.
حرض الله سبحنه وتعالى على اتباع هولاء المرشدين فقال: ﴿واتَّبِعْ سَبِيْلَ مَنْ اَنَابَ اِلَيَّ ۚ ثُمَّ اِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَاُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُوْنَ﴾ (لقمان: ١٥) ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِيْنَ يَدْعُوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَدٰوةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيْدُوْنَ وَجْهَهٗ وَلَا تَعْدُ عَيْنٰكَ عَنْهُمْ ۚ تُرِيْدُ زِيْنَةَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا ۚ وَلَا تُطِعْ مَنْ اَغْفَلْنَا قَلْبَهٗ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوٰىهُ وَكَانَ اَمْرُهٗ فُرُطًا﴾ (الكهف: ٢٨)
والمعلوم أن البيعة معاهدة للصحبة ووسيلة التربية والتزكية ولا غير وإنها شاملة لجميع البنود الواردة في بيعة الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم وبيعة بعضهم لبعض، وأن التجربة العملية هي الدليل الأكبر على ما يثمره أخذ البيعة والعهد من نتائج طيبة وآثار حميدة، ولهذا اعتصم به السلف، وورثه صالحو الخلف، وسار عليه جمهور الأمة قبل هذا القرن.

هل البيعة واجبة شرعية؟

يظن بعض الناس أن البيعة لازمة من لوازم الدين وواجبة على كل مسلم وبدون البيعة لا يفلح المرء المسلم في الدنيا والآخرة واستدلوا عليه بقوله تعالى: ﴿يٰاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوا اتَّقُوا اللّٰهَ وَابْتَغُوْٓا اِلَيْهِ الْوَسِيْلَةَ وَجَاهِدُوْا فِيْ سَبِيْلِهٖ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُوْنَ﴾ (المائدة: ٣٥)ويقولون: من لا شيخ له فشيخه شيطان. واستدلوا عليه بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوْا كُلَّ اُنَاسٍ بِاِمَامِهِمْ ۚ فَمَنْ اُوْتِيَ كِتٰبَهٗ بِيَمِيْنِهٖ فَاُولٰٓئِكَ يَقْرَءُوْنَ كِتٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُوْنَ فَتِيْلًا ۝ وَمَنْ كَانَ فِيْ هٰذِهٖٓ اَعْمٰى فَهُوَ فِى الْاٰخِرَةِ اَعْمٰى وَاَضَلُّ سَبِيْلًا﴾ (الإسراء: ٧١، ٧٢)
أقول – وبالله التوفيق – إن الفلاح في الآخرة ثلاثة أقسام:
الأول: فلاح المغفرة والنجاة في الآخرة وإن كان بعد دخول النار وإن كان بشفاعة الشافعين. وهذا الفلاح ثابت لكل مسلم وإن لم يجتنب من الكبائر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فما زلت أتردد على ربي، فلا أقوم مقاما إلا شفعت، حتى أعطاني الله من ذلك، إلى أن قال: يا محمد أدخل من أمتك من خلق الله، من شهد أنه لا إله إلا الله يوما واحدا مخلصا، ومات على ذلك"[1]
ولا يحتاج المسلم لهذا الفلاح إلى أي شيخ ومرشد
الثاني: فلاح التقوى وهو أن يغفره الله تعالى ويدخله في الجنة بدون أن يسبقه النار، وهذا الفلاح سيكون – إن شاء الله – لعامة الصالحين الذين يتحلون بالطاعات ويتخلون بالمعاصي وماتوا على الإيمان وهذا هو الفلاح الذي أمر الله بأن يسبقوا إليه ويبتغوه، قال الله تعالى: ﴿سَابِقُوْٓا اِلٰى مَغْفِرَةٍ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاۤءِ وَالْاَرْضِ﴾ (الحديد: ٢١)
وهذا الفلاح يحصل للمرء بالكتاب والسنة وبكتب العلماء الربانيين وتوجيهاتهم وبالسؤال أهل الذكر

[1] مسند أحمد عن انس رضى الله تعالى عنه. ط الرسالة (٢٠/ ٢٠٩)

عن أمراض قلبه وتشكيك عقله وتردده، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(النحل: ٤٣)
ولا يحتاج المسلم لهذا الفلاح أيضا إلى أي شيخ ومرشد ويكفيه قراءة كتب الأئمة كـ"إحياء علوم الدين" للغزالي و"قوت القلوب" لأبي طالب المكي.رحمهم الله جميعا.
الثالث: فلاح الإحسان؛ أن يتخلى القلب والقالب عن الرذائل ويتحلى بالفضائل حتى يتطهر ويتزكى قلبه عن بقايا الشرك الخفي ويترقى إلى الدرجة العليا ويتجلى بالتجليات الربانية ولن يبق في نظره مقصود إلا الله ومشهود إلا الله وموجود إلا الله، أعني أنه يتخلى أولا من إرادة الغير ثم يبعد الغير من عينه فيتجلى الحق على قلبه.وجاء في الحديث "قال: – أي جبريل عليه السلام- ما الإحسان قال: أي النبي صلى الله عليه وسلم–أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك(صحيح البخاري (١/ ٥٤) هذا أقصى الفلاح ونهاية السير إلى الله، أما فلاح التقوى فهو بُعد عن العذاب ووصول إلى الراحة في الجنة ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾(آل عمران: ١٨٥)
وفلاح الإحسان أعظم منه فإن أهله متعال عن خوف العذاب وعن الرغبة إلى الجنة ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(يونس: ٦٢) وللحصول على هذا الفلاح يحتاج الناس إلى مرشد وشيخ مربي، وبيعة الصوفية تكون للفوز بهذا النوع من الفلاح.
وأما فلاح المغفرة والتقوى فلا يحتاج له إلى البيعة وإن وقع بيعة على يد أي شيخ بدون إرادة السلوك إلى الله فللتوبة أوالبركة لا لفلاح الإحسان، فإن الله تعالى يقول بعد ذكر الإيمان والتقوى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(المائدة: ٣٥) فمن لم يبتغ الوسيلة والمرشد إلى معرفة الله فلن يفلح فلاح الإحسان ولن يصل إلى الله ولن يتجلى قلبه الأعمى بنوره وتجلياته في هذه الدنيا وقال الله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾(الإسراء: ٧١، ٧٢)

*****



من ثمرات العلم النافع

التواضع

أ.د/سعد رزق جاويش[1]

بقدرما حبا الله تبا رك وتعا لى العالم بالفضل والمعرفة والفتح الإلهي ،بقدر ما يتحلى به من مكارم الأخلاق وجميل الصفات، ومن أجل ما يتحلى به العالم التواضع للعلم، فيرى أنه فقير في باب العلم وإن كان أعلم أهل الأرض، فقد قال سيدنا موسى عليه السلام للخضر ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾(الكهف: ٦٦)مع أن موسى عليه السلام من أولى العزم من الرسل والخضر ـ رضي الله عنه ـ عبد صالح.

فالعالم يرى نفسه أنه أقل عبيدالله، وأكثرهم حاجة إليه وأفقرهم إلى التعلم، كماقيل:العالم عالم ما كان يرى نفسه أنه جاهل،فإذا رأى نفسه أنه عالم فقد جهل بل مسترشدمتعلم ،يقعد مع إخوانه يرشدهم ويسترشد منهم،ويعلم ويتعلم منهم.

قال ابن الحاج:وقع لي سؤال مع سيدي أبي محمد رحمه الله لما جئت أقرأعليه.

فقال لي:كيف تترك العلماء وتأتي تقرأعلى مثلي؟

فقلت: أريد أن أقرأ.قال :عزمت؟

قلت: نعم فقال لي:لايخطر بخاطرك، ولايمر ببالك أنك تقرأ على عالم، ولاأنك بين يدي شيخ، إنمانحن إخوان مجتمعون نتذاكرأشياءمن أحكام الله تعالى علينا.فعلى أي لسان خلق الله الصواب والحق قبلناه وإن كان صبياَ من المكاتب.

فإذا قعد الإنسان للتعليم على هذا الترتيب الذي ذكرفلاشك أنه من أعظم الناس منزلة وأكثرهم خيرا وبركة، ألاترى إلى ماجاء في الحديث: من صلى الفريضة ثم قعد يعلم الناس الخيرنودي في

[1] الأستاذ بكلية أصول الدين، جامعة الأزهر، مصر

السموات **عظيماً** (المدخل لإبن الحاج، ج:١، ص:٦٧).

فينبغي للعبد إذا فتح الله عليه في علم من العلوم أن يتقنه ويتحقق منه قدرالإمكان حتى يعرف بذلك، فإذا احتاج إليه الناس في ذلك العلم كان حاضراَمتمكناَ أميناَ،أهل معرفة.

قال سيدنا علي كرم الله وجهه :"من أكثرمن شيء عرف به" ويتطرف في البقية من كل فن، فإذا سئل عن شيء كان على إلمام به ولا يكون جاهلاَ.

قال الإمام عبدالله بن علوي الحداد:

قاعدة:من كان عارفاًبعلم ومتحققاًفيه إذا سمع من يتكلم في ذلك العلم الذي يحسنه ينبغي له أن يسكت ولا يتكلم فيظهرنفسه، فإذا تكلم فإن ذلك يعدمنه سخافة، وكثير ممن معه باب أو عشر-مسائل يتكلم مع كل من سمعه يتكلم في شيء من المذاكرة.

وخير لك أن تحسن عشر مسائل وتتقنها من أن تقرأ كتابا تاماَ لا تتقنهَ(قال):وقد جاءنا رجل وكان يغلب عليه السكون لا يكاد يتكلم مع أنه يسمع المذكرات فلما عرف ، فإذا هو يدرس في المذاهب الأربعة(تثبيت الفواد للإمام عبد الله الحداد:١/ ٢٨٥).

وهذا نموذج من الأدب العالي، الجلوس في حضرة العلم يكون بأدب،وقديكون الإنسان ملماَ بالمسألة التي يتحدث فيها الشيخ ومع هذا ينصت إليه باهتمام و عناية كأنه لايعرف شيئا من هذا الأمر، ثم يدعو للشيخ بعد ذالك ويثني عليه إذ أفاده تلك الإفادة التي ما كان يعرفها.وهذا من أرقى الأدب في الطلب.

*****

ظاهرة التصوف في منهج المفكرين

أ.د/ طه حُبيشي[1]

شاءالله عزوجل أن يخلق الإنسان على نسق يخالف غيره من الإنسان، وشاء الله عزوجل أن يخلق الإنسان مطبوعا على فطرة متعددة الشُّعب والزوايا، على خلاف ما خلق الكائنات الحية مأخوذة بغرائزهاوماغلبه عليها هذه الغرائز.

والتصوف ظاهرة إنسانية لايمكن فهمها إلامن خلال منهج إنساني تحكمه فطرة الإنسان وتقيد عليه توجهاته. إذا كان الإنسان مأخوذا بفطرته ذات الزوايا والتوجهات فإننا لا ننذر منه أن يكون مخلوقا

"البصيرة فى حقيقة الأمر صلة بين العبد وخالقه الذي منه كان وبه يستمر وجوده وإليه يعود. وإذا كانت البصيرة هي صلة العبد بربه فإنما صلة تمد بنعم ربه الذي يتجلى عليه فيجعله ربانيا. إنه يكون ربانيا في صفاته حيث يطالع أسماء الله الحسنى فيحقق معانيها فى ذاته. ويكون ربانيا فى سلوكه"

على نمط واحد في توجهاته، أوعلى نمط واحد في مسيرة ومايتنهي به هذا المسير.

ونحن إذا تأملناالإنسان فيماله من إمكانات فكرية وما لنظره من أدوات منهجية سنجد أن الإنسان قد توزعه البحث إلى ثلاثة أقسام، كل قسم له منطلقه، وكل قسم له منهجه وكل قسم له أبعاده وأعماقه، وكل قسم له نتائجه التي تؤدي به أليها أدواته. والتاريخ هو ذاكرة هذا الإنسان في تجاربه التي من خلال تراكمها وفرزها إلى أنواع يمتاز بعضهامن بعضه على أساس من التقارب بين آحاد هذه الأنواع. إننا إذا نظرنا إلى الإنسان من خلال تجاربه التي ضمها التاريخ واحتفظ بها في تراكمية،

[1] رئيس قسم العقيدة والفلسفة ـ الأسبق ـ بجامعة الأزهر

يمكن أنه تمتاز إلى أنواع ،وفي أنواع يمكن أنه تمتازإلى أفراد، لعلمنا أن الإنسان من هذه الجهة قد سلكته فطرته في أنواع وفرق .

أما الفرقة الأولى أو النوع الأول الذي انقسمت جماعة الإنسان إليه : هو هذه الفرقة التي شاءالله لها ألا تملك من أدوات التفكير إلا هذه الحواس الخمسة التي هي: السمع، والبصر،والشم ،والذوق، واللمس. وهذه الحواس الخمسة لاتزيد عن أن تكون أدوات التقاط للواقع، تلتقط منه صورة على ماهي عليه في أحسن تقدير. ويجب أن يكون معلوماأنه التقاط صورة الواقع لاتعمق إلى مايريد أن يصوره أويلتقطه منه إلا ظاهره، يحيط بهذالظاهركله ،أولايحيط إلاببعضه ،حسب المجال المخصص له كي يعمل فيه. ونحن قد نسمي هؤلاء"بالواقعية "نسبة إلى واقع المجال. ونحن قد نسمي هؤلاء "بالنصيين" نسبة إلى هذه النصوص وتلك الروايات التي تحكمهم في التفكير، إذ نحن المعبر عن مجال تفكيرهم هي هذه النصوص وتلك الروايات ، وفي جميع الأحوال فإنه لايجوز أن نتطلب من هذا النوع من أنواع الإنسان أن يتوصل إلى نتائج خارجة هذه الأنواع التى تنتجه الواقعية ،أوتؤدي إليه النصوص والروايات .أنت لايجوز لك أن تظنَّ أن هذا النوع من الناس والذي ذكرته لك يشيع في العامة والبسطاءلانه قد يظهر بقوة في بعض هذه الأسماء اللامعة والتى تشير بها الركبان.

وأما الفرقة الثانية من الناس: فهي هذه الفرقة التي اتخذت من الحواس بوابات إلى الداخل، تنقل صورة الواقع إلى القوة المتخيلة والمفكرة، فتعمل هاتان القوتان فى هذه الصور المنقولة عملها اللائق بها كل واحدة منها على شاكلتها وهذالصنف من الناس يحقق مزية الإنسان في الوجود يمثلها أصدق تمثيل ونحن نشيرإلى هذه الفرقة من الناس بشعار يرشد إلى هذا التميز، فنقول عنهم : إنهم هم العقليون، أو إنهم هم المفكرون، نسبة إلى القوة العاقلة أوالقوة المفكرة.

ونحن إذا نظرنا إلى هاتين الطائفتين: النصية والعقلية أو الطبعيين والمفكرين – لوجدنا أن لهما حضورا في كل عصر،ووجودا في كل مصر ،يظهر هذا الحضور ويتجلى هذا الوجود كلما وجدت حلقة من حلقات التفكير، وكلما انعقد مجلس من مجالس النظر. وإذا أردنا أن نجعل كلامنا منحصرا في البيئات الإسلامية فقط، فنجد أمامنا هؤلاء النصيين الذين شغلوا أنفسهم بالفكر الإسلامي وقد التزموا بالرواية والنص التزاما يتصاعد بهم إلى حد يبلغ القمة فيه أصحاب المذهب الظاهري .

وهؤلاء القوم على اختلاف درجاتهم يشتركون في التمسك بالنص والالتزام بالرواية حتى ولو أدى ذلك إلى التصادم مع فكرة التقديس أو الاصطدام بأبسط قواعد اللغة. وفى البيئة الإسلامية، الطائفة

الثانية تتمسك بالعقل، وتزهو به إلى الحد الذي يمكن أن نقول معه: إن العقل قد أطغاهم فألقى في فؤادهم قدرا من الاعتزاز بالذات، أضفى عليهم كثيرا من الزهو، ونضج على شخصياتهم بشيء غير قليل من الاعتزاز بالنفس . وظل النصيون والعقليون يتصارعون فيما بينهم ،تصطك أدواتهم تقويها مايعتقد كل فريق فيها أنها حجج قوية تساند مذهبهم وتقف خلف مايترائى لهم أنه الحق وظهرت في كل اتجاه شخصيات لامعة تقوده إلى وجهته، ويسجل التاريخ له بين طائفته الزيادة والزعامة. فالنصيون فى المجتمع الإسلامي يتخذون من الإمام أحمد بن حنبل شيخ المحققين، إماما لهم وزعيما. والعقليون يتخذون من أهل الاعتزال نقطة ارتكاز لهم ،ومن أئمتهم البارزين لهم مرشدين وزعماء. وكثر انتشار فكر النصيين في العوام.كما كثر فكر العقليين في المعتزلة ومدارسها ورجالها فالبصرة والكوفة وبغداد وتسلسل كل فريق في التاريخ إلى هذا العصر الحديث .

فالنصيون قد تسلسل فكرهم من الإمام أحمد واستمر في التاريخ إلى ابن تيمية وابن قيم حتى استقر في عصرنا الحديث يمثله رشيد رضا أصدق تمثيل.

والعقليون قد تسلسل فكرهم من مدارس المعتزلة في البصرة والكوفة وبغداد وظل في التاريخ ينتقل مستعلنا حينا ومستخفيا أحيانا إلى أن حمله التأثر جمال الدين الأفغاني الذي ورثه الشيخ محمد عبده، فظهر على يده متواريا متلطفا في دقة دقيقة حتى يكاد يترائ بقربه من السلفية ،وهو قد أعجب به شخصيتان عظيمتان الشيخ المراغي والشيخ مصطفى عبد الرزاق، فميراث الشيخ محمد عبده فيهما، لاعلى مايعتقد الناس أن ميراثه في فكر الشيخ رشيد رضا.

لقد شهد التاريخ لهذين الفريقين معارك حادة سجلها لهما ،كما شهد الواقع لهما هذه المعارك ولاتزال مستمرة لا يقطعها التبوؤ بانتهائها في حاضر مشهود أو مستقبل مأمول.

وبينما يجد الناس هذه المعارك وهي محتدمة، إذاً بنا نسمع صوتا خافتا أو عاليا يرتفع بالنداء كلما أتيح له أن يرتفع بالنداء ليقول للناس إن مناهج الفكر لاتنحصر فيما نجده عند النصيين أو فيما نجده عند العقليين إنما هناك مناهج أخرى لاتستند إلى الحواس وحدها ولاتستند إلى العقل بمفرده وإنما محورها الأساس، وقاعدة انطلاقها الكبرى إنما هي البصيرة، وإنما هي الروح وإنما هي الفطرة في استقامتها ورِقّتها.

وإنما هذه الفطرة التي تستند إلى العلم والتقوى ،العلم الذي لايحجبه قصر النظر ،والاقتصار على الحواس والأدوات الظاهرة وهو لايحجبه غرورالعقل والاعتذار بالذات.

ثم هذه التقوى التي تلقَّى بصاحبها في رحابة رحمة ربها، ترجو فضله وتخاف عذابه، وهذه الفرقة التي تتخذ من العلم والتقوى أساساً لتفكيرها، قد ظهرت في المجتمع بمذاق آخر، في المعرفة وفي السلوك

وفي مكونات الشخصية على العموم.
إن هذه الفرقة قد أشاعت بين الناس أن الفكر الاعتقادي أساسه من الله ومرجعه إليه، وليس منحة من الحواس ولا تفضلا من العقل. وصفات الإنسان التي هي الجزء الأهم من مكونات شخصية، إنما هي صنعة الله فيه، وتجليات أسمائه في خلقه. وسلوكه وأخلاقه هي من نعم الله عليه تستوجب شكر ربه عليها، ليكون الشكر على النعمة نعمة أخرى. تستوجب شكرها، و وسيلة للزيادة من النعم يستوجب هو الآخر الشكر، وإن الله لا يملّ حتى تملوا.
وهذا الاتجاه الثالث الذي يعتمد على البصيرة في التفكير، قدبدأ في وقت مبكر ثم تسلسل عبرالمحاسبي التأثر، ليعمل في المجتمع الإسلامي عمله فمن المحاسبي إلى الغزالي يمثلها فضل تمثيل، ومنه إلى أهل البصيرة من بعده، حتى كأنه العصر الحاضر، فكأنه يمثلها في أسلوب جديد، وتعبير صادق. المرحوم الشيخ عبد الواحد يحيى الذي توفي في بداية النصف الثاني من القرن العشرين ثلاثة توجهات إذاً قد رصدناها على السامة، لكل توجه منها منهجه في التفكير، و لكل توجه منها منهجه أساسه في الانطلاق،و لكل توجه منها أدواته التي يصطفها ويعمل من خلالها، إنها هي التوجهات الثلاث،ولكل منها منهجها.
وهذه الفرق الثلاث بتوجهاتها هم: النصيون، والعقليون، والبصائريون. وظل التاريخ على أمل أن تحسم المعارك التي ثارت بينهم لواحد منهم، وأغرق التاريخ في آماله و أمنياته.
وأدرك التاريخ آخر الأمر أن الأماني بدلالتها إنما تعني أول ما تعني أن تحققها من الأمور المستحيلة، أو هي في أقلّ القليل من الأمور التي يصعب نوالها.
إن المعارك بين هذه الطوائف لم تحسم في الماضي، وهي لن تحسم فى المستقبل،لا تتكافؤ الأدوات، ولكن لاختلاف الطبائع. فليس من السهل ولا من اليسير أن يتخلى النصيون عن طباعهم في التفكير. وهي طباع لا تسمح باستخدام أدوات أخرى غير هذه الأعضاء الظاهرة،بما لها من قدرات وما تحتويه من قوى. إنهم على كل حال يفكرون بأعضائهم الخارجية، ولن يتأتى لهم أن يفكروا بغيرها. إنما الحواس التي اصطنعوها وقد نالت منهم أعلى درجات التقدير، والاحترام، و التعظيم.
وا لعقليون وإن كانوا قد تجاوزوا حد التفكير بالأعضاء، إلا أنهم قد ألهوا العقل و أضافوا عليه من القداسة قدراً يعود عليهم هم بما يعتقدون أنه قدرمن التعظيم، هم دون غيرهم أحق به وأولى. صحيح أن العقليين بهذا التصور قد انفصلوا تماما عن الأصل الذي يدينون له بالفضل في الإيجاد،

والإمداد، والاستعداد، ولكنهم لا يشعرون بهذا الانفصال، فاستحقوا بعدم هذا الشعور، وبغيبة هذا الوعي أن يسخر منهم مثل جلال الدين الرومي، حين نسب هذا الإدراك لهذه الآلة الموسيقية الباكية، والتي تسمى بالنَّاي.

وأنا سوف أريك هذه الصورة التي رسمها الرومي ينتقص بها من هؤلاء الذين لم يلتفتوا إلى أصلهم الذي نزعوا عنه، وغفلوا عن القضية الكبرى التي يعرفها العوام بالترجيع (إنا لله ابتداء وإنا إليه راجعون انتهاء).

استمع إلى جلال الدين الرومي عن الناي (كيف يقص قصته؛ إنه يشكو آلام الفراق. هكذا ينادينا جلال الدين الرومي، والناي الذي يئن منذ قطع عنه أمه الشجرة هو مثال الإنسان الذي يحن في غربته إلى أصل الفطرة.

لا إنني منذ قطعت من منبت الغاب، والناس رجالا ونساء يبكون لبكائي، إنني أنشد صدرا مزّقه الفراق، حتى أشرح له ألم الاشتياق، فكل إنسان أقام بعيدا عن أصله يظل يبحث عن مكان وصله، لقد أصبحت في كل مجتمع نائحا، وصرت قرينا للبائسين والسعداء، وظن كل إنسان أنه قد أصبح لي رفيقا، ولكن أحدا لم ينقب عما كمن في باطني من الأسرار وليس سرس ببعيدعن نواحي، ولكنه أني لعين ذلك النور أو لأذن ذلك السمع الذي به تدرك الأسرار؟ وليس الجسم بمستور عن الروح، ولا الروح بمستور عن الجسم، ولكن رؤية الروح لم يؤذن بها الإنسان، إنَّ صوت الناي هذا نار لأهواء، فلا كان من لم تضطرم فى قلبه مثل هذه النار...[1])

وفي البيئة الإسلامية الطائفة الثالثة، وهي طائفة لا تنال من الحواس، ولا تنال من العقل، ولكنها قبل الحواس وقبل العقل إنما تهتم بالبصيرة.

والبصيرة فى حقيقة الأمر صلة بين العبد وخالقه الذي منه كان، وبه يستمر وجوده، وإليه يعود. وإذا كانت البصيرة هي صلة العبد بربه، فإنما صلة تمد بنعم ربه الذي يتجلى عليه فيجعله ربانيا. إنه يكون ربانيا في صفاته حيث يطالع أسماء الله الحسنى فيحقق معانيها في ذاته. ويكون ربانيا في سلوكه، فلا يتأذى من أحد، بل يكون خيره إلى الناس نازلا حتى ولوكان شرهم إليه صاعدا.

وهو يكون ربانيا في مشاعره، فترق منه المشاعر و تصفو، فتكون كالماء الذي لا يأمن، وتعطيه حلاوة العسل المصفى، ويغذيه بلبه ولم يتغير طعمه، وتسره بخمرة النشوى التي لا يصد عنها مطعاطوها

---

[1] الرومى: المثنوى ترجمة كفافى ١-٧٣-٨٣ وانظر فصول فى التصوف، د.حسن الشافعي ط دار البصائر القاهرة. ٢٠٠٨ م ص ٩و ما بعدها.

ولاينزفون، والتي لا يتأذى بها متناولوها ولا يصدعون.
هذه طوائف ثلاث في المجتمع توجد في كل عصر ومصر،تتفق فى طرق تحصيلها لمعارفها، كما لا تتفق في توجهاتها الفكرية، وإنما تظل في معاركها أبدا لا تحسم معركة بينها في زمان ولا مكان لصالح واحدة أو أكثر من هذه الطوائف، احترم النزاع وكأن لا بد أن يحترم.
وأفرز النزاع في جانب المنهج البصائري التأثر العظيم في وجه المناهج المناقصة الذي لم تبلغ بالشخصية الإسلامية غاية مداها. لقد ثار في وجه هذه المناهج تأثر كبير هو: الحارث بن أسد المحاسبي، فحقر من هذه المناهج وأبان عوارها. وثار الفقهاء والمحدثون على المحاسبي، وكان لابد أن يثوروا. وثار أرباب الاتجاه العقلي في وجه المحاسبي، و منهجه البصائري، وكان لابد أن يثوروا.
فقد كان المحاسبي ينهج في درسه نهجا آخر غير الطريق العادي التقليدي. كان يتحدث في الإخلاص، و في الورع، وفي الزهد، وفي الخشوع الخالص لله.وكان يتحدث في هيبة الله، وجلاله وعظمته. وكان يتحدث في محبة الله، والأنس به، والقرب منه. وكان حديثه عذبا، طلقا، ساميا، فكانت تخشع له الأفئدة، وتلين له القلوب، وتسيل له الدموع، ويتذكر الناس ما لله من فضل، فترق قلوبهم، ويتعاهدون على الاستقامة. وملأت سمعة المحاسبي أرجاء بغداد، ثم عبرتها إلى جميع أرجاء المملكة الإسلامية المترامية الأطراف، وكلما أخذت شهرته في الازدياد، كثر خصومه و شأنئوه!
ولكنه كان يسير فى طريقه ثابت الخطى، لا يعينه سوى أن يكون الله راضيا عنه!!! وتكشّفت له الحجب ، وزالت عنه المساتير، ووصل إلى المعرفة الحقة فأعلن طريقها.وطريقها ليس حسا يخطيء، وليس عقلا يضل، وإنما هو بصيرة وضاءة، وروح صافية. واستمرت الخصومة بين النصيين، ويمثلهم الإمام أحمد، والبصيريين، ويمثلهم الإمام المحاسبي، والعقليين، ويمثلهم المعتزلة.
ومن غريب الأمر: أن أية قوة من هذه القوى لم تخرّ سريعة، بل بقيت قوية، واستمرت في كفاح ونضال، حتى يومنا هذا .[1]
وما نهتم به الآن الإلقاء الضوء عليه، هو أن طائفة من الطوائف اتخذت من البصيرة منهجا لها قد ظهرت على الساحة، وأصبح لها أنصار وأتباع. وهذه الطائفة لم تتخذ لها أسماء ولم ترفع لها شعارا؛ ولكنها قدملأت أسماع الناس وأبصارهم، وأخذت بمجامع أفئدتهم تشق بهم ظلام الاضطراب الفكري، قاصدة وجه الله عزوجل عن طريق إخلاص التوجه له.

[1] : راجع د / عبدالحليم محمود / أستاذا السائرين الحارث بن أسد المحاسبي – مطبعة حسان ١٩٧٣م / المقدمة .

طريقة جديدة تلائم الفطرة :

ونحن نتسائل عن هذه الطريقة التي اتخذت من البصيرة منهجا له، وعن مدى ملائمتها لما في الإنسان من فطرة قد فطره الله عليها. وهذا تسائل مشروع نحاول أن نقف أمامه بمقدارما نوضحه ونوضح الإجابة عليه .

لقدشهدت الساحة من أوائل التاريخ الإسلامي توجهًا اتخذ لنفسه شعارا هو : " إخلاص التوجه إلى الله ". يحققه سلوك مبني على منهج يعتمد على البصيرة كما رأينا.

وهذا التوجه وذلك السلوك المنبثق عنه، والمنهج الذي يؤدي إليه، قد ثبت بالتجربة أن الإنسان يحتاج إليه فردًا وجماعة، احتياج ارتباط الفرع بأصله، والعاجزبالقادر، والحادث بالقديم ... إلخ .

وهذا النوع من الاحتياج نراه ونشعر به ، إذا تأملنا فى الفرد المتوحد ، وإذا تأملنا في الجماعة المؤتلفة، إذ [الإنسان لاغنى له عن ربه ، والإنسانية لاغنى لها عن الدين، والدين لاقوام له بدون الحب والخشية، ومن هنا كانت حاجتنا إلى هؤلاء العشاق العارفين، خزنة أسرارالعشق، الذين يشعلون زيت الفطرة فى حنايا القلوب فيحرق لهيبه كل الأوهام الصغيرة، ويولد الإنسان من جديد ...] (١)

والإمام ابن القيم الجوزية يدرك هذه الحقيقة ويعيها، ويترجم هذا الإدراك وذلك الوعي بعبارات تنفذ إلى القلوب، وتؤثر فى السلوك.

قال: في القلب شَعَث لا يلمه إلا الإقبال على الله . وفيه وحشة لايزيلها إلا الأنس بالله . وفيه حزن لايذهبه إلا السروربمعرفته وصدق معاملته . وفيه قلق لايسكنه إلا الاجتماع عليه والفرارإليه. وفيه نيران حسرات لايطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبرعلى ذلك إلى وقت لقائه .

وفيه فاقة لايسدها إلا محبته والإنابة إليه ودوام ذكره وصدق الإخلاص له ولوأعطى الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبدًا] . (٢)

هذا هوالفرد كماخلقه ربه، فيه هذا الجانب العاطفي الذي يحمله على الانجذاب إلى الدين، يصلحه من هذه الناحية التي لايصلحه فيما غيره . وهذا هو الفرد الذي زوَّده الله عزوجل بالحواس توقفه على حقيقة الكون من حوله، الأحياء، والنبات، والجمادات، وتمده بها لهذا الكون من صفات، وخواص، بحيث يتمكن من الاستفادة منه بالقدر الذي أتاح له ربه أن يستخير منه. ويخطيء الفرد

---

١ : د/ حسن الشافعي (مرجع سبق ذكره) .

٢ : مدارج السالكين بتحقيق الشيخ حامدالفقي / طـ دارالفكر العربي بالقاهرة بدون تاريخ م٣ ، صـ ١٦٤ .

لواتخذ من هذه الحواس وسائل معرفة مستقلة، أو منهج حياة فكرية تهيئ له حياته على الأرض، بحيث لا يحتاج معه إلى غيره.

وهذا هوالفرد الذي زوده الله عزوجل بالعقل يميز به بين حقيقة وحقيقة، وبين الشيء في الوجود والأشياء التي تشاطره هذا الوجود، ويخطيئ الفرد إذا ظن أن العقل يصلح أن يكون له إلها، يجلب له الخير ويدفع عنه الشر، ويلقي عليه مظلة الأمان، كما أن الفرد يخطيئ كذلك إذا اعتقد أن العقل وسيلة معرفة آمنة إذا استقل عن غيره .

وهذا هو الفردالذي زوده الله بالبصيرة التي تلجئه إلى ربه ، وتطالبه بالخضوع له ، والأخذعنه ، والسكون تحت مظلة رحمته . والفرد كلما تقدمت به التجربة أدرك ذلك كله ووعاه، واستفاد بالحقائق الكاملة منه حين يضل الطريق بمن سواه. شهد بذلك الباحثون على اختلاف البيئات والثقافات والعصور . والفرد إذا انضم إلى غيره من أبناء نوعه تكونت الجماعة . والجماعة كالأفراد تحتاج إلى هذا الجانب البصائري احتياجا لايغنيها عنه غيره . وآية ذلك مايظهرأمامنا فى الحضارات المختلفة والثقافات المتنوعة .

والغرب الحديث خيرشاهد على ما نقول، حيث ركب متن غرور حين تخلَّص من عصور الظلام، وألقى بقياده إلى الحضارة المادية، وتمرد على الدين، بل عاداه، واتخذ عنه موقفا يدفع إليه الشنآن.

ولقد سارالغرب في هذ الطريق إلى أقصى ذرعه، يبتغي العادة، والرفاهية، والاستقرار. واستطاع أن يحصِّل الرفاعية في الملبس والمسكن، وفي وسائل المواصلات، وفي غير ذلك مما يعبر عنه بالحضارة المادية. وحين نزع قصب السبق في آخر المشوار الذي أجهده وأضناه، فتسن في صدره عن السعادة فلم يجدها، وبحث عن الاستقرار النفسي في داخله ومن حوله، فلم يجد له أثرا. فعلم أن هناك شيء غائب، ثم تسائل: ولماذ الغياب؟ ألم نستعمل هذه الأدواة الحسية التي نملكها في جميع الميادين، بدءا من الملاحظة الفجة، ومرورا بالملاحظة العلمية وفرض الفروض، وإجراءات التجارب سلبا وإيجابا، واستنتاج النتائج منها، مسترشدين بمنهج الاستقراء حتى وصلنا إلى التنظير وسنة القوانين، فأوصلتنا هذه الطريقة إلي نتائج مادية، شربنا منها حتى الثمالة، و أكلنا لحمها وعظامها حتى النخاع؟

ولماذ الغياب؟ ألم نرفع شعار الليبرالية في أول الأمر بغير حدود، وأعلنا الثورة على الله والدين، وانتزعنا من يد رجا ل الدين الحريات الأربع في السياسة والاقتصاد، وفي السلوك والفكر؟ لقد فعلنا كل ذلك وحَصَّلنا نتائجه، وقد غاب من بين أيدينا، ومن داخل نفوسنا الإحساس بالسعادة. تسائل

الغرب عندما وصلوا إلى مرحلة نزعوا فيها بأيديهم قصب السبق، وصفقوا لأنفسهم، وعيونهم تجري بالدمع حزنا، لأنهم قد افتقدوا السعادة، وجافاهم الاسقرار. وتسائلواعن السبب وراء ذلك كله، واجتهد في البحث عنه علماؤهم و مفكروهم، ولم يجدوه إلاحين التفتوا إلى الشرق الإسلامي، فرأوا لمعان السعادة في الأفراد والجماعات، وهم متأخرون في الجانب المادي الذي ملأ جنبات الغرب. حينئذ وجد الغرب أن سعادة الشرق تكمن في استعمالهم لمنهج البصيرة، واصطناعهم لما أمدهم الله به من قدرة على التواصل مع الدين، وربه الذي شرع لهم وهداهم الصراط المستقيم.
إن الجماعة على كل حالٍ كالأفراد تضل إذا فكرت بأعضائها مستقلة، وتضل إذا اتخذت من العقل إلها، ولا تستقيم إلا إذا التفتت إلى منهج البصيرة المنسجم مع الفطرة، والأمين على من يلقى بقياده إليه، العقل يساعده، والحواس بوابة إلى العقل.
إن هذا لهو التناغم الكامل، واللحن الذي يدفع إلى التقدم، بعيدا عن لحن العقل المكرور، وبعيدا عن لحن الحواس بما فيه من نشاط.

طريقة جديدة تدخل في منظومة الدين:

وهذه الطريقة الجديدة وهي الطريقة البصائرية مع ما لها من تدخل في بناء الشخصية الإنشائية، ومع ما لها من فضل على الإنسان فردا وجماعة، ومع ما لها من تكميل الحضارة والثقافة القائمتين على التجربة الإنسانية و تراكمهما. إن هذه الطريقة مع ما لها من هذا كله، فهي مع هذا وقبله وبعده تشكل جزءا من أجزاء هذا الدين الذي ارتضاه الله لعباده المكلَّفين.
فالدين الذي جاء به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائم على أسس ثلاثة، هي: الإيمان، والإسلام، والأحسان.
والإيمان هو اتفاق الباطن والظاهر في المواقف المعبرة عن استقبال الفرد والجماعة لما جاء به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ. فالمرء لا يخلص له إيمانه إلا إذا توحَّد باطنه وظاهره في التصديق بما جاء به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخبر أنه موحاً إليه من ربه، وثبت بين أيدينا عن طريق الخبر قطعي الثبوت في نسبته إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ.
والإسلام هو هذا العمل الذي توفرت له صفة الإخلاص، فأداه العبد لربه لا يشرك به فيه شيئا.
أما الإحسان ـ وهو هذا الأصل الثالث من أصول هذا الدين ـ فإنه لا يتحقق إلا مع حضور المكلَّف مع ربه، حضورا يتجلى في مرتبتين: أعلاهما: أن يعبد المرء ربه كأنه يراه، وثانيتهما: أن يعبد المرء ربه وهو يراقب نفسه على حالة يعلم فيها أن ربه يراه.
هذه هي الأصول الثلاثة التي يقوم عليها هذا الدين. وكل أصل من هذه الأصول ملزوم لعلم من

العلوم، فالإيمان ملزوم الاعتقاد، والإسلام ملزوم الفقه، والإحسان ملزوم صدق التوجه إلى الله.
ونحن لو تأمَّلنا فيما ذكرناه، لعلمنا أن صدق التوجه إلى الله (والذي أطلق عليه الناس فيما بعد التصوف) قد جاء في مرتبة عالية من هذا الدين، وهي مرتبة ضمن هذه المراتب الوارد ذكرها في حديث جبريل الذي رواه عمر بن الخطاب، حيث سئل جبريل النبي عن الإسلام ما هو؟ وعن الإيمان والإحسان ما حقيقتهما ؟

والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجيب جبريل عن الإسلام والإيمان بما هو مشهور، ثم قال لجبريل عن الإحسان: هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

وإجابة النبي عن الإحسان بما أجاب به تؤكد لنا أن هناك أصلا في الدين لا يدرك إلا بالبصيرة، أوقف الله عليه نبيه، وسئل عنه جبريل فيما سئل، وأجابه عنه النبي في حوار قال فيه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ".

وإذا كان الإحسان هو الأصل الذي بني عليه التوجه بالبصيرة وسمي فيما بعد بـ "التصوف"، فإن العلماء والمفكرين من هذه الأمة قد أدركوا هنا الأصل، وأدركوا لازمه، ووضعوه في مكانه من الدين .

فأنت ترى الشيخ أحمد بن أحمد البرنسي الفاسي الشهير بـ "زرُّوق" يقول في قواعده للتصوف: (إسناد الشيء لأصله والقيام فيه بدليله الخاص به يدفع قول المنكر لحقيقته).

وأصل التصوف مقام الإحسان الذي فسَّره رسول الله صلى الله عليه وسلم بـ "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ".[1]

لأن معاني صدق التوجه لهذ الأصل راجعة، وعليه دائرة، إذ لفظه دال على طلب المراقبة الملزومة به.

فكأن الحصن عليها حصنا على عينه ، كما دارالفقه على مقام الإسلام، والأصول[2] على مقام الإيمان.

فالتصوف أحد أجزاء الدين الذي علمه ـ عليه الصلوة والسلام ـ جبريل ـ عليه السلام ـ ليعلّمه الصحابة ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ.[3]

وقال ابن زكري في شرحه لهذه القاعدة ما نجتزئ لك منه بعضه ، وفيه:

(ف) ثبت بهذا أن (التصوف أحد أجزاء الدين) لأنه جعل الدين في الحديث عبارة عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، الملزومة بالعلوم الثلاثه ولا ثبوت للملزوم بدون لازمه.

[1] أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وأخرجه مسلم (٨) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه
[2] المراد بالأصول :علم أصول الدين ، وهو علم التوحيد .
[3] انظر قواعد التصوف ، زروق-شرح وتعليق ، م \ طه حبيشي ، ج ١،

ولعلك الآن أصبحت على قناعة بارتباط هذ التصوف بمقام الإحسان، وهو هنا المقام الوارد في الحديث كما بينًّا .

والإحسان مصدر فعله: أحسن. و أحسن: فعل يتعدى بنفسه، كأن تقول : أحسنتُ العمل، ويتعدى بـ "إلى"، كأن تقول: أحسنتُ إلى فلان.

وابن حجر يختار أن يكون الإحسان من الفعل أحسن المتعدي بنفسه.

قال يبين اختياره ويعلل له: (... والأول هو المراد، لأنه المقصود إتقان العبادة، وقد يلحظ الثاني بأن المخلص مثلا يُحسِن بإخلاصه إلى نفسه، وأحسن العبادة الإخلاص فيها، والخشوع وفراغ القلب حال التلبس بها ومراقبة المعبود .

ولابن الخلدون التفاته في هذا المجال هي موضع التقدير والاهتمام .

قال: (وتجري هذه المقامات الثلاثة في جميع العبادات والتكاليف، وهذا هو معنى ما يقوله بعض الأكابر من أن للشريعة ظاهرا وباطنا، بمعنى أن لها حكما على المكلفين من حيث ظاهر أعمالهم، وحكما عليهم من حيث باطن أعمالهم). (شفاء السائل وتهذيب المسائل ص ٤٨)

هكذا يكون الدين قد أقسم مجالا فيه لهذ التوجه البصائري، والذي اشتهر بين الناس بـ" التوجه الصوفي"، أو بـ"التصوف".

وأنت إذا تأملت فيما ذكرناه من تأملنا في حديث رسو ل الله صلى الله عليه وسلم ، لعلمت علم اليقين أن التصوف مرتبط في الدين بأصلين قبله، انطلق منهما وأسس عليهما، وهما: العقيدة والشريعة، أو الإيمان والإسلام.

والشيخ أحمد رضا خان الهندي يمثل لذلك الارتباط بمثالين من الواقع، هما له بمثابة وسائل الإيضاح. فهو في رسالة له قد شبَّه التصوف ضمن المنظومة الدينية بهذا النهر، له مجراه، وله روافده التي تغذيه بالماء، فالنهر في مجراه الذي يترقرق الماء فيه كأنه الفضة المذابة يسُرّ الناظرين، وينفع كل حي، حسيا ومعنويا، ولكنه مع هذا كله مدين لروافده في استمرار عطائه، فلو جفَّفت المنابع وتوقف المدد، جفَّ مجرى النهر، وقبصه يده بالعطاء، وتوقفت الحياة عن الإحياء.

وفي رسالة أخرى له نجده يشبه التصوف بالأدوار العلياء في بناء شامخ تحملها قواعد ربما تكون مستترة تحت الأرض، ثم تخيَّل الشيخ أحمد رضا خان أن الطوابع العليا أخذت تزهو بنفسها، وتمنّ على غيرها بهذا العلو وذلك الشموخ .

وهي في هذه المنة قد يصدقها الغرِّيون لولا هذا الصوت القوي الصادر عن القواعد من أسفل، وهي

تقول لتلك الأدوار الشامخات: إني سأتخلى عنك فاستمسكي أنت في الهواء، فإني قد مللت حملك و أصبحت لا أطيق ارتكازك فوق ظهري.
فماذا يحدث لو قد نفذت القواعد ماتبتغيه، وتخلت عن هذه الأدوار العليا لا تحملها، ولا تسمح لها بالقرار فوق ظهرها؟

إن النتيجة مفهومة لا تخفى على أحد، إنه لا بقاء لهذه الأدوار العليا، ولا بقاء بالتالي لزهوها بهذالعلو.

والشيخ أحمد رضا خان قد أوضح هذين المثالين من خلال رسالته ضمنهما فتاواه في اللغة الأردية، وقد ترجمها إلى العربية أحد أبنائنا، وهما مطبوعتان بعد أن اطلعت عليهما وقدّمت لهما.
ومن خلال ما سطرنا نعلم: أن التصوف جزء مهم من أجزاء هذا الدين ولكنه مرتبط ببقية أجزائه وأصوله لا ينفصل عنها ولا تنفصل عنه .
قال الشيخ زروق بحق: (صدق التوجه مشروط بكونه من حيث يرضاه الحق تعالى وبما يرضاه، ولا

لاتصوف إلابفقه إذلايعرف أحكام الله الظاهرة إلامنه ولافقه إلابتصوف إذلاعمل إلا بصدقه وتوجهه ولاهما إلابالإيمان إذلايصح واحد منهادونه فلزم الجميع لتلازمها في الحكم كتلازم الأرواح للأجساد ولاوجودلها إلافيها كمالاحياة لها إلابها

يصح مشروط بدون شرطه، "ولا يرضى لعباده الكفر"(الزمر :٧)، فلزم تحقيق الإيمان، "وإن تشكروا يرضه لكم " فلزم العمل بالإسلام .
فلا تصوف إلا بفقه، إذ لا يعرف أحكام الله الظاهرة إلا منه .ولا فقه إلا بتصوف ، إذ لا عمل إلا بصدقه وتوجهه .ولا هما إلا بالإيمان ، إذ لا يصح واحد منها دونه .فلزم الجميع لتلازمها في الحكم كتلازم الأرواح للأجساد . ولا وجود لها إلا فيها كما لاحياة لها إلا بها، فافهم .
ومنه قول مالك رحمه الله: من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق.
قلت: تزندق الأول : لأنه قال بالجبر الموجب لنفي الحمة والأحكام .
وتفسق الثاني: لخلو عمله من التوجه الحاجب منهما عن معصية الله، ومن الإخلاص المشترط في العمل لله
وتحقق الثالث: لقيامه بالحقيقة في عين التماسك بالحق، فاعرف ذالك .[١] *****

[١] قواعد التصوف (مرجع سبق ذكره)

فقه الباطن

و أثره فى التوازن بين الروح والجسد

أ.د.جمال رجب سيدبى[1]

احتلت قضية الباطن مساحة كبيرة من الفكر الصوفى،بطريقة منهجية منقطعة النظير، وليس أدل على هذا من أن أعلام التصوف الكبار قد أعاروا هذا الموضوع عناية كبيرة، مثل الإمام الطوسى فى "اللمع"، والقشيرى فى رسالته، والهجويري فى كتابه المهم "كشف المحجوب"، والإمام الغزالى فى كتابه "إحياء علوم الدين".

لقد دبج فقهاء الإسلام أمهات الكتب والمراجع حول الفقه الظاهري من الأحكام الشرعية، وهناك الموسوعات القديمة والحديثة مثل بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد، وفي الحديث والمعاصر مثل الدين الخالص للشيخ محمود خطاب السبكي، والفقه على المذاهب الأربعة للجزيري، وفقه السنة للسيد سابق وغيرهم من العلماء الذين تركوا تركة علمية هائلة في هذا الصدد، وهذه الدراسة تطمح إلى تسليط الضوء على أبعاد هذه القضية في حدود المساحة المحددة لها.

ونقسم الدراسة إلى العناصر التالية:

١ـ إشكالية فقه الباطن.

٢ـ فقه الظاهر والعلاقة بينه وبين فقه الباطن.

٣ـ الدلالات الذوقية للعبادات وعلاقتها بفقه الباطن.

٤ـ التوازن النفسي بين الروح والجسد من خلال الفهم الصحيح.

٥ـ ضرورة الاهتمام بفقه الباطن، وعلاقته بالواقع في حياتنا المعاصرة.

أولا: إشكالية فقه الباطن

[1] أستاذالفلسفة الإسلامية وكيل كلية التربية جامعة المويس

يشير العلامة الشيخ عبد الباري الندوي في كتابه "التصوف و الحياة" إلى حقيقة التصوف، ويدور حول أن للإنسان الكامل وجهين الظاهر والباطن أو القالب والقلب، كذلك ترى للدين الكامل وجهين(الشريعة) و(الطريقة) وكما أن الفقهاء يستنبطون في الشريعة أعمالا وأحكاما ظاهرة كذلك الصوفية يستنبطون ويستخرجون من طريقة التصوف أعمال القلب والباطن وأحكامها.

يمكننا أن نشرح ذلك في عبارة أخرى فنقول: إن التصوف يحل من الباطن ذلك المكان الذي يحله من الظاهر الفقه، فكما أن للصلاة والصيام وغيرهما من الأعمال والعبادات صورة ظاهرة توجد أحكامها ومسائلها في علم الفقه، كذلك الخضوع والخشية وحضور القلب، أو ذكرالله تعالى الذي هو غاية الصلاة ﴿وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾.[1] صورة باطنة توجد أحكامها و تفاصيلها في هذا العلم الذي يستحق أن يسمى(فقه الباطن) وكما أن العزوف عن الطعام والشراب في وقت محدد يسمى صومًا في الأعمال الظاهرة كذلك باطنة يسمى التقوى.[2]

الواقع أن هذا التعريف المحدد – كما ألمحنا – يؤكدعلى أن علوم الباطن هي كذلك جزء من الشريعة مثل العلوم الظاهرة بعينها، وهي تنبع من صميم الشريعة كما أن العلوم الظاهرة تنبع من صميمها، ولذلك لن يكون الرجل الذي يجهل الفقه الباطني ويكرهه رجلاًعاديًا يبدي جهله لعلم ما يكرهه بل إنما يكون رجلاً يحرم نفسه حقيقة الدين ولبابه، ويمنع نفسه من الكمال الديني ودرجة الإحسان [3]. ويجدر بنا أن نشير أيضًا إلى أن فقه الباطن بمثابة قانون لأعمال القلب [4]. وقد أشارت نصوص القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة حيث قال تعالى:﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[5].وجاء في الحديث:(ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب).[6]

يربط الصوفية بين فقه الباطن والغاية العظمى من التجربة الصوفية، وهو قهر دواعي شهوات البدن أو ضبطها وإحداث نوع من التوافق النفسي عند الصوفي، وهذا من شأنه أن يجعل الصوفي متحررًا من كل مخاوفه، وشاعرًا براحة نفسية عميقة، أو طمأنينة تتحقق معها سعادته.[7] إذن ننتهي من ذلك أن فقه الباطن يعني تزكية النفوس وتحليتها بالفضائل الشرعية وتخليها عن الرذائل النفسية والخلقية[8]، وهذا يمهد للحديث عن الصلة بين الظاهر والباطن أو الشريعة والحقيقة – كماهو معلوم – عند جهابذة الصوفية.

---

[1] سورة طه، الآية 14

[2] العلامة الشيخ عبدالباري الندوي: بين التصوف والحياة، دار الفارابي للنشر، ط١,٢٠٠٣،ص٤٧

[3]. المرجع السابق، ص٦٥

[4]. السابق، بتصرف،ص٤٩

[5]. سورة الشعراء، الآية ٨٩

[6]. وهوبعض الحديث انظر ما رواه البخاري في كتاب الإيمان

[7]. أبو الوفا التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي،دار الثقافة للطباعة و النشر،ص٧

[8]. الندوي، السابق،ص١٩

ثانيًا: فقه الظاهر والصلة بينه وبين فقه الباطن

يربط الصوفية الخلص، برباط وثيق بين الشريعة والحقيقة أوالظاهر والباطن، وفي هذا الصدد يذهب الطوسي في كتابه اللمع، الذي يؤكد فيه على هذا المعنى فيقول: إن علم الشريعة علم واحد وهواسم واحد يجمع معنيين: الرواية والدراية، فإن جمعتهما فهو علم الشريعة الداعية إلى الأعمال الظاهرة والباطنة، ولايجوز أن يجرَّد القول في العلم:أنه ظاهر أوباطن؛ لأن العلم متى ما كان في القلب فهو باطن فيه إلى أن يجري ويظهر على اللسان؛ فإذا جرى على اللسان فهو ظاهر. والأعمال الظاهرة كأعمال الجوارح الظاهرة، وهي العبادات والأحكام، مثل الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد وغيرذلك؛ فهذه العبادات، أما الأحكام فالحدود والطلاق والعتاق والبيوع والفرائض والقصاص وغيرها، فهذا كله على الجوارح الظاهرة التي هي الأعضاء، وهي الجوارح، وأما الأعمال الباطنة فكأعمال القلوب، وهي المقامات والأحوال، مثل التصديق والإيمان واليقين والصدق والإخلاص والمعرفة والتوكل والمحبة والرضا، والذكر، والشكر، والإنابة، والخشية، والتقوى، والمراقبة، والفكرة والاعتبار، والخوف، والرجاء، والصبر، والقناعة، والتسليم، والتفويض، والقرب والشوق، والوجد، والوجل، والحزن، والندم، والحياء، والخجل، والتعظيم، والإجلال والهيبة، ولكل عمل من هذه الأعمال الظاهرة والباطنة علم وفقه وبيان وفهم وحقيقة و وجد، ويدل على صحة كل عمل منها من الظاهر والباطن آيات من القرآن وأخبار عن الرسول صلى الله عليه وسلم، علمه من علمه وجهله من جهله، فإذا قلنا علم الباطن أردنا بذلك علم أعمال الباطن التي هي على الجارحة الباطنة وهي القلب، كما أنا إذا قلنا علم الظاهر أشرنا إلى علم الأعمال الظاهرة التي هي على الجوارح الظاهرة، وهي الأعضاء، وقد قال الله تعالى:﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾(سورة لقمان، الآية ٢٠).[١].

ويشير الإمام عبدالحليم محمود إلى الالتزام بالشريعة، ويستشهد بأقوال أعلام الصوفية مثل قول الإمام الجنيد: الطرق كلها مسدودة على الخلق، إلا من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم واتبع سنته، ولزم طريقته. وقال أيضًا: من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث، لايقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا هذا مقيد لأصول الكتاب والسنة [٢].

١. الطوسي، اللمع، تحقيق عبد الحليم محمود- طه عبدالله الباقي سرور، نشرة لجنة التراث الصوفي،ص٤٤
٢. عبد الحليم محمود، التصوف"قضية المنقذ من الضلال"، دار المعارف، ط ٣،ص ١٦

كما أن الصوفية ينقدون إسقاط التكاليف بزعم الاحتفاء بفقه الباطن على حساب فقه الظاهر أوإسقاط الشريعة بدعوى الحقيقة!

وذكر رجل المعرفة أمام الجنيد قال:(أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل). فقال الجنيد:(إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال وهو عندي عظيمة والذي يسرق ويزني أحسن حالاً من الذي يقول هذا). [١].

فإذا ما وصلنا إلى الإمام الغزالي، فإننا نجده يقول: اعلم أن سالك سبيل الله تعالى قليل، والمدعي فيه كثير ونحن نعرفك علامة له: وذلك أن تكون جميع أفعاله الاختيارية موزونة بميزان الشرع، موقوفة على توقيفاته، إيرادًا، وإ صدارًا، وإقدامًا وإحجامًا إذ لايمكن سلوك هذا السبيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها، ولا يصل فيه إلا من واظب على جملة من النوافل، فكيف يصل إليه من أهل الفرائض! فإن قلت: فهل تنتهي رتبة السالك إلى الحد الذي ينحط عنه فيه بعض وظائف العبادات، ولا يضره بعض المحظورات، كما نقل عن بعض المشايخ من التساهل في هذه الأمور؟ وأقول لك: اعلم أن هذا عين الغرور، وأن المحققين قالوا: لورأيت إنسانًا يطير في الهواء، ويمشي على الماء، وهو يتعاطى أمرًا يخالف الشرع، فاعلم أنه شيطان.. كما أن الإمام الشاذلي رضي الله عنه يؤكد على هذه الحقيقة بقوله: إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة تمسك بالكتاب ودع الكشف،وقل لنفسك إن الله تعالى ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها في جانب الكشف، ولا إلهام ولا المشاهدة إلا بعد عرضها على الكتاب والسنة.[٢]

أظننا لسنا في حاجة إلى التأكيد على الحقيقة والشريعة أو الظاهر والباطن مرتبطان في اتصال وثيق لا ينفصل أحدهما عن الآخر، وقد أشار إلى ذلك ابن خلدون والقشيري وغيرهما من الصوفية. [٣] وفي الختام يشيرالشيخ سعيد النورسي إلى زبدة الحق بقوله: محال أن يصل أحد إلى الأنوار الحقيقية للحقيقة خارج الصراط الذي اختطه الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن دون اتباع لخطواته. [٤]

ثالثًا: الدلالات الذوقية للعبادات وعلاقتها بفقه الباطن

يربط الصوفية بين مفهوم فقه الباطن والدلالات الذوقية للعبادات برباط وثيق سيما أن العبادة لها ظاهر وباطن ويضرب الإمام الهجويري لهذا الربط الوثيق بمثال من كل العبادات، ففي ميدان

---

[١]. عبد الحليم محمود، المرجع السابق، ص ١٣١

[٢]عبد الحليم محمود، المرجع السابق، ص١٢٣.

[٣]. انظردراستنا: التصوف عند ابن خلدون "دراسة نقدية"، دار العلم، مصر،٢٠٠١، ص ٤١ وما بعدها

[٤]. سعيد النورسي، أنوار الحقيقة "مباحث في التصوف والسلوك"، ترجمة إحسان قاسم الصالحي،ص٤٨

الصلاة ينطلق من قول الحق: ﴿وَ أَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَ ءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾(سورة البقرة، الآية ٤٣)، وقوله عليه السلام: "الصلاة وماملكت أيمانكم" [1]. يقول والصلاة في اللغة بمعنى الانقياد، وهي جريان عبارات الفقهاء عبارة مخصوصة تطلق على هذه الأحكام المعتادة، وهي أمر من الحق تعالى أن: أقيموها خمس مرات. ولها شروط قبل الدخول فيها، أولها: الطهارة من النجاسة في الظاهر...) وهكذا ينطلق الهجويري في تأسيسه لفقه الظاهر، ثم يعمق الدلالة الذوقية للعبادة، وأنها الطريق للا رتقاء إلى مدارج السالكين بقوله: اعلم أن الصلاة عبادة يجد فيها المريدون طريق الحق من البداية إلى النهاية، وتنكشف فيها مقاماتهم: فالطهارة للمريدين في مكان التوبة،والتعلق بشيخ في مكان التوجه إلى القبلة، والقيام بمجاهدة النفس في مكان القيام، دوام الذكر في مكان القراءة، والتواضع في مكان الركوع، ومعرفة النفس في مكان السجود، والتشهد في مكان الأنس، والسلام في مكان التفريد من الدنيا والخروج من قيد المقامات، ولذلك فإن الرسول صلى الله عليه وسلم حين كان ينقطع عن كل المشارب، كان يطلب الشوق في محل كمال الحيرة، ويتعلق بالمشرب، وعندئذ كان يقول:"أرحنا يا بلال بالصلاة ". [2]
من ثم فإن الصلاة، التي تنفذ من الظاهرإلى الباطن، أو تجدها في الإسلام طهارة للنفس،وترقيقا للقلب، وتحلية للإنسان بفضائل الهيبة والخشوع والمشاهدة والمراقبة والمناجاة مع الله تعالى والأنس به، وبدون هذه المعاني تكون الصلاة هيكلا فارغًا من المضمون. [3]
وفي فريضة الزكاة نجد الإمام الغزالي يفرد لها بابًا كبيرًا في إحياء علوم الدين تحت عنوان كتاب أسرار الزكاة، ينطلق من التأصيل لمشروعية الزكاة وأنواعها وأسباب وجوبها والزكوات المتعلقة بها: زكاة النعم والنقدين والتجارة وزكاة الركاز والمعاندين وزكاة المعشرات وزكاة الفطر، ويرى أن من المعاني الباطنة، الإسرار أو الإخفاء، خشية الوقوع في الرياء، وبالغ بعضهم في فضل الإخفاء حتى اجتهدوا أن لا يعرف القابض المعطي فكان بعضهم يلقيه في يد أعمى وبعضهم يلقيه في طريق الفقير وفي موضع جلوسه حيث يراه ولا يرى المعطي وبعضهم كان يصره في ثوب الفقير وهونائم. وبعضهم كان يوصل إلى يد الفقير على يد غيره بحيث لا يعرف المعطي وكان يستكتم المتوسط شأنه ويوصيه بأن لا يفشيه. كل ذلك توصلاً إلى إطفاء غضب الرب سبحانه واحترازًا من الرياء والسمعة. [4]
وهذا ما أكد عليه الإمام الهجويري أيضًا، ويسير في نفس المعنى من أن حقيقة الزكاة أداء شكرالنعمة من جنس النعمة.والصحة نعمة عظيمة، ولكل عضو زكاة وذلك أن يجعل الإنسان كل أعضائه

[1]. رواه أحمد والنسائي وابن حبان
[2]. الهجويري، كشف المحجوب، جـ ٢، ترجمة إسعاد قنديل، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ص ٥٤٣
[3]. أبو الفا التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي، ص١٣
[4]أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، المجلد الأول،ص٢١٥.

مستغرقة في الخدمة، ومشغولة بالعبادة، ولا يميل إلى أي لهو أو لعب حتى يكون قد أدى حق زكاة النعمة. ولايمكن إحصاء حقيقتها لكثرتها، فينبغي لها زكاة تناسبها، وذلك عرفان النعمة الظاهرة والباطنة. وإذا عرف العبد أن نعمة الحق تعالى عليه لاحدود لها، فإنه يجب عليه لزكاة النعمة التي لا حد لها شكر لا حد له.[1]

وفي أسرار الصوم نجد أن الصوم ثلاث درجات: صوم العموم وصوم الخصوص وصوم خصوص الخصوص. أما صوم العموم فهو كف البطن و الفرج عن قضاء الشهوة وأما صوم الخصوص فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام. وأما صوم خصوص الخصوص فصوم القلب عن الهضم الدنية والأفكار الدنيوية وكفه عما سوا الله عز وجل بالكلية.[2]

وفي فريضة الحج نجد أشواق الصوفية وإلهاماتهم،تنفذ من القشور إلى اللباب، ومن الظاهر إلى الباطن فيقول الغزالي: اعلم أن أول الحج الفهم، أعني فهم موقع الحج في الدين، ثم الشوق إليه ثم العزم عليه ثم قطع العلائق المانعة منه، ثم شراء ثوب الإحرام ثم شراء الزاد ثم أخذ الراحلة ثم الخروج ثم المسير في البادية ثم الإحرام من الميقات بالتلبية ثم دخوله مكة ثم استتمام الأفعال كما سبق، أماالفهم: فاعلم أنه لا وصول إلى الله تعالى إلابالتنزه عن الشهوات، والكف عن اللذات، والاقتصار على الضرورات فيها، والتجرد لله سبحانه في جميع الحركات والسكنات. أما الشوق: فإنما ينبعث بعد الفهم والتحقق بأن البيت بيت الله عزوجل وأنه وضع على مثال حضرة الملوك،فقاصده قاصد إلى الله عزوجل وزائرله، وأما العزم: فليعلم أنه بعزمه قاصد إلى مفارقة الأهل والوطن ومهاجرة الشهوات واللذات. وأما قطع العلائق: فمعناه رد المظالم والتوبة الخالصة لله تعالى عن جملة المعاصي. وأما الزاد:فليطلبه من حلال وأما الطواف بالبيت: فاعلم أنه صلاة فأحضر في قلب فيه من التعظيم والخوف والرجاء و المحبة.وأما الراحلة: إذا أحضرها فليشكر الله بقلبه على تسخير الله عزوجل.[3]

لعل حديثنا آنف الذكر عن الدلالات الذوقية للعبادات يمهد للولوج إلى التوازن النفسي بين الروح والجسد من خلال المنهج الصحيح لفقه الباطن.

رابعًا: التوازن النفسي بين الروح والجسد من خلال الفهم الصحيح لفقه الباطن

يرتبط هذا الجانب (التوازن النفسي بين الروح والجسد) عند الصوفية بفقه الباطن برباط وثيق، بل إن المقاصد العليا لفقه الباطن هو الوصول إلى هذا التوازن.

يجدر بنا أن نشير إلى مفهوم الدنيا في نظر السالك، لقد عتقد البعض أن هناك علاقة تنافر بين الدنيا

---

[1] الهجويري، كشف المحجوب، جـ ٢،ص ٥٥٧.

[2] الغزالى، الإحياء، جـ ١،ص ٢٤٦.

[3] انظر الغزالي.المرجع السابق، ص٢٦٥.

والآخرة، وأن الصوفي الحق، ينأى بنفسه بعيدًا عن الدنيا من أجل الخلاص، والفوزبالآخرة، هذا فهم خطأ وهذا ما أشارإليه الإمام عبد الحليم: لقد حقق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم العبودية كاملة تامة. لقد حققها في ذروتها، فكانت صلاته، وكانت نسكه، وكانت حياته بأكملها، وكان موته لله رب العالمين..لاشريك له ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾.[1] لقد حققها موفورة تامة فآتاه الله عزالدنيا والآخرة .[2] وهناك الأحاديث التي تؤكد على أن الدنيا مزرعة للآخرة. يروى عن ابن عمر: "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر السبيل وعد نفسك في أهل القبور"[3]. إن هذه الجمل الثلاث أوجز كلام في موضوع الزهد والتقوى، وفي حفظ التوازن بين الدنيا والآخرة وأكثرها ثراء بالمعنى. إن الإنسان غريب في هذه الدنيا فهو- حسب تعبير جلال الدين الرومي- ناي مقطوع من غابة القصب، ولأنه أبعد عن صاحبه الحقيقي، فإنه في أنين دائم طوال الحياة.[4]

لقد ربط الصوفية بين الدنيا والآخرة في رباط وثيق، صحيح جاءت الآيات القرآنية لتحذر الناس من الانغماس في شهوات الدنيا، ولكن فرق وفرق كبير أن نعيش للدنيا و أن نعيش في الدنيا من أجل الآخرة، وهذه النظرة الشمولية المتوازنة التي استوحاهاالصوفية من الأحكام، فالإسلام يجمع بين مطالب الروح والجسد في توازن لا يخل هذا بذاك من منطق قول الحق:﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾(سورة القصص، الآية ٧٧).وهذا ما أكد عليه الإمام الغزالي، من أن حقيقة التعامل مع الدنيا من أجل الإقبال على الله بالكلية، وبكنه الهمة من أجل الفوز بالسعادة بعد الموت، وكيف أن فرقًا عديدة قدضلت الطريق وأضلت، ولم تنج منها إلا فرقة واحدة هم أهل السنة والجماعة، وأن الفهم الصحيح لحقيقة الدنيا لا تتعارض مع الذكر والفكر والمجاهدة والمكابدة والانشغال بالكلية بالواحد الحق، يقول:ووراء هذا مذاهب باطلة وضلالات هائلة يطول إحصاؤها إلى ما يبلغ نيفًا وسبعين فرقة، وإنما الناجي منها فرقة واحدة، وهي السالكة ما كان عليه رسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وهوأن لا يترك الدنيا بالكلية ولا يقمع الشهوات بالكلية. أما الدنيا فيأخذ منها قدر الزاد. وأما الشهوات فيقمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل ولايتبع كل شهوة ولايترك كل شهوة بل يتبع العدل ولا يترك كل شيء من الدنيا ولايطلب كل شيء من الدنيا، ولا يترك كل شيء من الدنيا، بل يعلم مقصود كل ما خلق من

---

[1] سورة الأنعام، الآيات ١٦٢-١٦٣.
[2] عبدالحليم محمود، قضية التصوف"المنقض من الضلال"،دار المعارف، ص ٨-٩.
[3] بخاري
[4] فنح الله كولن، النور الخالد "محمد مفخرة الإنسانية"، ص ١٨٧.

الدنيا ويحفظه على مقصوده فياخذ من القوت ما يقوى به البدن على العبادة، ومن السكون ما يحفظ عن الحر والبرد، ومن الكسوة كذلك، حتى إذا فرغ من شغل البدن أقبل على الله بكنه همته واشتغل بالذكر والفكر طول العمر، وبقي ملازمًا لسياسة الشهوات ومراقبًا لها حتى لايجاوز حدود الورع والتقوى ولا يعلم تفصيل ذلك إلا بالاقتداء بالفرقة الناجية وهم الصحابة فإنه عليه الصلاة والسلام كماقال: "الناجي منها واحدة،قال:يارسول الله ومن هم؟ قال أهل السنة والجماعة. قيل:ومن أهل السنة والجماعة؟ قال ما أنا عليه وأصحابي".[1] ونخلص من هذا، أن الإسلام ينكر على المسلم أن يحب الدنيا حبًا جمًا، بحيث يجعلها أكبر همه، ومبلغ علمه، ومناط آماله، ومحور أحلامه عليها، وحدها يحرص، ولها وحدها يسعى.[2]وكما جاء في الحديث الذي رواه الحاكم، عن حذيفة رضي الله عنه قال:"من أصبح والدنيا همه، فليس من الله في شيءٍ"[3]

خامسًا: ضرورة الاهتمام بفقه الباطن وعلاقته بالواقع في حياتنا المعاصرة

من خلال عرضنا لإشكالية مفهوم"فقه الباطن"وما ترتب على ذلك من آراء وأفكار، رتباط فقه الظاهر بفقه الباطن في حياتنا المعاصرة قد أدى إلى عبادة شكلية لاتصل إلى أعمق أعماق الإنسان.

ومن ثم فإن تطبيق معايير فقه الباطن تؤدي إلى العبادة الحقة والتي تجسدت في شخص النبي صلى الله عليه وسلم وفي سلوك الصحابة، ثم تمثل هذا النهج – فيما بعد – في سلوك الصوفية.

فمن فوائد الالتزام بفقه الباطن، وما ينبغي على المريد أو السالك في الطريق من معالجة لمشكلات وهموم الإنسان المعاصر، ولاضطراب ذلك بمثال أن الخلوة (بمعناها الكامل) كما قال الأكابر من الصوفية لمضاعفة الشحنة الإيمانية، والترقي في معارج القرب و طلب المدد، أو على الأقل زيادة طاقة اليقين والعلاقة بالله في نفس المريد شأن خلوة الرسول صلى الله عليه وسلم في رمضان، وبهذا تصبح الخلوة ضرورة إنسانية.

وكما يؤكد أطباء الصحة الجسمية والنفسية ضرورة تعيين يوم دوري للراحة والاستجمام، فكذلك يقرر أطباء الأرواح ضرورة تعيين فترة للتخلص من كافة الرواسب والمشاغل والشواغل، والمهام والهموم والانصراف المطلق إلى الله، الاستمداد من الطاقة المقدسة للتخلص من المتاعب والإجهادات والمعايب المعنوية والعودة إلى مواجهة الحياة.[4]

زبدة القول في هذه الدراسة: أن الفهم الصحيح لفقه الباطن عند جهابذة الصوفية، أضحى ضرورة للمسلم في حياته المعاصرة من أجل انجسام الظاهروالباطن معًا.

*****

[1] الغزالي، ٍحياء علوم الدين، جـ ٣، ص ٢٣٠. الإمام الجنيد، رسالة القصد إلى الله تعالى، تحقيق جمال رجب سيدبي، ص ٤٣ وما بعدها.
[2] يوسف القرضاوي، في الطريق إلى الله "الورع والزهد"، مكتبة وهبة، ص ٨٥.
[3] رواه الحاكم في الرقائق.
[4] محمد زكي إبراهيم، أصول الواصل، مطبوعات العشيرة المحمدية، ص ١٠٨.

أهمية التربية الصوفية وأثرها على المجتمع

سيد عليم أشرف الجائسي[1]

إن سقوط المنظومة الأيديولوجية الماركسية وما أدى ذلك من بروز نظام عالمي جديد أحادي القطب بطريقته الاستغلالية والهيمنية والاستفزازية ، أسفر عن ردود فعل عنيفة ضد هذا الاستغلال والاستفزاز والهيمنة في الشرق بصفة عامة وفي العالم الإسلامي على وجه الخصوص ولكن هذه ردود فعل قداتخذت مظاهر دينية في العالم الإسلامي لأسباب شتى، هذه المقالة ليست مجالا مناسبا لمناقشتها والخوض فيها ، ونظرا لغياب القوة المتزنة والجهة الوسطية في ساحة العالم الإسلامي فشل المسلمون بصفة عامة في عرض و تقديم مواقفهم ومطالبهم ومشاعرهم كما أشار إليه مراد هوفمان في كتابه " الإسلام في عام ألفين" وهذا الوضع جعل صورة الإسلام تلتبس في أذهان وأعين الكثيرين وقرنها لديهم بالعنف والسيف والدماء، و هذه الصورة المشوهة للإسلام تلونها وتغذيها وسائل الإعلام الغربية عن قصد أو سوء فهم، وتسندها و تؤيدها نظرية صمويل هانتجتون التي صالت بذكرها الألسن والأقلام والتي أبداها في كتابه " صراع الحضارات وإعادة صياغة النظام العالمي "و قد أوجدت هذه النظرية مناخا عدائيا حادا و وسعت خليجا فكريا بين أتباع الديانات.

ومما لا شك فيه أن هذه النظرية بنيت على فروض و أوهام لا تمت إلى واقع بصلة ولم تكن تعدو عن كونها محاولة ملء الفراغ الذي وجد بعد انهيار العدو الشيوعي بالعدو الإسلامي ولكن مع ذلك قد نال كتاب صيمويل هذا إعجابا وتقديرا بالغين في الغرب حتى قال وزير الخارجية الأمريكية الأسبق هنيري كسانجر : " إنه واحد من أهم الكتب التي برزت بعد نهاية الحرب الباردة "وقد ساعدت الجماعات الأصولية والحركات الإسلامية المتطرفة بأعمالها المتشددة من تبرير أو من غير تبرير القوات الحاقدة على الإسلام في ترسيخ هذه النظرية الواهية في أذهان كثير من الناس وأوساط المثقفين ، وهذه الظروف كان لها الأثر الكبير في إعادة الالتفات إلى التصوف والعناية بالخطاب الصوفي والشعوربالحاجة إلى التربية الصوفية بعد الإهمال والإنكار الذين كان يعامل بها التصوف إلى وقت

[1] الأستاذ بقسم اللغة العربية، جامعة مولانا آزاد، حيدر آباد

قريب والحصار العلمي والإعلامي الذي كان يطوقه تحت ذرائع دينية أو أيديولوجية؛ وحتى حين كان يذكر ويستحضر، فغالبا على سبيل الانتقاص والحط والتغليط، لا على سبيل القراءة الموضوعية.
وإن التربية الصوفية ليست سوى تربية النفس وتزكيتها والسمو بها إلى مكارم الأخلاق إحدى المهمات والغايات التي بُعث من أجلها سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم -وسائر الأنبياء والرسل، كما قال - عز وجل - :
﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[1].
والذي شرع الغاية لم ينس الوسيلة.
وإن التربية الصوفية ليست سوى تطهير النفس من الأوساخ والأدران وتنقيتها تهذيبها والسمو بها إلى إخلاص القصد لله والتوجه له وإن ذلك من أهم الفرائض العينية وأوجب الأوامر الإلهية، بدليل ما ورد في الكتاب والسنة ، فمنها قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[3]. والفواحش الباطنة كما قال أهل العلم : هي: الحقد والرياء والحسد والنفاق.
وإن التربية الصوفية ليست سوى تربية القلوب تربية أخلاقية وكل واحد منا يعرف أن الأخلاق هو جوهر التصوف السلوكي، فهذا الشيخ الأكبر في "فتوحاته" يعرف التصوف بأنه "التخلق بأخلاق الله تعالى" فالتربية الصوفية هي سلوك بالمريد في منازل التخلق بأخلاق الرحمن وقيل : إن التصوف كله أخلاق فمن زاد عليك بالأخلاق زاد عليك في التصوف [4]. وما أحوجنا إلى كلمة الأخلاق و ثقافة الإحسان والمسامحة التي تجمع ولا تفرق وتبني ولا تهدم .
وإن الهدف من التربية الصوفية هو بناء شخصية سوية، تجمع بين مطالب الدين والدنيا، وعالم الغيب و الشهادة. ونحن في أشد حاجة إلى التربية الصوفية ومعنا الإنسان من مشارق الأرض ومغاربها بغض النظر عن جنسه ولونه وإقليمه في زمن العولمة التي تكاد تعصف جميع القيم الأخلاقية والروحية وتريد تسليع وتبضيع كل شيء، وتنظر إلى الإنسان ككائن مستهلك يجب إثارة رغباته في الاستهلاك من أجل تلبيتها؛ مع إبقاء هذه الرغبة بشكل دائم من أجل استدامة دورة الاستهلاك وإن التصوف وحده قادر على أن يقف سدا منيعا أمام هذا السيل المادي الجارف فإذا كانت العولمة تحمل في طياتها جانبا ماديا قويا يهدد مقومات الإنسان بل الإنسانية نفسها، فإن التصوف بما يحمله من قيم روحية يستطيع مقاومتها بل هو مؤهل لأن يعولم قيمه الروحية ـ

وإن حقيقة التربية الصوفية هى سفر القلوب إلى حضرة علام الغيوب .و لا بد في هذا السفر من الشيخ المرشد العارف بالطريق وعقباته ، والخبير بالنفس وأدواتها وبالقلب وأمراضه وبعلاج كل منهما ليتخذه السالك نبراسا وقائدا فى الطريق الى الله عز وجل و نجد في الكتاب والسنة عددا لا يحصى من الادلة التي تحث على صحبة الشيوخ الصالحين وملازمة العلماء الواصلين ومتابعة الصلحاء العارفين، منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[٥]. ومنها قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[٦]. ومنها قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾[٧]. ومنها قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾[٨]. ومنها قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٩]. ومنها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾[١٠]. ومنها قوله تعالى حاكياً على لسان سيدنا موسى عليه السلام حين التقى بالخَضِر عليه السلام بعد عزم صادق، وعناء طويل، وسفر شاق: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾[١١].وغيرها من الآيات الكثيرة الواردة في هذا الباب

ومنها ما رواه البخاري من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما مَثَلُ الجليسِ الصالح وجليسِ السوءِ كحاملِ المسكِ، ونافخ الكير، فحاملُ المسكِ إما أن يُحْذِيَكَ (يعطيك) وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخُ الكيرِ إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد فيه ريحاً منتنة)[١٢]

ومنها ما رواه أبو يعلى من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قيل: يا رسول الله أيُّ جلسائنا خير؟ قال: "مَنْ ذكَّركُم الله رؤيتُهُ، وزاد في علمكم مَنْطقُه، وذكَّركم في الآخرة عملُه" [١٣]

ومنها ما رواه أبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل . [١٤]

ومنها ما رواه أبو داود عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله، قالوا: يا رسول الله فخبِّرنا من هم؟ قال: هم قوم تحابُّوا بـرُوح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور، ولا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس، وقرأ هذه الآية: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[١٥] [١٦]. ومنها ما رواه أبو داؤد

أيضا عن أبي ذر رضي الله عنه قلت: يا رسول الله ؛ الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل عملهم؟ قال: "أنت يا أبا ذر مع من أحببت"[١٧]

وادل مما سبق على أهمية الصحبة واتخاذ الشيخ ما رواه مسلم عن حنظلة رضي الله عنه قال: لقيني أبو بكر رضي الله عنه، فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قلتُ: نافق حنظلة. قال: سبحان الله، ما تقول؟! قلت: نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يُذكِّرنا بالجنة والنار كأنَّا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً. قال أبو بكر رضي الله عنه: "فو الله إنا لنلقى مثل هذا". فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وما ذاك؟" قلت: يا رسول الله نكون عندك تذكِّرنا بالنار والجنة كأنَّا رأي العين، فإذا خرجنا من عندك عافَسْنَا الأزواج والضيعات، نسينا كثيراً. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فُرُشِكم وفي طُرُقِكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة – ثلاث مرات." [١٨]

وقد اتفق العلماء ولا سيما أهل التصوف على ضرورة الشيخ وأهمية دوره في تربية المريدين ووافقهم على ذلك علماء التربية والأخلاق في الشرق والغرب على حد سواء، يقول الإمام فخرالدين الرازي(م:٦٠٦هـ)مفسرا سورة الفاتحة :" إنه لما قال:﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ لم يقتصر عليه ، بل قال : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ وهذا يدل على أن المريد لا سبيل له إلى الوصول إلى مقامات الهداية والمكاشفة إلا إذا اقتدى بشيخ يهديه إلى سواء السبيل ويجنبه عن مواقع الأغاليط والأضاليل ، وذلك لأن النقص غالب على أكثر الخلق ، وعقولهم غير وافية بإدراك الحق وتمييز الصواب عن الغلط ، فلا بدّ من كامل يقتدي به الناقص حتى يتقوى عقل ذلك الناقص بنور عقل ذلك الكامل؛ فحينئذٍ يصل إلى مدارج السعادات ومعارج الكمالات . [١٩]

قال الحافظ أبو عبد الله محمد الشهير بابن القيم: فإذا أراد العبد أن يقتدي برجل، فلينظر هل هو من أهل الذكر أو من الغافلين، وهل الحاكم عليه الهوى أو الوحي؟ فإذا كان الحاكم عليه هو الهوى، وهو من أهل الغفلة كان أمره فُرطا. إلى أن قال: فينبغي للرجل أن ينظر في شيخه وقدوته ومتبوعه، فإن وجده كذلك فليبعد منه، وإن وجده ممن غلب عليه ذكر الله تعالى، واتباع السنة، وأمرُه غير مفروط عليه، بل هو حازم في أمره، فليستمسك بغَرْزه.[٢٠]

يقول ابن عطاء الله السكندري رضي الله عنه: وينبغي لمن عزم على الاسترشاد، وسلوك طريق الرشاد، أن يبحث عن شيخ من أهل التحقيق، سالك للطريق، تارك لهواه، راسخ القدم في خدمة مولاه فإذا وجده فليتمثل ما أمر، ولينْتهِ عما نهى عنه وزجر.

وقال أيضاً: ليس شيخك مَنْ سمعت منه، وإنما شيخك من أخذت عنه، وليس شيخك من واجهتك عبارته، وإنما شيخك الذي سَرَتْ فيك إشارته، وليس شيخك من دعاك إلى الباب، وإنما شيخك الذي رَفَع بينك وبينه الحجاب، وليس شيخك من واجهك مقاله، إنما شيخك الذي نهض بك حاله. شيخك هو الذي أخرجك من سجن الهوى، ودخل بك على المولى. شيخك هو الذي ما زال يجلو مرآة قلبك، حتى تَجَلَّتْ فيها أنوار ربك، أنهضك إلى الله فنهضت إليه، وسار بك حتى وصلت إليه، وما زال محاذياً لك حتى ألقاك بين يديه، فزجَّ بك في نور الحضرة وقال: ها أنت وربك [٢١].

يقول الشيخ عبدالقادر عيسى :كما أن المرء لا يرى عيوب وجهه إلا بمرآة صافية مستوية، تكشف له عن حقيقة حاله، فكذلك لا بد للمؤمن من أخ مؤمن مخلص ناصح صادق، أحسن منه حالاً، وأقوم خُلقاً، وأقوى إيماناً، يصاحبه ويلازمه، فيريه عيوبه النفسية، ويكشف له عن خفايا أمراضه القلبية إما بقاله أو بحاله.ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: "المؤمنُ مِرآةُ المؤمن" وعلينا أن نلاحظ أن المرايا أنواع وأشكال ؛ فمنها الصافية المستوية، ومنها الجرباء التي تُشوِّهُ جمال الوجه، ومنها التي تُكبِّر أو تُصغِّر. وهكذا الأصحاب ؛ فمنهم الذي لا يريك نفسك على حقيقتها، فيمدحك حتى تظن في نفسك الكمال، ويُدخل عليك الغرور والعجب، أو يذمك حتى تيأس وتقنط من إصلاح نفسك. أما المؤمن الكامل فهو المرشد الصادق الذي صقلت مرآته بصحبة مرشد كامل، ورث عن مرشد قبله وهكذا حتى يتصل برسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو المرآة التي جعلها الله تعالى المثل الأعلى للإنسانية الفاضلة ؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾[٢٢] [٢٣]

لقدأثبت الإمام العارف شهاب الدين السهروردي أهمية دور الصوفية في تربية مريديهم وحقيقة هذه التربية بقوله : ورد فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذى نفس محمد بيده لئن شيءتم لأقسمن لكم : "إن أحب عباد الله تعالى إلى الله الذين يحببون الله إلى عباده ، ويحببون عباد الله إلى الله ، ويمشون على الأرض بالنصيحة. "وهذا الذي ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم هورتبة المشيخة والدعوة إلى الله تعالى، لأن الشيخ يحبب الله إلى عباده حقيقة، ويحبب عباد الله إلى الله ورتبة "المشيخة"من أعلى الرتب فى طريق الصوفية ، ونيابة النبوة فى الدعاء إلى الله . فأما وجه كون الشيخ

يحبب الله إلى عباده ، فلأن الشيخ يسلك بالمريد طريق الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن صح اقتداؤه واتباعه أحبه الله تعالى : قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ووجه كونه يحبب عباد الله تعالى إليه : أنه يسلك بالمريد طريق التزكية ، وإذا تزكت النفس انجلت مرأة القلب . وانعكست فيه أنوار العظمة الإلهية ، ولاح فيه جمال التوحيد وانجذبت أحداق البصيرة إلى مطالعة أنوار جلال القدم ورؤية الكمال الأزلي ، فأحب العبد ربه لا محالة، وذلك ميراث التزكية ، قال الله تعالى :﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾

وقد بين القوم مفصلا الشروط والمواصفات الواجب توافرها فيمن يقوم بتربية العباد لئلا ينخدع بالأدعياء الذين أسماهم الشيخ الهجويري بالمترسمين بالصوفية أو من ذكرهم مسند الهند الإمام الدهلوي باسم (كرامت فروشان) أي بائعي الكرامة والمشعوذين[٢٤]

فيقول الشيخ عبد العزيز : " ولشيخ التربية علامات ظاهرة : وهى أن يكون سالم الصدر على الناس: ليس له فى هذه الأمة عدو ، وأن يكون كريما : إذا طلبت منه أعطاك ، وأن يحب من أساء إليه ، وأن يغفل عن خطايا المريدين – أى لا يعاجلهم بالعقوبة – ومن لم تكن له هذه العلامات فليس بشيخ.

وكذلك ذكر أبو الهدى الصيادي الرفاعي رضي الله عنه في كتابه "العقد النضير فى آداب الشيخ والمريد" أوصاف الشيخ المرشد حتى لا يقع الناس في شرك أدعياء" المشيخة" فقال: وينبغي أن يتصف الشيخ المسلك بإثنتى عشرة صفة : صفتان من حضرة الله تعالى: وهما : الحلم والستر وصفتان من حضرة النبي صلى ألله عليه وسلم : وهما الرأفة والرحمة . وصفتان من حضرة الصديق الاكبر رضي الله عنه وهما الصدق والتصديق وصفتان من حضرة الفاروق الأعظم رضي الله عنه وهما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وصفتان من حضرة عثمان ابن عفان ذي النورين رضي الله عنه وهما الحياء والتسليم وصفتان من حضرة على الكرار رضي الله عنه وهما الزهد الأتم والشجاعة ومتى اتصف الشيخ بهذه الأوصاف وتمكنت قدمه ، وزكت شيمه صح أن يكون قدوة فى الطريق.

وإن للتربية الصوفية آثارا ظاهرة في حياة الفرد والمجتمع في تأريخ هذه الأمة فإن المتخرجين من الزوايا الصوفية قاوموا الهجمات الصليبية والغزو الاستعماري ووقفوا سدا منيعا أمام السيل التتاري الجارف فالإمام الشامل والأمير عبدالقادر الجزائري وأسد الصحراء عمر المختار والشيخ حداد وغيرهم كانوا ومازالوا يعتبرون رموزا للجهاد والمجاهدة.

وقال الدكتور ماجد عرسان : "ليس صحيحا أن التربية الصوفية تخلق شخصية متخلفة خانعة مستسلمة، بل على العكس تماما إنها تنتج شخصية متوازنة متحررة من الأيدولوجيات الفاسدة والرعونات النفسية، وتتطلع دائما نحو الكمال الخلقي والسموء الروحي، ترضى برضى الله ورسوله وتسخط بسخطهما، و تتعامل مع خلق الله بالنصح والرفق وتدعوه إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة دون الانزلاق في نفعية أو مصلحية." [٢٥]

وقد ذكر الدكتور عرسان إن في وقت الذي كانت فيه الزوايا الصوفية في الشام والعراق قد تحولت إلى معامل المجاهدين ومنشآت المرابطين وكانت منهمكة في إعداد جيل صلاح الدين الأيوبي كان ولاة أمور المسلمين غارقين في توافه الأمور و قد ورد في كتاب النجوم الزاهرة لابن تغري بردي أن وفد الشام ملؤوا كيسا من رؤوس الرجال وشعر النساء وأعطوه لوزير الخليفة العباسي لينقل له صورة ما حدث في الشام. فما كان جواب الخليفة إلا أن قال:دعني أنا في شيء أهم من هذا فحمامتي البلقاء لي ثلاث ليال لم أرها. [٢٦]

ويقول الأستاذأبو الحسن علي الندوي في كتابه : المسلمون في الهند : إن هؤلاء الصوفية كانوا يبايعون الناس علي التوحيد والخلاص واتباع السنة.[٢٧]

وقال أيضا : ولولا وجودهم وجهادهم لابتلعت الهند بحضارتها وفلسفتها الإسلام "[٢٨]

يقول د.صبري محمد خليل استاذ الفلسفة بجامعة الخرطوم :

"ساهمت الطرق الصوفية في نشر الإسلام في السودان، وأصبح التصوف وقيمه السلوكية والمعرفية (موضوعيا) أحد مكونات الشخصية السودانية، بصرف النظر عن الموقف (الذاتي)منه،وهنا نجد أن الكثير من القيم الايجابية التي تميز الشخصية السودانية كالتسامح والزهد والتضامن مع الآخرين والتعايش السلمي مع الأخر... مرجعها التصوف." [٢٩]

إن التربية الصوفية -وفي ضوء ما سبق- يمكنها أن تسهم في إعادة ترسيخ وتركيز شخصية في الإنسان المعاصر و الأخلاق ولا سيما المسلم المعاصر كي لا ينجرف مع آفات التطرف و التغريب والعولمة والتي يصبح الإنسان ضحيتها يلهث وراء الربح أو يتبع خطى الكراهية والتطرف ضاربا بعرض الحائط ومهملا وراء ظهره مختلف القيم الروحية والمثل الخلقية التي تصون كرامة الإنسان وتصون جوهره الذي يمتاز به عن سائرالحيوان.

الحواشي

١- الجمعة: ٢
٢- الأعراف: ٣٣
٣- الأنعام: ١٥١
٤- عبد القادر عيسى ، حقائق عن التصوف ، الطبعة الخامسة ، دمشق ،مؤسسة الشام للطباعة والنشر ، ١٩٩٣ م ، مقدمة
٥- التوبة: ١١٩
٦- الكهف: ٢٨
٧- لقمان: ١٥
٨- الفرقان: ٢٧ -٢٩
٩- الزخرف: ٦٧
١٠- الفرقان: ٥٩
١١- الكهف: ٦٦ -٦٧
١٢- البخاري في صحيحه في كتاب الذبائح ومسلم في كتاب البر والصلة عن أبي موسى الأشعري
١٣- "مجمع الزوائد" دار الفكر، بيروت، طبعة ١٤١٢ هـ، الموافق ١٩٩٢ ،ج١٠/ ص ١١٣ .وقال الهيثمي : "رجاله رجال الصحيح"
١٤- سنن أبي داؤد ، ١٤ : ٩٩ ،و سنن الترمذي ، ٩: ١٩٦ ، المكتبة الشاملة نقلا عن موقع وزارة الأوقاف المصرية ، وقال الترمذي : "حديث حسن غريب".
١٥- يونس: ٦٢
١٦- سنن أبي داؤد ،١٠ : ٣٧٢ المصدر السابق .
١٧- سنن أبي داؤد ،١٤: ٤٩٦ المصدر السابق .
١٨- مسلم في صحيحه في كتاب التوبة ، باب فضل دوام الذكر ،١٧: ٤٤٥ ، المكتبة الشاملة نقلا عن موقع وزارة الأوقاف المصرية .
١٩- مفاتيح الغيب ، ١:١٦٦، المكتبة الشاملة نقلا عن http://www.altafsir.com
٢٠- الوابل الصيب من الكلم الطيب ، دار الكتاب العربي ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٥ م ٥٦ .

٢١- حقائق عن التصوف ، ص : ٦٧ ، المصدر السابق .
٢٢- الأحزاب: ٢١
٢٣- حقائق عن التصوف ، ص : ٤٥ ، المصدر السابق .
٢٤- انظر المقالة " شاه ولي الله كي تنقيد تصوف ، سيد عليم اشرف الجائسي ، مجلة : تحقيقات إسلامي ، علي كره ، ديسمبر ٢٠٠٤ .
٢٥- انظر الكتاب " هكذا ظهر جيل صلاحالدين وهكذا عادت القدس ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، فيرجينيا ، الولايات المتحدة ،١٩٩٤، ص:١٢٢
٢٦- المصدر السابق
٢٧- لكناؤ : ص ١٤٠
٢٨- روائع اقبال ، لكناؤ ، المطبعة الندوية ، ١٩٩١م ، ص :١٤ .
٢٩- انظر موقعه : sabrikhalil25@yahoo.com

*****

الشيخ علي المهائمي حياته وأعماله

ضياء الرحمن العليمي

ولد الشيخ الفقيه علاء الدين علي بن أحمد المهائمي ببلدة مهائم في أواخر القرن الثامن في العاشر من محرم سنة ١٣٨٣م، في أسرة كريمة دينية صالحة وفي بيئة يتفجر من جوانبها التقوى والصلاح.
كان والده الشيخ أحمد من كبار العلماء والأفاضل في عصره فاعتنى به عناية كبيرة واهتم اهتماماً بالغاً في نشأته على الخير والصلاح والتعليم والتربية، قال مؤلف تاريخ النوائط أنه لما توسم والده مولانا شاه أحمد قدس سره في ولده الذكاء والحرص على العلوم صرف اهتمامه إلى تعليمه وكان عالماً كبيراً من العلوم العربية، فتمخض منه أنه أصبح عالماً وهو صغير، وفرغ من العلوم المتداولة من الفقه والمنطق والفلسفة والحديث وغيرها في مدة قليلة[1].
وكانت أمه السيدة الشريفة فاطمة من جملة صالحات عصرها أيضاً، وذلك كله قد ساهم كثيراً في بناء شخصيته وتنقية موارده و تجلية قلبه وتوقيد مواهبه، فأصبح مفسرا مرموقاً، محدثاً كبيراً فقيهاً عظيماً، وصوفيا جليلاً له كشوف وكرامات،وقد اشتهرعنه أيضا أنه كان للخضر دور كبير في تعليمه وتربيته.

سيرته وشخصيته

كان الشيخ علي المهائمي متأدبا بالآداب السنية ومتحليا بالأخلاق الحميدة والفضائل الجميلة ومتزينا بالأوصاف المرضية، وذكر مؤلف رسالة ضمير الإنسان عن سيرته وشخصيته ماملخصه أنه كان جوادا كريم النفس، لين الخلق، حلو الكلام، مبسوط اليدين، يعين الضعفاء والفقراء والمساكين، لايبالي بالدنيا وأغراضها، ولأجل ذلك كان الناس في ذلك الزمان يبجلونه ويعظمونه تعظيماً بالغاً وكان جليل القدر كبير الشأن وقوراً محبوباً لدى المسلمين والهنادك بدون نزاع[2].
وقد ذكر مؤلف بركات الأولياء عن شخصيته أنه كان عابداً وزاهداً، جامعاً لعلوم الشريعة والطريقة، صاحب التصرفات الظاهرة والباطنة[3].
وقال مولانا محمد باقر آكافي كتابه "النفخة العنبرية" عن أوصافه ومحاسنه: كان في العلوم العقلية

---
[1] ص:٣٥٤، نقلاً عن مخدوم علي مهائمي، ص:٣٥، ط:نقش كوكن يبلى كيشن ترست، ممبائي
[2] مخدوم علي مهائمي ص:٤١-٤٢
[3] نفس مرجع ص:٤٢

والنقلية غاية، وفي أذواق توحيد وتجريد الشهود آية، وفي الاستغراق في مشاهده الذات والتخلي عن ملاحظة الآيات نهاية، ظهرت منه الكرامات الجلية والمآثر السنية والشمائل المرضية والمفاخر العلية[١].

اشتغاله بالتدريس والإفادة

كان الشيخ علي المهائمي من كبار الأفاضل في عصره ويستفاد منه أن كان قد استفاض منه طلاب كثيرون ولكن من الموسف أن لا يوجد عند الباحثين تفاصيل تلك الاستفادة وعدد تلامذته.

ذكر صاحب بركات الأولياء أنه كان في مهائم مدرسة يدرس فيها الطلاب ويفيدهم بمافتح الله عليه من العلوم و المعارف الظاهرة والباطنة، وكان يقضي جل أوقاته في الأعمال التاليفية[٢].

ومن جملة تلامذته الشيخ محمد سعيد الكوكني الرتناغيري ذكره صاحب تاريخ الأولياء في تاريخه، يقول في موضع معرفا بشخصيته: إنه (الشيخ محمد سعيد الكوكني) من تلامذة الشيخ الفقيه المخدوم علي المهائمي، له رسائل عديدة في علوم الحقائق والتصوف، وهما (الشيخ علي المهائمي وتلميذه المذكور) من بين رجال كوكن مثل الشمس والقمر، قد تنور بوجودهما مآت من التائهين في الضلالات والعمايات وانتشرت بهما أنوار العلوم الظاهرة والباطنة في مناطق كوكن، لا يعرف سنة وفاته، وقبره موجود في رتناغري[٣].

وكانت له مكتبة كبيرة بقيت إلى مدة طويلة ذكرها سيد أبو ظفر الندوي في كتابه "كجرات كي تمدني تاريخ" (تاريخ غجرات الحضاري) ذكر فيه أيضاً أنه في عام ١٩٣٢م ذهب إلى موقع تلك المكتبة فوجد هناك مكتبة جديدة أخرى وتحتوي على الكتب العربية والفارسية والأردية وأخبره ناظم المكتبة أن كتب المكتبة القديمة قد اندمجت إلى المكتبة الجديدة[٤].

مشربه الصوفي ونزعاته في التصوف

عند ما يدرس الباحثون حياة الشيخ علي المهائمي وترجمته لا يجدون فيها ذكر بيعته على أيدي أحد من المشايخ الصوفية في عصره، مع أن حياته كلها متصبغة بصبغة التصوف، ولذلك قد ذكر بعض من ترجم له أنه أويسي في التصوف، ومعناه أنه لم يبايع أحداً من الصوفية في حياته بل قد استفاض بدون واسطة ظاهرة من مبدأ الفيض وهو الله تعالى، وحصلت له الفتوحات الربانية بدون واسطة، أوأنه وصلت إليه الفيوض الرحمانية بواسطة الخضرأو بلغت إليه الفيوض الإلهية من أرواح المشايخ الصوفية بدون مبايعة ظاهرة، وإنه لم يكن في هذا الأمر بدعا من الصوفي بل وصلت الفيوض

[١] تاريخ النوائط، الباب الرابع، الفصل الثاني ص: ٣٦٠،مخطوطة
[٢] بركات الأولياء ص:٣٨،ط:ممبئي،١٣٢٢هـ
[٣] تاريخ الأولياء، ص:٤٣، ط:ممبئي
[٤] ص:٢٤٣

الأويسية إلى عدة مشايخ منهم أبوالحسن الخرقاني وعلي بن عثمان الهجويري والشيخ جلال الدين الفوراني والشيخ حسن الزنجاني وغيرهم.

أما مذهبه في التصوف فهو على مذهب الشيخ الطائي سلطان العارفين الشهير بابن عربي، يقول محمد حسن الغوثي المندوي:

وكان (الشيخ علي المهائمي) عارفاً بحقائق وأسرار الكونين، وفي مصطلح الصوفية إنه كان من أتباع الشيخ محي الدين ابن عربي الطائي المتوفى ٦٣٨ هـ والشيخ صدر الدين القونوي المتوفى ٦٧٢هـ فنسج على منوالهما وشرح مؤلفاتهما وعلق عليهما بكل جودة وإتقان[١].

يقول الشيخ غلام علي بن نوح الشهير بآزاد البلجرامي: والشيخ علي كان من نحارير الزمان وأصحاب الذوق والعرفان مثبتاً للتوحيد الوجودي مقتفيا بالشيخ محي الدين بن عربي[٢].

ويقول الشيخ عبد الحق بن سيف الدين البخاري الدهلوي: إنه من العلماء الصوفية الموحدة وكان عالماً بالعلوم الظاهرة والباطنة صاحب التصنيفات الرائقة والتأليفات اللائقة[٣].

ولشدة ولوعه بالشيخ ابن عربي واهتمامه بأعماله ووجهات أنظاره شرحاً وتعليقاً عده المورخون من أعلام الصوفية الوجوديين، منهم نواب صديق حسن خان والمفتي غلام سرور اللاهوري ورحمان علي وغيرهم.

وهناك شاهد آخر على حبه بالشيخ ابن عربي وأعماله ووجهات أنظاره وهو أنه سافر إلى اليمن للذب عن الشيخ ونظرياته، وقد ذكر هذه الرحلة مولف "كلزار أبرار" بالإشارة إلى إحدى رسالته[٤].

محصول الكلام أن الشيخ علي المهائمي كان من أبرز أتباع الشيخ محي الدين بن عربي وشارحي نظرياته وموضحي مغلقاته ومحللي معضلاته وكان على منهاجه في مولفاته ومصنفاته.

وفاته

وكانت وفاته رحمه الله لثمان خلون من جمادى الآخرة ليلة الجمعة عام ٨٣٥هـ الموافق لعام ١٤٣١م ودفن بجوار قبر أمه يوم الجمعة قبل الزوال وقبره هناك يزار ويتبرك به.

أعماله العلمية

إن الشيخ علي المهائمي له مؤلفات ومصنفات تكلم فيها عن التصوف وحقائقه اللطيفة في ضوء القرآن والسنة و حاول الجمع بين الشريعة وفلسفات التصوف الدقيقة، فكشف اللثام عن وجوه

[١] كلزار أبرار، ص:١٤١،مخطوطة
[٢] سبحة المرجان، ص:٣٩، ط:ممبئي
[٣] أخبار الأخيار، ص:١٧٣،ط:دهلي
[٤] كلزار أبرار ص: ١٤٢

الغوامض وأزاح الستار عن وجوه المعضلات وذلك كله بأسلوب يروق القاري ويعجب الباحث ومن جملة تلك المؤلفات:

زوارف اللطائف في شرح عوارف المعارف

إن عوارف المعارف كتاب في التصوف للشيخ شهاب الدين عمر السهروردي المتوفى ٦٣٢هـ أكب عليه علماء التصوف ومشايخه درسا وإفادة وشرحاً وتعليقا وانتفع به ناس كثيرون من بينهم العامة والخاصة.

وقد شرح هذا الكتاب الشيخ المهائمي فأوضح فيه مبهماته وفصل مجملاته وحل مصطلحاته بالإشارة إلى غريب كلماته ومشكل نصوصه وزاد فيه بعض المباحث والحكايات والقصص مستفيداً من كتب الصوفية المرجعية الأخرى، قد أبدع في بعض المواضع فأحسن وأتى بلطائف الإشارات وبدائع النكات.

توجد النسخة الخطية لهذا الكتاب في المكتبة المحمدية الواقعة بالمسجد الجامع في ممبائي وهي مكتوبة بخط دقيق غامض، بدون فصل ملائم بين السطور، والحواشي مندرجة مع متن الكتاب كاملاً وقد وضع فيه فهرس يحيط مباحث الكتاب بكل ترتيب، وتوجد نسخ خطية لهذا الكتاب في مكتبات في حيدرآباد ورام فور وبانكي فور وبتنا، الهند.

ترجمة وشرح لمعات عراقي

إن لمعات عراقي من مصنفات الشيخ العارف فخر الدين العراقي (٦٨٨هـ)باللغة الفارسية، نقلها الشيخ علي المهائمي إلى العربية لأهميتها، وكتب عليها شرحاً وافياً يحل مشكلاتها ويوضح مغلقاة.

إن الشيخ فخر الدين العراقي من مريدي وخلفاء الشيخ بهاء الدين زكريا الملتاني السهروردي المتوفى ٦٦٦ هـ وهو شاعر صوفي مرموق رحل بعد وفاة شيخه إلى قونيه، فلما وصل إليها وجد الشيخ صدر الدين القونوي تلميذ الشيخ محي الدين ابن عربي الطائي يدرس الفصوص فحضر في درسه، وطالع الفصوص ثم صنف اللمعات وقدمه إلى الشيخ صدر الدين القونوي فقال يا عراقي! قد أفشيت أسرار كلمات الرجال وأعلنتها، وقد كتب الشيخ الفاضل عبد الرحمن نور الدين الجامي شرحاً لهذا الكتاب وسمّاه بأشعة اللمعات.

مرآة الحقائق

إن الشيخ محمد عز الدين المغربي المتوفى ٨٠٩هـ من علماء الصوفية القائلين بوحدة الوجود، وله كتاب باللغة الفارسية موسوم بـ"جام جهان نما" قد تكلم فيه عن ذات الحق سبحانه وتعالى

والأحدية والواحدية والحقيقة المحمدية والتنزلات الست وغيرها من المباحث الغامضة بغاية الإجمال والإبهام ولذلك يعد من أصعب الكتب في التصوف وأدقها.
نقل هذا الكتاب الشيخ المهائمي إلى اللغة العربية بكل ضبط وإتقان وله اثنتان وثلاثون صفحة، توجد نسخة لهذا الكتاب الخطية في مكتبة جامعة ممبائي في (Khakhate Collection).

إراءة الدقائق شرح مرآة الحقائق

شرح هذا الكتاب الشيخ المهائمي بعد أن نقله إلى اللغة العربية لما وجد فيه الدقة والغموض والإبهام، فأتى ببواكر اللطائف ونوادر الإشارات، ونقح المسائل وفصل الإجمال وأزاح الإيهام والإبهام، وبين الحقائق والمعارف بكل ضبط وجودة وإتقان بحيث لا يبقى فيه شك ولا ارتياب.
قداستفاد من هذا الكتاب الشيخ العلامة وجيه الدين العلوي الكجراتي المتوفى ٩٩٨هـ في شرحه لجام جهان المسمى بـ"آئينة حق نما" (المرآة الهادية إلى الحق) وأشار إلى ذلك الشرح في مواضع عديدة، قد قام بطبع هذا الشرح عبد القادر جيتلر من مدينة ممبائي قبل مدة طويلة وتوجد نسختها المطبوعة القديمة في المكتبة المحمدية بالمسجد الجامع في ممبائي.

استجلاء البصر في الرد على استقصاء النظر

ألف جمال الدين حسن بن يوسف بن علي بن مطهر الحلي الشيعي المتوفى ٧٢٨هـ أحد العلماء المشهورين لمذهب الشيعة رسالة في مسألة القضاء والقدر وأسماها استقصاء النظر، فكتب الشيخ علي المهائمي رداً عليها باسم استجلاء البصروهويدحض فيه آراءه في هذه المسألة، لا توجد نسخة هذا الكتاب في صورة مخطوطة أو مطبوعة.

الوجود في شرح أسماء المعبود

هذا الكتاب في شرح أسماء الله الحسنى كما هو ظاهر من اسم الكتاب، قد ذكره مولف تاريخ الأولياء ولكن لا توجد نسخة خطية ولا مطبوعة لهذا الكتاب.

الفتاوىٰ المخدومية

كان الشيخ علي المهائمي من الفقهاء الكاملين ورجال الفتوى البارزين، ويفهم منه أنه كانت ترد إليه الأسئلة والاستفسارات عن المسائل الدينية والشرعية كثيرا فكان يجيب عليها، وقد ذكر السيد إمام الدين كلشن آبادي مولف تاريخ الأولياء أن كانت له مجموعة من الفتاوى ولكنها تلاشت من بين ما تلاشت من مؤلفاته ومصنفاته.

إنعام الملك العلام بإحكام حكم الأحكام

هذا الكتاب من مؤلفاته المبدعة، قد بين فيه أسرار الأحكام الشرعية من الصلاة والصوم والزكاة والحج وغيرها، ووزن الأحكام المذكورة في القرآن والسنة بميزان العقل والمنطق، وأوضح توافق العقل بالنقل والشرع، وهوعلم شريف تنافس فيه المتنافسون ولكن لم يصل إليه إلا نخبة من العلماء الكاملين، منهم الإمام محمد بن محمد الغزالي قد ذكر شيئاً من علوم أسرار الشريعة في كتابه الشهير "إحياء علوم الدين"، والشيخ عز الدين بن عبد السلام في القواعد الكبرى، والشيخ محي الدين ابن عربي الطائي في الفتوحات المكية، والكبريت الأحمر، والشيخ صدر الدين القونوي في مؤلفاته،والعلامة الطيبي في شرحه لمشكاة المصابيح.

أما في الهند فإن الشيخ علي المهائمي أول من ابتكر هذا العلم وصنف فيه، وهذا الكتاب لا توجد نسخته لا الخطية ولا المطبوعة إلا في المكتبة المحمدية الواقعة بالمدرسة المحمدية بمدراس (شينائي حاليا) قد ذكرها مولف كتاب "تامل نادو مين عربي أدب كي تاريخ" (تاريخ الأدب العربي في تامل نادو) في ضمن المكتبات الموجودة في مدراس.

الفقه المخدومي

هذا الكتاب في الفقه الشافعي وينسب إليه إلا أن مستوى هذا الكتاب ومحتوياته لا تتوافق مع مؤلفاته الأخرى الرفيعة، ولا توجد فيه تلك الروعة والإبداعات اللسانية والبيانية والمعنوية، ولذلك أعرب مولوي محمد يوسف كهتكهتى عن رأيه أنه إما أن قد وقع فيه تحريف أو ألفها الشيخ علي المهائمي في بداية عمره، قد ورد فيه كلمة مهائم أيضاً، ذكرفيه آراءه الشخصية عن المسائل بقوله "قلت"، قد تم طبع هذا الكتاب مع ترجمته باللغة الأردية من مدينة مومبائي مرارا و تكرارا.

رسالة عجيبة

هذه رسالة وحيدة نادرة في بابه وهو الإعراب النحوي، لا يوجد نظيره سلفاً وخلفاً، وإنها أكبر شاهد على عبقريته وتبحره في الفنون وذكائه المفرط وقريحته الوقادة، قد ذكر فيها وجوه الإعراب النحوي للآية الأولى من سورة البقرة، قد نقل الشيخ غلام علي بن نوح البلجرامي مقتطفاً من أولها في "سبحة المرجان في آثار هندوستان"نذكر بعضه فيما يلي:

قال العبد الحقير علي بن أحمد المهائمي رزقه الله التوفيق، وأذاقه حلاوة التحقيق قد أغرب بعض الفضلاء في تخريج وجوه الإعراب في قوله تعالى: الم إلى قوله للمتقين حتى أخرج أربعة وعشرين ألفا وتسع مائة وسبعين وجها، وزاد عليها مولانا علامة الزمان المحقق خسرو الرومي فبلغ المجموع

مائتي ألف وتسعة وسبعين ألفا وسبعين وجهاً، ولكن لا يخفى على الناظر فيها أن بعض الوجوه لا يستقيم في نفسها، وبعضها لا يرتبط ببعضها، والعبد الذليل قد استخرج بقدرة الملك الجليل ستة آلاف ومائة ألف وأحد عشر ألفاً وأربعة وأربعين وجهاً، وإذا ضم إليها وجوه﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾التي هي أحد وعشرون وجها، وضرب العدد المذكور فيها تبلغ ماثة ألف ألف، وثمانية وعشرين ألف ألف، وثلث مائة ألف وأربعة وأربعين ألف ألف، وخمس مائة وأربعة وعشرين وجهاً، ويعبر عن هذا العدد بالهند اثني عشر كرورا وثلاثة وثمانون لكاو وأربعة وأربعون ألفاً، وخمس مائة وأربعة وعشرون وجهاً، (١٢،٨٣،٤٤،٥٢٤).

والمسؤول من أكابر العلماء وأماثل الأذكياء أن ينظروا فيه بعين الرضاء ويجتنبوا عن السخط والمراء، فاني بقصوري معترف ومن بحار علومهم مغترف.

شرح حديث سيد الاستغفار

هذه رسالة وجيزة في حديث سيد الاستغفار ذكرها الشيخ عبد الرحمن برواز الإصلاحي في كتابه "مخدوم علي مهائمي" وهي موجودة في أخر الرسالة "الضوء الأظهر في شرح النور الازهر" الموجودة في المكتبة المحمدية بالمسجد الجامع ممبائي، وقد وجدت نسخة خطية لهذه الرسالة على الانترنت بموقع مخطوطات مكتبة هارفرد تحت العنوان التالي:

http://pds.lib.harvard.edu/pds/wiew/thumbnails

وذلك تحت رقم 18480249AD، وهي مشتملة على ست عشر صفحة، كتبت نصوص الدعاء بالمداد الأحمر وشرحها بمداد آخر وتمت كتابة هذه النسخة للدعاء وشرحه عام ١٢٦٥هـ.

أدلة التوحيد

ألف الشيخ علي المهائمي هذه الرسالة في مسألة وحدة الوجود بحث فيها عنها وشرح أفكار و وجهات أنظار الشيخ محي الدين بن عربي بكل جودة وإتقان، وأيدها بالكتاب والسنة وبأقوال أئمة الدين وآراء المفسرين وتصريحات الصوفية، قال الشيخ عبد الحق بن سيف الدين النجاري الدهلوي عن هذه الرسالة:

هذه الرسالة وجيزة منقحة غاية الإيجاز والتنقيح في تحرير الدلائل العقلية والبراهين القطعية، وإزالة الشكوك وإماطة الشبهات، وقد دقق في الكلام عليها غاية التدقيق (أخبار الأخبار، ص:١٧٩).

أجلة التائيد في شرح أدلة التوحيد

لما رأى الشيخ المهائمي أن هذه المسألة تحتاج إلى بحث طويل وإيضاح مزيد وكلام مبين وشرح بسيط

ألف هذه الرسالة التي أسماها بأجلة التائيد في شرح أدلة التوحيد، قام بطبعها محمد يوسف كهتكهتي بالمطبع الشهابي ببمبائي وتوجد نسختها المطبوعة في المكتبة المحمدية الواقعة بالمسجد الجامع في ممبائي.

النور الأزهر في كشف سر القضاء والقدر

ألف هذه الرسالة الشيخ المهائمي في بيان نظرية الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي، وهو أن سر القضاء والقدر يتعلق بالأعيان الثابتة أو بالحقائق الثابتة قبل وجود الأشياء في العلم الإلهي، وهذا العلم الأزلي السابق بوجود الأشياء هو المعبر عنه بالقضاء والقدر، والأصل عنده هو المعلوم وأما العلم فهو مرتب عليه.قد أوضح الشيخ علي المهائمي هذه النظرية مستعيناً بالبراهين العقلية والأدلة النقلية، وكشفها لأرباب العقول وتكلم عليها بكل دقة وإمعان.

الضوء الأزهر في شرح النور الأزهر

هذه الرسالة أيضاً للشيخ المهائمي قد شرح فيها كتابه النور الأزهر في كشف سر القضاء والقدر، لا توجد نسخة خطية كاملة لها، وقام بطبع نسخة خطية ناقصة المولوي محمد يوسف كهتكهتى، وهذه النسخة المطبوعة قديما موجودة في المكتبة المحمدية بالمسجد الجامع في ممبائي، ويوجد في آخرها شرح حديث سيد الاستغفار أيضاً.

خصوص النعم في شرح فصوص الحكم

ألف هذه الرسالة الشيخ علي المهائمي في شرح فصوص الحكم للشيخ الأكبر محي الدين بن عربي الطائي، وقد شرح الفصوص عدة من العلماء منهم أحمد بن يوسف بن محمد الحصكفي والقاضي شهاب الدين السندي (المتوفى ٨٩٥هـ)، فله شرح الفصوص، والشيخ عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني النابلسي الدمشقي النقشبندي القادري المتوفى ١١٤٣هـ، وله جواهر النصوص في كلمات الفصوص، وغيرهم، والشيخ محمد بن يونس الحسيني الكلبركوي المعروف بكيسودراز المتوفى ٨٢٥هـ وله شرح الفصوص.

أما هذا الشرح فهو من أوسع شروح الفصوص فيما وصل إلينا في عالم المخطوطات وقد التزم فيه المهائمي شرح ألفاظ الفصوص بطريقة التعبير الإشاري والفهم الذوقي حيث إضافة المعنى الحقيقي للجمل والألفاظ فجاء هذا الكتاب حاوياً للمعاني الحسان شاملاً لجميل البيان. وصف هذا الشرح المورخ الشهير عبد الحي بن فخر الدين الحسيني الرائ بريلوي في تاريخه الشهير: الأعلام بمن في تاريخ الهند من الإعلام بأنه شرح لا نظير له (٣/ ٨١) وقد زكى هذا الشرح مصطفى بن عبد السلام الحلواني وأثنى عليه بقوله: فيه فوائد جميلة ونافعة. (مقدمة التحقيق لخصوص النعم، ط: دار الكتب العلمية).

توجد نسخة خطية لها في مكتبة دار العلوم بديوبند، وهي تشتمل على ست مائة وإحدى وخمسين ورقاً، وفيها خمسة عشر سطور بكل صفحة، (تعارف مخطوطات كتب خانه دار العلوم ديوبند، رتبه: محمد ظفير الدين، المفتي، ص:٢٤) وتوجد نسخة أخرى في الكتبخانه الخديوية بمصر- أيضاً، وقد وفق الله لشيخ أحمد فريد المزيدي فقام أول مرة في التاريخ بتحقيق هذا الشرح والتعليق عليه والتخريج والضبط له بإشارة من شيخه ومرشده مصطفى بن عبد السلام الحلواني، وزينه بحلية الطباعة دار الكتب العلمية بيروت، لبنان في عام ٢٠٠٧ وإنما الفضل للمتقدم.

الرتبة الرفيعة في الجمع والتوفيق بين أسرار الحقيقة وأنوار الشريعة

ألف هذا الكتاب الشيخ علي المهائمي في الرد على الطاعنين في الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي، وذكر في مقدمة هذا الكتاب أن الشيخ جمال الدين محمد المزجاني الزبيدي اليمني شيخ شيوخ المرتضى الهندي الزبيدي أخبره بأن هناك في زبيد، اليمن، عالماً يسمى بإسماعيل بن أبي بكر المقري (المتوفى ٨٣٧هـ/ ١٤٣٣م) ألف كتاباً باسم "الذريعة إلى نصرة الشريعة" وادعى نصرة الدين والشريعة ولكنه قد طعن في ذوات الأولياء والصالحين ولا سيما الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي، فكتبت الرد عليه، وكذلك كتب ذلك الرجل قصيدة بائية لينال من مقامه السامي.وسماها بالحجة الرافعة على رجال الفصوص الزائفة، فقرظت أيضاً قصيدة بائية على غرارها وأسميتها الحجة اليانعة على خيالات من ابتلى بأمراض الدامغة.

قد تكلم المولف في هذا الكتاب على مباحث عديدة، والمبحث الأول في مسألة السماع، وقد تكلم عليها بكل تفصيل، وأيد مذهب الإمام محمد بن محمد الغزالي فيها، والمبحث الثاني في مسألة قول أنا الحق الصادر من الشيخ حسين بن منصور الحلاج، والمبحث الثالث في شرح بعض أقوال الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي، التي قد تنازعت فيها آراء العلماء، وفي ذكر مناقبه.

توجد نسخة خطية لهذا الكتاب يرجع تاريخها إلى حياة المولف وهو عام ٨٢٢هـ، وهي موجودة في مكتبة بير محمد شاه أحمد آباد، غجرات، الهند، والكتاب يشتمل على مائتين وثلاثين صفحة، وله نسخة أخرى نقلت من نسخة مكتبة بير محمد شاه وهي موجودة في المكتبة المحمدية بالمسجد الجامع ممبائي.

المحاض النصيحة

هو كتاب آخر ألفه الشيخ المهائمي في الدفاع عن الشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي نقل منه الشيخ الصوفي عبد اللطيف الويلوري في كتابه "فصل الخطاب بين الخطأ والصواب" ونقل مقتطفات عديدة من ذلك الكتاب، توجد نسخة خطية له في مكتبة خدا بخش الشرقية بپتنا الهند، ولا توجد نسخة أخرى له في أي مكتبة أخرى، (نوادر مكتبة خدابخش، رتبه: سيد أحس شهير، ص:٢١٥).

مشرع الخصوص في شرح النصوص

إن الشيخ صدر الدين القونوي كان له دور كبير في نشر علوم الشيخ الأكبر، وله كتاب يسمى بـ"النصوص في تحقيق الطور المخصوص"، بحث فيه المؤلف عن المشاهدات والمقامات والتجليات والفناء والبقاء وغيرها من الموضوعات الغامضة، فشرح هذا الكتاب الشيخ المهائمي شرحاً يوضح مشكلاته ويحل مغلقاته، وأعنب الكلام على معانيه وموضوعاته ولذلك يعد ذلك الشرح عند المحققين من الكتب التي لا يوجد نظيرها، تم تأليفه في عام ٨٣٠(كلزار أبرار ص:١٤٢)

توجد نسخة خطية لها في المكتبة الآصفية تحت موضوع التصوف رقم ٥٥. وقد تزين الكتاب أول مرة في التاريخ بحلية الطباعة من دار الكتب العلمية، في عام ٢٠٠٨ الميلادي، وقام بتحقيقه الشيخ أحمد فريد المزيدي وقد سبق له الفضل في تحقيق كتاب الشيخ المهائمي خصوص النعم في شرح فصوص الحكم أيضاً، وهذه النسخة المطبوعة الجميلة المظهر تشتمل على مائتين واثنتين صفحة (ينظر: www.neelwfurat.com) .

تفسير المهائمي

هذا التفسير الموسوم بـ تبصير الرحمن وتيسير المنان في بعض مايشير إلى إعجاز القرآن، يعرف بتفسيرالمهائمي في الأوساط العلمية، تناول فيه المفسر المهائمي موضوع نظم القرآن بالبحث والتحقيق وارتباط السور والآيات بعضهاببعض، فأبدع وأحسن وأجاد اثنى هذا التفسير كبار العلماء من الهند وخارجها واعترفوبتبحرالشيخ المهائمي في العلوم الإسلامية.

قال الشيخ عبدالحق بن سيف الدين البخاري الدهلوي:

إن هذا التفسير الرحماني موصوف بصفة الإيجاز والتدقيق، ومن ميزات هذا التفسير أنه بالإضافة إلى تفسير القرآن بالقرآن والأحاديث والآثاروأقوال السلف الصالح قد فسره بعقله أيضا، وأتى باللطائف والإشارات العقلية، والنكات البديعة، واستدل بأقوال الحكماء، والمتكلمين، وعرف السور بإيجاز قبل أن يبدأ تفسيرها وشرح التسمية على منهج مبتكر بأنه ذكر معناه حسب المباحث والمعاني المذكورة في كل سورة، قدتم طبع هذا التفسير مرارا تكرارا من المطابع العديدة.

هذه كانت نبذة من حياة وأعمال الشيخ العارف بالله علي بن أحمد المهائمي نستطيع من خلالها أن نتعرف بحياته وأعماله ومشاربه في التصوف ومناهجه في التصنيف والتاليف، بالجملة كان الشيخ المهائمي من عباقرة الزمان وزين العصر، فرحمه الله رحمة واسعة على ماأسدى إلى التصوف من خدمات حائلة ومتعنا الله بفيوضه وإمداداته. *****

الشيخ السيد محمد الحسيني كيسودراز

بروفيسور مصطفى شريف[1]

ولد الشيخ محمد في دلهي سنة ٧٢١من الهجرة النبوية وكان جده الأعلى المخدوم أبوالحسن ابن السيد حسين(١) خرج من "هراة" ونزل بها واستوطنها وكنيته أبوالفتح وألقابه صدرالدين والولي الأكبر الصادق ولكنه معروف في الهند وغيرها بـ"كيسودراز" ولقب بذلك بأنه حمل مرة محفة شيخه الشيخ نصيرالدين المعروف بالسراج الدهلوي(چراغ دلي) مع الآخرين وكانت شعر رأسه كبيرة فعلقت في قائمتها ومع ذلك حملها وخرج إلى بعيد مع الأذى ولكن سكت في حب شيخه وما أخرجها من القائمة ولما أخبر بذلك الشيخ سركثيرا بمحبة مريده وأنشد هذا البيت:

هركه مريد سيدگيسودراز شد　　　والله خلاف نيست كه او عشق باز شد

(إن من بايع السيد كيسودراز والله قد أصبح أشد حبالله) فلقب بذلك واشتهر به.

سلسلة نسبه الشريف

هوأبوالفتح محمدبن يوسف بن علي بن محمد بن يوسف بن حسين بن محمد بن علي بن حمزه بن داؤد بن زيد بن أبي الحسن الجنيدي بن حسين ابن عبدالله بن محمد بن عمر بن يحي بن زيد المظلوم بن علي الأوسط زين العابدين بن الإمام حسين بن سيدنا علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهم وأرضاهم عنا .

أسرته الكريمة: أن جده الاعلى نزل بدلهى من"هراة" و ولد بها شيخنا كيسودرازسنة ٧٢١ من الهجرة وكان والده الكريم السيد يوسف الحسيني المعروف بسيد راجا من مريدي الخواجه نظام الدين أولياء، كما ذكره الخواجه بنده نواز في ملفوظاته جوامع الكلم:

پدرمن ياران خدمت　　　شيخ نظام الدين بود

(كان والدي من مريدي الشيخ نظام الدين.)

إقامته بدولت آباد في الدكن

لما بلغ أربع سنين من عمره سافرأبوه من دلهي إلى دولت آباد في عهد السلطان محمد تغلق، وكان حاكم دولت آباد ملك الأمراء السيد إبراهيم المستوفى خاله الشريف وكان بها ولي من أولياء الله المعروف

[1] مدير دائرة المعارف العثمانية، الجامعة العثمانية، حيدرآباد

بشيخ بابو يصحبه السيد راجا وكان الخواجه بنده نواز يختلف إليه مع أبيه فيترحم عليه ويحبه.

صباه

كان ـ رحمه الله ـ مولعا بالدين فكان يهتم بالوضوء والصلاة وكان الصبيان يحضرون عنده و كانوا يخدمونه ويعظمونه أشد تعظيما، وكان ـ رحمه الله ـ يعطيهم التبرك مثل المشايخ مع صغر سنه. ولمابلغ عشرسنين توفي والده في سنة ٧٣١ من الهجرة بدولت آباد ودفن هناك وقبره يزارويتبرك إلى هذه الأيام.

دراسته الابتدائية

حصل الشيخ دراسته الابتدائية من أب أمه وتلمذ على الأستاذ الآخر في دراسة المصباح والقدوري فكان ـ قدس الله سره ـ كثيرا مايسمع من أبيه وجده ذكر سلطان الأولياء المحبوب الإلهي الشيخ نظام الدين أولياء والخواجه نصيرالدين السراج الدهلوي، فنشأ في روعه حب المشائخ الجشتية حيث اشتاق اشتياقا كثيرا للقاء الشيخ السراج الدهلوي.

رجوعه إلى دلهي

لما توفى والده وقع شتى من المخاصمة بين أمه و بين خاله ملة الأمراء السيد إبراهيم المستوفي فحزنت أمه فتركت الإقامة في دولت آباد وسافرت مع الأولاد إلى دلهي سنة ٧٣٦من الهجرة إذ كان سيدنا الخواجه كيسودراز ـ رحمه الله ـ في خمس عشرة سنة من سنه.

إرادته مع شيخه

لما وصل الخواجه إلى دلهي حضرصلوة الجمعة في جامع السطان قطب الدين ونظر هناك إلى سيدنا السراج الدهلوي من بعيده، فتاثر تاثراعظيما لروية نورانية وجهه الشريف وحسنه، فحضر في خدمته مع أخيه الكبير السيدجندن وبايعه وذلك في ستة عشرمن رجب سنة ٧٣٦هجرية.

ولما بايع الخواجه شيخه بدأ يعمل وفق إرشاداته في العبادة والرياضة من الفرائض والنوافل كصلاة الإشراق، وصلاة شكر النهار وصلاة الاستخارة وصلاة الضحى وكذلك من صوم النوافل في رجب وشعبان والصيام الستة من شوال وكان الخواجه ـ قدس الله سره ـ يصوم صوم داؤد ولكن شيخه قال إن شيوخنا الكرام كانوا يصومون صوم الدوام فعليك أن تصومه. وكان الخواجه يقرأ كتب علوم الظاهر على مولانا السيدشرف الدين الكتهيلي و مولانا تاج الدين بهادر ومولانا القاضي عبدالمقتدر مع الاشتغال بتصفية الباطن.

مجاهداته

لما حصلت له بشاشة القلب في الأذكار والأوراد ترك البيت واختار إقامته في حجرة في حظيرة

شيرخان يراقب ليله وفي النهار يختلف إلى مولانا القاضي عبدالمقتدر للحصول على العلوم.
ولما نشأ في قلبه التكدر من علوم الظاهر قال لشيخه إنه يريد أن يترك تحصيل علوم الظاهر كي حصل له الفراغ الكامل في اشتغال الباطن ولكن شيخه ـ رضي الله عنه ـ لم يأذن له في ذلك بل أصر عليه أن يتم دراسة كتاب الهداية في الفقه والبزدوي في الأصول والرسالة الشمسية في المنطق والكشاف في التفسير و المصباح وغيرها من الكتب، وقال اجتبيناك لعمل جليل.(١)فواصل دراسته وفق إرشاد شيخه حتى حصل له الفراغ من العلوم اذكان ابن تسع عشرة سنة ثم تبتل إلى الله تبتيلا حيث يشتغل بالنوافل وصيام الدوام إلى أن قال شيخه رضي الله عنه إذا نظر إلى مجاهداته إن هذا الفتى النبيل أنشأ في مدة بعد سبعين سنة وذكرني وقائع السنن الماضية. وذهب مرة إلى حظيرة شير خان ورأى مارأى من أحوال مريده وقدم إليه نقودا في النذر فاشتهر امر الخواجه وقال صوفية زمانه إن هذا الشاب الفاضل مرتبة الأولياء الكاملين. ولما ازداد اشتياق المجاهدة ترك الناس وصار يجاهد في الغابات.

خدمة الشيخ

حضر الخواجه شيخه بعد أن جاهد في الغابات في العزلة والخمول فكان من معمولاته أن يوضئ شيخه ثم يتوضأ ويصلى صلاة الصبح مع الجماعة، وأثناء اشتغال الشيخ في الأوراد يعلم المسترشدين وإذا كان ينعقد مجلس الشيخ حضره، وبعد أداء صلاة الضحى يقبل ثم يتلو كتاب الله إلى أن حضر وقت صلاة الظهر فيؤضئ شيخه وبعد أداء صلاة الظهر مع الجماعة يشتغل بالأوراد والذكر أثناء اشتغال شيخه في المراقبة في الحجرة إلى أن احتفلت حفلة الشيخ فيحضرها ويصلي العصر مع الجماعة ثم يسبح ويهلل إلى صلاة المغرب وبعد أداء صلاة المغرب والأوابين يعلم السالكين ثم يتناول قليلا من الطعام وينام إلى نصف الليل ثم ينهض ويتوضأ ويوضئ الشيخ للتهجد واذا دخل الشيخ الحجرة للتهجد والمراقبة يتهجد ويراقب الله خارج الحجرة ويحضر الماء لوضؤ شيخه.

ترحم الشيخ على الخواجه

قد ذكرنا أن الخواجه يحب شيخه حباجما و يعظمه و يبجله و كذلك كان حال الشيخ مع مريده. ولما ابتلي الشيخ قبل سنة من وفاته بالباسور قال للدعاء له فدعا له الخواجه إلى أن حصلت الصحة الكاملة.
ولما بلغ الخواجه في السابع والثلاثين من عمره ابتلي بمرض الخلة حيث يتفل الدم من فيه فأرسل إليه الشيخ الدواء والطبيب والخدام ومع ذلك يرسل رجلا ليسأل عافيته ولمابرأ من المرض زاره وسرسرورا كثيرا و أعطاه قباءه، وقدذكر العلامة الساماني ـ رحمه الله ـ هذا اللقاء فقال:
رفع الشيخ جراغ الدهلوي قباء من بين يديه و أعطاه الخواجه ثم قال متمسكا يديه ياسيد محمد!

تقبل مني هذا ـ يعني خذ البيعة من الناس ـ ولما سمع هذا القول من شيخه خضع رأسه وسكت ثـم قال الشيخ مرة ثانية هل تقبلت هذا مني، فأجاب الخواجه تقبلت ثم سأل مرة ثالثة هل تقبلت منـي هذا فأجاب الشيخ تقبلت، ثم أوصاه بأمرين: الأول أن لاتترك الأوراد والأشغال، و الثاني: عليـك أن تراعي أولادي وأقربائي.

حصول خرقة الخلافة من شيخه

لما توفي الشيخ جراغ الدهلوي إلى رحمة الله غسله الخواجه كيسودراز وأخذ حبال السرير الذي غسل عليه وألقاها في عنقه وقال هذه خرقة الخلافة وقد أقام شيخه مقامه قبل وفاته كماذكـرأعلاه، فجعـل الناس يجيؤن إليه و يبايعونه فيرشدهم إلى سبيل الحق حسب تلقين شيخه .

سفره إلى الدكن

أقام الخواجه قدس الله سره في دلهي نحو أربع و أربعين سنة ثم خرج أثناء هجمات تيمـور إلى كلبركـه سنة ٨٠١ هـ وكانت مسيرته من دلهي إلى كلبركه بهذه الولايات كواليار، برمده، دولت آبـاد، وألنـد، وكان الناس يستقبلونه جماعة وأفواجا خاصتهم وعامتهم ويبايعونه أثناء سفره في كل بلد يمر عليه.

حفاوة الملك فيروز البهمني وترحيبه

لما تقرب الخواجه رحمه الله من بلدة كلبركه حضرـبين يديـه السـلطان مـع الأسرة الملكيـة والأمـراء والعلماء والسادات وعسكر الملك يرحب به وتعظيما وتوقيراً له ولكنه بعد مـدة تغـيرت حالتـه مـن المخدوم ثم عزل عن سريره.

السيد كيسودراز والملك أحمد شاه البهمني

كان السلطان أحمد شاه البهمني يحترم الخواجه قبل جلوسه على سريـر السـلطنة و بعـده ويحضرـه و يخدمه وقد بنى له زاوية ويخدم أيضا الدراويش الذين يقيمون في الزاوية الشيخ ثم بايعه ووقف قرى متعددة للنفقات ثم بنى قصرا فخما لاقامته متصلا ببلدة كلبركه .

وكان الخواجه كيسودراز متبعا شديدا للشريعة المحمدية وهذا أثرأثرا كبيرا في ملك أحمد شاه البهمني فتوجه إلى ترويج أحكام الشريعة وقوانينها حتى أصبح المجتمع في الدولة البهمنية مجتمعا دينيا.

ألقابه رحمه الله تعالى

كان الصوفية المعاصرون والعلماء يلقبونه بألقاب شتى مثل قطب الأقطـاب في العـالم ، قـامع الكفـر والبدعة ، مقصود الخلق في العالم ، معاون الحب الإلهي ، مفتاح مخازن الحضرة ذي الجـلال، محبـوب يوم ألست ، محبوب الحق ، قدوة أرباب الحال ، رأس ديوان أصحاب الكمال، قطـب فلـك السـيادة

والمعرفة ، مركز دائرة الحقيقة والطريقة وغيرها.

ثناء العلماء على الخواجه

مـن فضـائل الخواجـه ـ قـدس الله سره ـ أن السـيد أشرف جهـانكير السـمناني ـ رحمـه الله تعـالى ـ حضرعنده للاستفادة الروحانية مع أنـه كـان مـن الأوليـاء الكبـار في ذلـك العصرـ، يقـول السـيد السمناني: لما تشرفت به حصلت لي حقائق ومعارف لم يحصل لي ذلك عند المشايخ الآخرين، سبحان الله له جذبة ربانية قوية

وكتب الشيخ عبدالله المحدث الدهلوي في كتابه أخبار الأخبار:

"هو جامع بين السيادة والعلم والولاية ، وله مقال رفيع وشأن جليل ودرجة بالغة، وله ذوق خاص فيما بين مشايخ الطريقة وله منهج ممتاز في بيان أسرار الحقيقة."

ويقول صاحب الأصفياء :

"هو من الأولياء العظام ومن كبار المشايخ المتقـدمين والخليفـة الحـق الأفضـل للشـيخ نصـيرالدين محمود جراغ الدهلوي ."

وفي مرآة الأسرار:

"صار مقبولا في العالم واستفاض الأدنى والأقصى منه لحسن خلقـه وصـيت كمالاتـه مـلاء الشرـق والغرب ."

خلفاء الخواجه

(١)مولانا علاءالدين كواليري (٢)الشيخ صدرالدين خوندمير(٣)مولانا قاضي إسحاق محمـد (٤)مولانا قاضي محمد سليمان (٥)مولانا قاضي عليم الدين بن مشرف (٦)الشـيخ سـيد محمـد أكبر (ابنه الأكبر) (٧)الشيخ أبوالمعالي بن سيد أحمد (٨)مولانـا خواجـه أحمـد دبـير(٩)مولانـا أبوالفتح بن مولانا علاء الدين كواليري (١٠)الشيخ سيد يوسف (ابنه) (١١)الشيخ سيد يدالله (حفيد الخواجه) (١٢)مولاناقاضي راجه (١٣)مولاناشهاب الـدين (١٤)مولانـا بهـاء الـدين الدهلوي (١٥)مولانا عزالدين (١٦)مولاناملك شهاب الدين

وفاته

ملأ الخواجه من فيوضه شرقاوغربا في بلدة كلبركانحوسنتين وعشرين سنة، ولمابلغ اربعاً و مائة سنة من عمره لبى دعوة ربه وانتقل إلى حبيبه في ١٦ ذي القعدة سنة ٨٢٥ بين الإشراق والضـحى. قـال

خليفة الأجل الشيخ أبوالفتح على وفاته "هذه مصيبة عظمى" وتاريخ وفاته تتضمنه هذه العبارة "مخدوم دين ودنيا" ولعل الشاعر الحماسي قال في أمثال هذه السانحة الحزينة :

وماكان قيس هلكه هلك واحد
ولكنه بنيان قوم تهدما

مآثره العلمية

قد ذكرنامن قبل أن الخواجه السيد كيسودراز لما اشتغل بعلم الباطن أراد أن يترك العلوم الظاهرة ولكن شيخه قدس الله سره لم ياذن له إلى ذلك، لأنه وجد أن مريد صاحب الاستعداد للتصنيف والتاليف وهو ينشرفيوضه عن هذا الطريق، وكان هذا أمرا مقضيا، فإنه ترك لنا كتبا ورسالات في اللغة العربية والفارسية والدكنية صغيرها وكبيرها في فنون كثيرة، وقد ذكر صاحب السير المحمدية عدد تصانيفه وهي كما يلي :

١. الملتقط(العربى) هوتفسير القرآن في لسان الصوفية
٢. تفسير القرآن (العربى) وهوعلى منهج تفسيرالكشاف ولكن الشيخ صنف خمسة أجزاء فقط
٣. حواشي الكشاف هذه هوامش على تفسير الكشاف
٤. شرح المشارق شرح لمشارق الأنوارفي الحديث
٥. ترجمة المشارق هذه ترجمة مشارق الأنوار باللغةالفارسية
٦. المعارف (العربى) هذا شرح أنيق لعوارف المعارف للشيخ شهاب الدين السهرودي
٧. ترجمة العوارف هذا شرح العوارف باللغةالفارسية ولكنها مشهورةبترجمة العوارف
٨. شرح التعرف هذا شرح للتعرف للشيخ أبي بكر محمد بن إبراهيم البخاري
٩. شرح آداب المريدين، هذا شرح للكتاب الشهير "آداب المريدين" لأبي النجيب السهروردي.
١٠. شرح آداب المريدين (الفارسي)هذا شرح "آداب المريدين"
١١. شرح فصوص الحكم: هذا شرح فصوص الحكم للشيخ محي الدين بن عربي
١٢. شرح تمهيدات عين القضاة الهمداني:هذا شرح للتمهيدات في التصوف لعين القضاة.
١٣. ترجمة الرسالة القشيرية لأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري باللغة الفارسية.
١٤. حظائرالقدس: وهذا معروف بـ"عشق نامه"
١٥. رسالة استقامة الشريعة بطريقة الحقيقة: فيها مباحث عن الطريقة والشريعة والحقيقة
١٦. ترجمة الرسالة للشيخ محي الدين بن عربي

١٧. رسالة السيرة النبوية صلى الله عليه وسلم
١٨. شرح الفقه الأكبر في اللغة العربية والفارسية أيضاَ
١٩. حواشي قوت القلوب لأبي طالب المكي
٢٠. أسماء الأسرار:هو إحدى مصنفاته الشهيرة وبحث الشيخ فيها بحثاَ طويلاَ ومسائل دقيقة في التصوف والسلوك والمعارف وبحث الشيخ فيها أيضاَ عن الأذكار و الأشغال والمراقبة ومراتب السلوك والعشق والتوحيد والحقائق وغيرها. وهو مفيد للمبتدئ والمتوسط والمنتهي.
٢١. حدائق الأ نس: فيها ذكرت بعض أسرار المعرفة.
٢٢. ضرب الأمثال
٢٣. شرح قصيده ماني
٢٤. شرح عقيدة حافظية
٢٥. عقيدة جند ورق
٢٦. رسالة دربيان آداب السلوك
٢٧. رسالة در بيان إشارات محبان
٢٨. رسالة بيان ذكر
٢٩. رسالة بيان رأيت ربي في أحسن صورة
٣٠. رسالة در بيان معرفت
٣١. رسالة دربيان بود و هست و باشد(الفارسية)
٣٢. رسالة معراج العاشقين(في دكنية)

مكتوباته

ومجموعة مكتوباته التي رتبها خليفته الشيخ أبو الفتح علاءالدين مشتملة على أحد و ستين مكتوبا.

مخطوطاته

ذكر بعض المؤلفين أربع مجاميع تشتمل على مخطوطاته، وفي السيرالمحمدية ذكرالمصنف أن ابن الخواجه الشيخ سيد محمد أكبر رتب مجموعتين أحدهما في دلهي وآخرهما في أثناء رحلته إلى كجرات.

الديوان

كان للشيخ براعة في الشعرفي اللغة الأردية والفارسية، وللشيخ عدة قصائد الرباعيات. رتب هذه الأشعارحفيده سيد يدالله في ديوان.

تعريف مفصل بمعارف العوارف

إن"معارف العوارف" من تصانيف السيد محمد كيسودراز قدس الله سره، من أنفس شروح، وكان مخزونا في مكتبة تونك بولاية راجستان بالهند، وهذا من جميل مساعي السيد محمد محمد الحسينى الخلف الصالح لزاوية الخواجه كيسودراز ومشرف الأمور بها أنه سعى سعيا مشكورا في الحصول على نقله ثم على أخذ المخطوطة التي كانت مخزونة في مكتبة تونك.

ولأصل الكتاب ـ يعني"عوارف المعارف"ـ مكانة بالغة في فن التصوف على أن كثيرا من المشايخ القدماء دارسوا هذا الكتاب المنيف على تلاميذهم ومريديهم منهم الشيخ فريدالدين مسعود المعروف به كنج شكر الأجودهى والشيخ عبدالرحيم الدهلوي (والد الشيخ ولي الله الدهلوي) وأن هذا الكتاب جامع لفن التصوف بتمامه.

ونظن أن الشيخ المخدوم السيد محمد كيسو دراز انتخب هذا الكتاب الأنيف لشرح مسائله وحل غوامضه والكشف عن دقائقه، ولما راجعنا الكتاب رأينا أن هذا الكتاب شامل لفوائد لايحصى عددها.* *** *

معنى توحيد العبد للحق تعالى معرفة وحدانية الثابتة له تعالى وذلك بأن لم يحضره في شهوده غير الواحد جل جلاله وتوحيد الموحد لم يفد للحق تعالى صفة الوحدانية وإنما أفاد صفة الموحدية والحق سبحانه وتعالى وراء كل توحيد قائم بذاته موصوف بصفاته غني عن غيره فتوحيد العبد للحق سبحانه وتعالى معرفة تنزيهه وتعظيمه على موافقة الكتاب والسنة وذلك علمه بأن الله تعالى واحد في ذاته ولايشبهه شيء وواحد في صفاته وأفعاله لايشاركه فيها أحد وأنه تعالى ليس في مكان الخلق ولافي زمانهم فلايشبهه زماني ولامكاني فإنه تعالى أعظم وأكبر من أن تحيط به العلم والوهم والفهم قال الله تعالى:﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

(**الرسالة المكية**)

الشيخ المخدوم عبد الصمد شاه صفي
وجهود طريقته في الدعوة والإصلاح

أ.مقصود أحمد السعيدي[1]

إن الطريقة الصفوية هي فرع الطريقة الجشتية النظامية المينائية، وهي منتمية إلى مخدوم الأنام الشيخ العالم العارف عبدالصمد صفي ـ قدس الله سره ـ (ت:٩٤٥هـ)، ولها جهود بارزة في مجال الدعوة والإصلاح في الهند.

ولد الشيخ عبد الصمد المعروف بـ"مخدوم شاه صفي" بن علم الدين بن زين الإسلام بن أكرم بن علي رحمه الله بقرية " سائى فور" من مديرية اناؤ، قرب لكناؤ، واشتهرت هذه القرية باسم "صفي فور" نسبة إليه، قد أسس بناء الإسلام بهذه القرية الشيخ أكرم عثماني السهروردي (ت:١٤/ شعبان ٦٧٥هـ) الذي من أجداد الشيخ صفي.

نشأ نشأة علمية ودينية واشتغل بتحصيل العلم منذ صغره، فكانت دراسته الابتدائية بصفى فور، ثم خرج في طلب العلم والمعرفة والتحق بزاوية الشيخ العالم العارف المخدوم سعد بن بدهن الخيرآبادي (ت:٩٢٢هـ) وكانت هذه الزاوية مرجع العامة منهم والخاصة، منبع العلوم الظاهرة والباطنة، مجمع الشريعة والطريقة والحقيقة والمعرفة، من جاء إليها بالقلب القاسي فله دواء وعلاج، ومن جاء بالقلب الصافي فله نور و درجات، فارتاد مجلس الشيخ العلمي والمعنوي وقدحصل له نصيبه من الوراثة النبوية وتزكى وجوده من الآثام الظاهرة والباطنة كالكذب والغيبة والنميمة والكبر والرياء والحسد والسمعة وغيرها فإذا زكى نفسه من الإثم الظاهر والباطن أسبغ الله عليه نعمه ظاهرة وباطنة.

فتزين بعلوم الشريعة والطريقة والحقيقة والمعرفة، وشب على حرص تبليغ الدين والديانة والعلم والأمانة، ثم بايع الشيخ واتبعه كمال اتباع، وترك هواه ومرضاه والتمس رضاء الله تعالى ورسوله وأفنى وجوده لمرضاة الرب. فأعطاه الشيخ الإجازة والخلافة، وبعد أن نال القسط الوفير من فيوض شيخه وبركاته انصرف إلى الهداية والإرشاد، والدعوة والإصلاح، وعكف على تبليغ الدين وتزكية

[1] أستاذ الجامعة العارفية، سيد سراوان، الله آباد

الناس واشتغل بكل حرص ورغبة فى إخراج الناس وإنجاء هم من قعر الكفر والشرك إلى الإيمان والتوحيد، ومن المعاصي إلى الطاعة، ومن طلب الدنيا إلى طلب المولى سبحانه وتعالى، وكرس حياته لحماية الإسلام ونصرة عقيدة أهل السنة والجماعة، وهداية الناس إلى الصراط المستقيم، فكثير من الكفار والمشركين آمنوا على يده وكثيرمن الضالين صاروا هادين ومهتدين وكثيرمن طالبي الدنيا مالوا إلى طلب العقبى، وأنفق الشيخ نفسه وماله لإحياء كلمة الرب ولمرضاته وأعد جماعة من الصالحين المرشدين، ليجاهدوا فى سبيله ليلا ونهارا ويملؤوا الدنيا خيرا وصلاحا.

فأقام مقامه كثيرين متلبسين بهذه الصفات الحميدة.

ومن جملة خلفائه ابن اخته الشيخ العارف بندگی مبارك الجاجموي(ت:٩٥٦ه)، والسيد الشريف نظام الدين المعروف بـ مخدوم الهدية الخيرآبادي(ت:٩٩٣ه)، والشيخ العارف فضل الله الكجراتي، والشيخ العارف محمدحسين السنكدرآبادي وغيرهم قدس الله أسرارهم وقداستمر خاصة عمل الدعوة والإصلاح والتربية والتزكية، بواسطة هؤلاء الخلفاء الأربعة وفي مختلف أقطار الهند، وانتشرت الطريقة الصفوية بجهودهم التربوية والإصلاحية في العديد من بلادها.

ومن جملة أعلام الدعوة والإصلاح الذين استفاضوا عن الطريقة الصفوية في السنوات التالية، السيد الشريف مير عبد الواحد البلجرامي مؤلف "سبع سنابل" في التصوف باللغة الفارسية، وكان قد بايع على يدي مخدوم الأنام الشيخ عبد الصمد الشهير بالشاه صفي، ونال الإجازة والخلافة من خليفته الشيخ محمد حسين السنكدرآبادي وقدوصلت إجازات الطريقة الصفوية عن طريقه كابراعن كابر إلى الأسرة البركاتية بـ"مارهرة" الشهيرة في مجال الدعوة و الإرشاد وميدان التزكية والإحسان منذ قرون حتى الآن، وبواسطة هذه الأسرة الشريفة وصلت الطريقة الصفوية إلى الأسرة القادرية ببدايون، وإلى الأسرة الرضوية ببريلي، ونبغ من جميع هذه العائلات الصوفية رجال قاموا بأعمال مجيدة في ميدان الدعوة والإصلاح ومن أشهر رجالها الشيخ غلام علي بن نوح الشهير بـ"آزاد البلجرامي"، والشيخ العارف بركة الله المارهروي، والشيخ العلامة فضل رسول البدايوني، والشيخ العلامة عبدالقادر البدايوني والشيخ الإمام أحمدرضا القادري البريلوي(١٣٤٠هـ).

ومنهم السيد الشريف الصوفي الشهير"عبدالرحمن البنجابي" اللكنوي، نال الإجازة والخلافة من الشاه پير بخش الصفي فوري خليفة الشيخ العارف قدرة الله غوث الدهر، وله من مؤلفاته "كلمة الحق" في التصوف ومعارفه، و"أنوار الرحمن بتنويرالجنان".

ومنهم الشيخ العارف الكامل خادم صفي المحمدي قدس الله سره، وهومن سلالة سيدنا أميرالمومنين عمربن الخطاب رضي الله عنه وكانت أمارات الولاية والسعادة الأبدية ظاهرة على جبينه منذ صباه فنشا نشأة صالحةوبايع علي يدي الشيخ العارف حفيظ الله قدس الله سره (ت:١٢٨١هـ)، وفاز بالخلافة والإجازة منه. وكان ملتزما بآداب الشريعة، متحليا بمعارف الطريقة، معمورا قلبه بالجذبات الربانية والفيوض الإلهية، قضى جميع حياته في الدعوة والإرشاد، وكان آية في هداية الضالين و تربية المريدين، وإيصالهم إلى مراقي الفلاح ومعارج الكمال، ودعوة الكفار والمشركين إلى كلمة الإسلام، تاب على يده آلاف من الناس ونجح فى إعداد كوكبة من رجال الدعوة وقادة الإصلاح الذين ساهموا مساهمة نشيطة فى تبليغ الرسالة الإسلامية، منهم الشيخ العارف عزيزالله شاه الصفي فوري، والشيخ العارف عين الله شاه الصفي فوري، والشيخ العارف عبدالغفور المحمدى الشهيرفي الهند بصاحب سرقل هوالله(١٣٢٤هـ)، استفاد منه خلق كثير واستضاء منه جمع كبرمن الضالين الغافلين وأبلغ ثلة من الصالحين إلى المقامات العالية ومنحهم خرقة الإجازة والخلافة ومنهم الشيخ الكامل الواصل عارف صفي المحمدي قدس الله سره (ت:١٣٢٠هـ)الذي أسس الزاوية العارفية بقرية سيد سراوان في محافظة الله آباد، أترابراديش، وتصدى للدعوة والإرشاد، فأخذ عنه عدد كبير من الناس دروس الإحسان والتصوف،وأعطى الإجازة والخلافة جماعة من عباد الله العاملين ومنهم نجله الأكبر الشيخ العارف صفي الله شاه المحمدي (ت:١٣٧٤هـ)، ومنه وصلت الإجازة والخلافة إلى الشيخ العارف أحمد صفي المحمدي (ت:١٤٠٠هـ) ومنه وصلت إلى الداعية الإسلامي والعارف الرباني الشيخ أبوسعيد إحسان الله المحمدى الصفوى حفظه الله ورعاه.ـــ وإنه وبلاريب ـــ آية من آيات الله الكبرى في هذا العصر، في دعوة الكفار والمشركين وإصلاح الضالين والفاسقين، وخاصة في إحياء التصوف الحقيقي الذي يبنى على أساس الحب والخوف والذكر والفكر، وحسن الخلق وجمال السيرة.

وملخص القول إن الطريقة الجشتية الصفوية قد قامت بجهود جبارة ومساعي مشكورة في ميدان الدعوة والإصلاح، وتربية النفوس وتزكية القلوب، وهداية الناس إلى خالقه لايعرف عددهم إلا الله، وذلك كله بواسطة رجالها وأبناءها وخلفاءها الذين يربو عددهم على الآلاف. وقدتشعبت من هذه الطريقة أشجار وأعصان تأصلت فأثمرت وأينعت وآتت أكلها ضعفين، أفاض الله علينا من بركاتهم، ووفقنا إلى الاقتفاء بسننهم وآثارهم.

*****

الشيخ عبدالوهاب الشعراني

الشيخ محمد خالد ثابت(١)

هو القطب الكبير عبد الوهاب بن أحمد الشعراني أو الشعراوي. ترجم له –في طبقاته–تلميذه الإمام المناوي فاستهل قائلا: "شيخنا الإمام العامل، والهمام الكامل، إنسان عين ذوي الفضائل، وعين إنسان الواصلين من ذوي الوسائل. العابد الزاهد، الفقيه المحدث، الصوفي المُربي المُسلِّك".

وقد اشتهر بالشعراني أو الشعراوي نسبة إلى موطن أسرته بساقية أبي شعرة بالمنوفية، حيث انتقل جدّه إليها من صعيد مصر، وكانت له بها زاوية.

أفرد الأستاذ طه عبد الباقي سرور سيرته وآثاره بمؤلف قيّم عنوانه "التصوف الإسلامي والإمام عبد الوهاب الشعراني"، ذكر فيه أن الشعراني ينتسب إلى الدوحة العلوية الهاشمية، فجدّه الأعلى هو محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب، ونقل عن الشعراني قوله: "كان جدي السابع هو السلطان أحمد سلطانا بمدينة تلمسان في عصر الشيخ أبي مدين المغربي، ولما اجتمع به جدي موسى قال له الشيخ أبو مدين: لمن تنتسب؟ قال: والدي السلطان أحمد. فقال له: إنما عنيت نسبك من جهة الشرف. فقال: أنتسب إلى السيد محمد بن الحنفية. فقال له: مُلك وشرف وفقر –أي تصوف– لا يجتمعن. فقال: يا سيدي قد خلعت ما عدا الفقر. فربّاه، فلما كمل في الطريق أمره بالسفر إلى صعيد مصر، وقال له اسكن بناحية "هو" (إحدى مدن محافظة قنا) فإن بها قبرك. فكان كما قال".

وُلد الشعراني في "قلقشندة" (مركز طوخ بمحافظة القليوبية) في السابع والعشرين من رمضان سنة ٨٩٨هـ، ثم انتقلت به أمه بعد ولادته بأربعين يوما إلى قرية والده "ساقية أبي شعرة".

ثم توفي والداه، وتركاه يتيما ليس له إلا الله.

قال سرور: "لكن هذا الطفل اليتيم الفقير كان عجبا، كان عابدا متبتلا مستغرقا في صلواته وأذكاره"..وظهرت عليه منذ الطفولة علامات النبوغ، فحفظ القرآن الكريم، وحفظ كثيرا من

(١) كاتبا مصريا ومؤلف إنصاف الإمام و أقطاب الأمة في القرن العشرين وغير ذلك من الكتب

المتون التي لم تتيسر لأحد قبله.. قال المناوي: "فحفظ القرآن، وأبا شجاع (في الفقه الشافعي) والأجرومية وهو ابن سبع أو ثمان، ثم انتقل من الريف إلى مصر في غرّة سنة إحدى عشرة وتسعمائة، وعُمره نحو اثنتى عشرة سنة، فقطن بجامع الغمري، وجدّ واجتهد، فحفظ عدة متون، منها منهاج النووي، والألفيتين (ألفية العراقي وألفية ابن مالك)، والتوضيح والتلخيص، والشاطبية، وقواعد ابن هشام، بل حفظ الرّوض إلى القضاء على الغائب، وذلك من كراماته، فقد وقفت على ما لا يكاد يُحصى من الطبقات والتواريخ، فلم أر في ترجمة أحد من الأعيان أنه حفظه، ولا بعضه. وعرض محفوظاته على مشايخ عصره".

"ثم شرع في القراءة، فأخذ عن الشيخ أمين الدين، إمام جامع الغمري، شرحَى المنهاج وجمع الجوامع للمَحلّي، وحاشية لابن أبي شريف، وشرح ألفية العراقي للسخاوي، وألفية ابن مالك لابن عقيل، وسمع عليه الكتب السِّتة وغيرها. وقرأ على الشمس الدواخلي شرح الإرشاد، والرَّوض، وشرح الألفية لابن المصنِّف، وشرح التوضيح والمطوَّل، وشرح جمع الجوامع وحاشيته، وشرح المعلقات السبع، وشرح المقاصد، وغيرها، وشرح ألفية العراقي للمؤلف، وعلى النور المحلي شرح جمع الجوامع وحاشيته، وعلى النور الجارحي شرح ألفية العراقي، والشاطبية، وعلى مُلا علي العجمي عدة كتب نحوية، وعلى القسطلاني غالب شرحه للبخاري، وقطعة من المواهب، وعلى الأشموني قطعة من المنهاج، والألفية، وجمع الجوامع، وعلى شيخ الإسلام زكريا الأنصاري شرح رسالة القُشيري، والروض، والتحرير، وآداب البحث، وغيرها، ثم على الشهاب الرّملي ثلاثة أرباع الرّوضة".

منذ يومه الأول بالقاهرة اتصل بصفوة علمائها مثل جلال الدين السيوطي، وزكريا الأنصاري، وناصر الدين اللقاني، والرملي، والسمنودي وغيرهم ممن حفلت كتبه بذكرهم.

***

على الرغم من تفوقه في التحصيل، وتربّعه على قمة العلم، إلا أن نفسه كانت تحن إلى خالقها ومولاها، فطلب الطريق، وطلبه بإخلاص يشبه إخلاص الإمام أبي حامد الغزالي عندما ترك الدنيا، وهو تاج العلماء في عصره، وخرج سائحا طالبا ربه.

وصف المناوي مجاهداته الأولى، فقال:

"أقبل على الاشتغال بالطريق، فجاهد نفسه مدّة، وقطع العلائق الدنيوية، ومكث سنين لا يضطجع على الأرض ليلا ولا نهارا، بل اتخذ له حبلا في سقف خلوته، فيجعله في عنقه ليلا حتى لا يسقط.

وكان يطوي الأيام المتوالية، ويديم الصوم، ويقتصر على الفطر بأوقية من الخبز. ويجمع الخِرق من الكيمان فيتخذها مرقّعة يستتر بها، وكانت عمامته من شراميط الكيمان، وقصاصة الجلود. واستمر على ذلك حتى قويت روحانيته، فصار يطير من صحن جامع الغمري إلي سطحه. وكان يفتتح مجلس الذكر عقب العشاء، فلا يختمه إلا عند الفجر".

***

واتصل بعدد كبير من مشايخ الطريق وأخذ عنهم واستفاد منهم، منهم الشيخ محمد بن عنان، والشيخ محمد المغربي الشاذلي، والشيخ نور الدين الشوني، والشيخ أبو العباس الغمري، والشيخ دمرداش المحمدي، والشيخ عبد القادر الدشطوطي، والشيخ شمس الدين الديروطي، وغيرهم.. ولكن إشراق شمسه كان على يد الشيخ علي الخواص.

وصف كيف كانت تربية الخواص له؛ كيف أخرجه بالكلية من علومه وكُتبه، وتدرج به في مدارج الترقي حتى أصبح يتلقى علومه كلها عن الله مباشرة، وها هو ذا يقول:

"وكانت مجاهداتي على يدي سيدي علي الخواص، كثيرة متنوعة، منها أنه أمرني أول اجتماعي عليه ببيع جميع كتبي والتصدق بثمنها على الفقراء، ففعلت، وكانت كتبًا نفيسة مما يساوي عادة ثمنا كثيرًا، فبعتها وتصدقت بثمنها. فصار عندى التفات إليها لكثرة تعبي فيها وكتابة الحواشي والتعليقات عليها. حتى صرت كأنني سلبت العلم".

"فقال لي اعمل على قطع التفاتك إليها بكثرة ذكر الله عز وجل، فإنهم قالوا: ملتفت لا يصل. فعملت على قطع الالتفات إليها مدة حتى خلصت بحمد الله من ذلك".

"ثم أمرني بالعزلة عن الناس مدة حتى صفا وقتي، وكنت أهرب من الناس وأرى نفسي خيرًا منهم. فقال لي: اعمل على قطع أنك خير منهم. فجاهدت نفسي حتى صرت أرى أرذلهم خيرًا مني".

"ثم أمرني بالاختلاط بهم والصبر على أذاهم وعدم مقابلتهم بالمثل، فعملت على ذلك حتى قطعته، فرأيت نفسي حينئذ أنني صرت أفضل مقاما منهم، فقال لي اعمل على قطع ذلك أيضا. فعملت حتى قطعته".

"ثم أمرني بالاشتغال بذكر الله سرًا وعلانية والانقطاع بالكلية إليه. وكل خاطر خطر لي مما سوى الله عز وجل صرفته عن خاطري فورًا. فمكثت على ذلك عدة أشهر".

"ثم أمرني بترك أكل الشهوات مطلقًا، فتركتها واكتفيت بما يسد الرمق ويمسك الحياة حتى صرت

أكاد أصعد بالهمة في الهواء. وصارت العلوم النقلية تزاحم العلوم الوهبية. ثم أمرني بالتوجه إلى الله تبارك وتعالى في أن يطلعني على أدلتها الشرعية. فلما اطلعت عليها وصار لـوح قلبـي ممسـوحا مـن العلوم النقلية لاندراجها تحت الأدلة، ترادفت على حينئذ العلوم الوهبية".

ثم يتحدث الشعراني حديثا طويلا عن ترقبه للواردات والإلهامـات والفـتح. وكيـف أمـره شـيخه الخواص بضروب من المجاهدات لصفاء قلبه واستكمال قطع علائقه الدنيوية. وأخيرًا أخبره شيخه بأن بداية فتحه ستكون على شاطيء النيل في مكان حدده له. فإذا انتـهى الشعراني من ذلك، قال :

"فبينما أنا واقف على ساحل النيل عند بيوت البرابرة وسواقي القلعة أنتظر وأترقب، إذا بأبواب من العلوم اللدنية انفتحت لقلبي؛ كل باب أوسع مما بين السماء والأرض، فصرـت أتكلـم عـلى معـاني القرآن والحديث. واستنبط منها الأحكام وقواعد النحو والأصول وغير ذلـك مـن العلـوم. حتـى استغنيت عن النظر في كتب المؤلفين. فكتبت على ذلك نحو مائة كراسة"..

"فلما عرضتها على سيدي علي الخواص أمرني بغسله. وقال هذا علم مخلوط بفكر وكسـب، وعلـوم الوهب منـزهة عن مثل ذلك، فغسلتها".

"وأمرني بالعمل على تصفية القلب من شوائب الفكر، وقال بينك وبين علم الوهب الخالص ألـف مقام، فصرت أعرض عليه كل شيء فتح به على وهو يقول أعرض عن هذا، واطلب ما فوقه، إلى أن كان ما كان"...

"فهذه صورة فتحي بـهذه المجاهدة، على يدي شيخي فالحمد لله رب العالمين".

***

وهكذا جاءت مؤلفاته الغزيرة؛ آية من آيات الله، وقد ظل يقول إن مدخل العلوم الإلهية في القلـب ذهاب جميع العلوم النقلية عنه، فإذا صار القلب فارغـا مـن كافـة النصـوص الكونيـة تهيّـأ لنـزول الواردات والعلوم الوهبية، لأنها لا تنزل إلا في الأوعية الفارغة المهيّأة لقبولها.

من كتبه

- **لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمديـة**- وصـفه في المقدمـة بقولـه: "هـذا كتـاب نفـيس لم يسبقني أحد إلى وضع مثاله، ولا أظن أحدا نسج على منواله، فضمّنته جميـع العهـود التـي بلغتنـا عـن رسول الله صلى الله عليه وسلم من فعل المأمورات وترك المنهيات". ثـم قـال: وكـان الباعـث لي عـلى

تأليفه ما رأيته من كثرة تفتيش الإخوان على ما نقص من دنياهم، ولم أر أحدا منهم يُفتش على ما نقص من أمور دينه إلا قليلا، فأخذتني الغيرة الإيمانية عليهم وعلى دينهم، فوضعت لهم هـذا الكتـاب المنبّـه لكل إنسان على ما نقص من أموردينه، فمن أراد من الإخوان أن يعرف ما ذهب مـن دينـه فلينظـر في كل عهد ذكرته له في هذا الكتاب، ويتأمل في نفسه، يعرف يقينا ما أخلّ به من أحكام دينه"..

- **لواقح الأنوار في طبقات الأخيار- (الطبقات الكبرى)**- ويشتمل على تراجم لمجموعة كبيرة من الأولياء من عهد الصحابة إلى زمن المؤلف، لذلك حفل الكتاب بعدد من مشايخه والأوليـاء الـذين التقى بهم. وله أيضا الطبقات الصغرى والطبقات الوسطى.

- **درر الغواص على فتاوى سيدي علي الخواص**- قال عنه: "هذه نبذة صـالحة مـن فتـاوى شـيخنا وقدوتنا ولي الله تعالى الكامل الراسخ الأمي المحمدي سيدي عـلي الخـواص أعـاد الله علينـا وعـلى المسلمين من بركاته وبركات علومه في الدنيا والآخرة التي سـألته عنهـا مـدة صـحبتي لـه.. وإن لم أستطع استحضار جميع ما سمعته منها من العلوم والمعارف لكثرة نسياني وضعف جناني".

- **الميزان الكبرى، في الفقه الإسلامي ومذاهب أصول الفقه**- وهـو مـدخل لجميـع أقـوال الأئمـة المجتهدين ومقلديهم من أجل نبذ التعصب المذهبي الذي كان منتشراً في وقته، وهـو كتـاب نفـيس اعتمد فيه الشعراني على التوفيق بين منهج أهل الفقه ومنهج أهل التربية.

- **المقدمة النحوية في علم العربية.**

- **الدرر المنثورة في بيان زبد العلوم المشهورة**- وهو موسـوعة في علـوم القـرآن، والفقـه وأصـوله، والدين، والنحو، والبلاغة، والتصوف.

- **كشف الغمة عن جميع الأمة**- فى الفقه على المذاهب الأربعة.

- **اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر**- وصفه الشيخ بقوله: "حاولت فيه المطابقة بين عقائـد أهـل الكشف وعقائد أهل الفكر، حسب طاقتي، وذلك لأن المدار في العقائد على هاتين الطائفتين.. وهذا أمر لم أر أحدا سبقني إليه". وقد شيد كتابه على كلام الشيخ الأكبر محيي الدين بـن عـربي مـن "الفتوحـات المكية" وغيرها. وأثناء ذلك يرد على من يتهمون الشيخ الأكبر في عقيدته ويفترون عليه الأكاذيب.

- **الميزان الخضرية المدخلة لجميع أقوال المتكلمين في العقائد الشرعية**- ذكر فيه أنـه اجتمـع بالخضرـ عليه السلام بسطح الجامع الغمري، وتباحث معه مليا، ورتـب الأسـئلة والأجوبـة عـلى مباحثـه،

ولذلك نعت الكتاب به.
- **الجوهر المصون في علوم كتاب الله المكنون**- ذكر فيه أنه جمع فيه ثلاثة آلاف علم، يسرد أنواع العلوم المستفادة من كل سورة من سور القرآن الكريم.
- **الأخلاق المتبولية المفاضة من الحضرة المحمدية**- قال في وصفه: "هذا كتاب نفيس. عظيم القدر، جمعت فيه جملة من أخلاق سيدنا ومولانا الشيخ العارف بالله تعالى، شيخ مشايخنا الشيخ إبراهيم المتبولي المحمدي. التي أخذها مشايخنا عنه، وذكروا أنه أخذها من حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم يقظة ومشافهة بالشروط المعروفة بين القوم كما سيأتي بيانه في الكتاب إن شاء الله تعالى، وهي أخلاق شريفة لا يكاد الإنسان يجدها عند غالب فقراء هذا الزمان. فأحببت تقييدها في هذه الطروس رجاء النفع بها خوفا أن تذهب بذهاب أهلها".
- **كشف الران عن وجه أسئلة الجان**- ذكر فيه أن الجان أرسلوا إليه شخصا منهم يسألون منه الجواب عن نيّف وسبعين سؤالا في التوحيد، وقالوا قد عجز علماء الجن عن الجواب عنها.
- **لطائف المنن والأخلاق في وجوب التحدث بنعمة الله على الاطلاق- (المنن الكبرى)**- يذكر فيه منن الله عليه، قال: "ومما أنعم الله به عليّ أنني حفظت القرآن وسني سبع سنين. ومما أنعم الله به عليّ كشف حجابي في أوائل دخولي في طريق القوم حتى سمعت تسبيح الجمادات والحيوانات، وذلك أني كنت أصلي المغرب خلف الشيخ أمين الدين بن النجار إمام جامع الغمري بالقاهرة، فانكشف الحجاب عن قلبي من صلاة المغرب إلى طلوع الشمس، فصرت أسمع كلام أهل مصر ثم اتّسع الأمر إلى قرى مصر ثم سائر الجوانب إلى البحار المحيطة، وسمعت تسبيح سمك البحر المحيط الذي ما بعده بحر وهو يقول: سبحان الملك الخلاّق، رب الجمادات والحيوانات والنبات والأرزاق، سبحان من لا ينسى أحدا من خلقه، ولا يقطع برّه عمّن عصاه.. وذلك في سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة (٩٢٣هـ) ثم أن الله رحمني وأسدل علي الحجاب، ولولا ذلك لذهل عقلي".
وكل كتبه - رضي الله عنه- نفيسة، لم يكتبها ليمدحه الناس، ولا لينال بها حظا من حظوظ الدنيا. هي من وهب الله العليم الخبير. قال صاحب "الخطط التوفيقية": إن له أكثر من سبعين كتابا. وقد زاد بعضهم عددها إلى حوالي مائة كتاب.

*****

الشيخ القاضي إرتضا علي خان الصفوي
حياته وآثاره العلمية

مجيب الرحمن العليمي[1]

قبل أن نتحدث عن الشيخ القاضي أبوعلي محمد إرتضاعلي خان الجوفاموي(م: ١١٩٨هـ-١٢٧٠هـ/ ت:١٧٨٤م- ١٨٥٤م)حياته وأعماله لابد أن نعرف أسرته العلمية.

أسرة الشيخ الجوفاموي

انفردت هذه الأسرة بآحاد الرجال وأعيان الكمال من بين أهل الجوفامو، جوفامو هي إحدى محافظات ولاية أترا براديش، قرب لكنؤ، الهند.

وهذا البيت العلمي الذي ضم الكثيرمن العلماء والأفاضل منذ عرف،قد أشع نوره على أهل الجوفامو وكان علمائه غواص الأفكار وكانوا ملتقى العلماء من الشرق و الغرب ولذلك اشتهرت في ذلك الزمان ببيت العلم.

الشيخ إرتضاعلي خان الجوفاموي سلالة هذا البيت ولم يدع هذا العالم فضيلة إلاودت أن تتقرب إليه ولارتبة إلاتمنت أن تتشرف بتقبيل يديه. حاز من الأخلاق ما هو ألطف و أزكى من نفح العبيروعرف الزهد فكانما جبلت طينته من الفضائل وتجسم من لطف الصبي الشمائل إذا جلس مجلس التحقيق أظهركل عويص وعميق بأفصح لسان.

وكان ذا علم كامل، وفضله لايرفض وعقله أخذ ظواهرالعلوم عن أربابها وتمسك من البواطن بأنسابها فبلغ في كل الغاية وأخذ من حده النهاية بفيض رباني ووهب صمداني لم يزل فردا في الزمان، منزها عن أن يشاركه في كمال صفاته ثان.

ولد فيه الشيخ إرتضاعلي خان الجوفاموي وتربى في مولده.

مولد الشيخ الجوفاموي ونسبه

ولد الشيخ إرتضا علي خان في عام ١١٩٨هـ/ ١٧٨٤م كما ذكره الشيخ أبومظفرعبد الملك القاضي

[1] الباحث بقسم اللغة العربية بجامعة الله أباد ، يوبي، الهند

محمدشريف الدين إبن القاضي محمد بديع الدين العمري القادري الجشتي الحيدرآبادي.والشيخ المسند عبدالحي الكتاني في فهرس الفهارس والأثبات.

وينتمي نسبه إلى سيدنا ناصر بن عبدالله ابن أميرالمومنين عمر بن الخطاب رضي الله عنهم بتسعة وعشرين واسطة وكان سيدنا ناصرابن بنت سيدنا الإمام حسن المجتبى بن علي بن أبي طالب الهاشمي أبي محمد المدني سبط رسول الله وريحانته كما يستفاد من "نتائج الأفكار" و "تصريح الأنساب" وكان والد الشيخ عالما، عاملا، فاضلا، ماهرا، حافظا للقرآن، قاضي القضاة بمملكة المدراس، الشيخ القاضي أحمد مجتبى المدعو بمصطفى علي خان بهادر المتلقب بالاسم الشعري "خوش دل" (ت:١٢٣٤هـ / ١٨١٨م) كان من أبناء بنت القاضي محمد مبارك العمري(ت:١٢٣٢هـ/ ١٨١٧م)مؤلف شرح "سلم العلوم" المسمى بـ"قاضي مبارك" حتى توفي سنة أربع وثلثين ومأتين بعد الألف.

نشأة الشيخ الجوفاموي ودراسته وشيوخه

الشيخ الجوفاموي نشأ في بيت علم منذعرفت الأسرة، فنشأ نشأة علمية صالحة، ولما بلغ الشيخ الرشد صار يحسن القرأة والكتابة فعني أبوه بتعليم الكتب والعلوم الدينية المتداولة في ذلك العصر، درس العربية والفارسية والفقه في بدأ أمره من أبيه، ثم قدم لكناؤ واشتغل بقرأة العلم على كثير من العلماء ولم يزل يتلقى العلم حتى برع فيه ثم رحل إلى سنديلا وقرأ على علامة العصر المولوي حيدرعلي بن حمد الله السنديلوي (م:١٢٢٥هـ/ ١٨١٠م) الفقه والعقائد ثم تلقى من المولوي محمدإبراهيم البلياوي البلجرامي التفسير، و الأصول، و المعاني، والمنقول، وبعد ذلك حصل على الشيخ العلامة محمد فضل إمام العمري الخيرآبادي(م:١٢٤٣هـ/ ١٨١٠م) جميع العلوم والفنون الدينية فأتقنها وبرز فيها على أقرانه حتى صار من الأعيان المشار إليهم بالبنان في زمن أستاذه وكان أستاذه يمدحه ولم يزل ملازما له، وقيل قرأ شيئا من علم التصوف على ملك العلماء الشيخ عبدالعلي الملقب ببحرالعلوم (م: ١٢٢٥هـ/ ١٨١٠م)صاحب فواتح الرحموت وأرخ وفاة شيخه العلام بحرالعلوم عبد العلي اللكنوي وقال :

شيخنا وأستاذنا عبد العلي	صار مرتحلا إلى دار الجنان
اهتدى عقلي إلى تاريخه	مثله بالله لايأتي الزمان (١٢٢٥هـ)

ثم طلب الإجازة عن العلامة الكبير الأستاذ الشهير، المحدث، الحافظ والفقيه المتبحر، شيخ المشايخ

محمدعابـد بـن أحمـد عـلي بـن محمـد يعقـوب الحـافظ بـن محمـود الأنصـاري الخزرجـي السـندي المدني(١٢٥٧هـ/ ١٨٤١م) فكتب وأرسل إليه الإجازة من بلد الله الأمين ومدحه وأعطى له إجـازة عامة بجميع مروياته ومسموعاته ومقروءاته بها أجازه المشايخ الثقاة، وطلـب الإجـازة مـن الشـيخ المحدث عمربن عبد الكريم بن عبد الرسول المكي(م:١٢٤٩هـ)وكتب إليه رسالة.

بيعته وإجازته

بايع الشيخ الجوفاموي على يد الشيخ السيد نصيرالدين السعدي البلجرامي بن الشيخ غلام پـير بـن السيد يٰسٓ القادري الصفوي وحصل على الخلافة والإجازة في جميع الطرق التي وصلت إجازاتها إلى شيخه كابرا عن كابر من الچشتية والقادرية والسهروردية و النقشبندية.

تنتمي هذه السلسلة الروحية الصوفية إلى شيخ الإسلام مخدوم الأنام الشـيخ عبدالصـمد المعـروف بـ"شاه صفى" قدس الله سره المتوفي١٩/ من محرالحرام ٩٤٥ هـ/ ١٧/ من الحزيـران ١٥٣٨م شـيخ الصوفي الشهير ميرعبدالواحد البلجرامي(م: ٩١٢هـ أو ٩١٥هـ) مؤلف "سبع سنابل" في التصـوف وخليفة الشيخ الصوفي الزاهد النحوي سعد بن بدهن الخيرآبـادي(م:٩٢٢هــ/ ١٥١٦م) صـاحب مجمع السلوك شرح الرسالة المكية في التصوف للشيخ قطب الدين الدمشقي قدس الله أسرارهم.

على كرسي القضاءوالإفتاء

لمانزل في المدراس في سنة ١٢٢٥هـ/ ١٨١٠م وصار مفتيا في حدود كرناتك على وظيفة ٣٥٠ روبية بعملة المدراس بأمر نواب عظيم الدولة بهادر في سنة ١٢٣٠هـ/ ١٨١٥م ثم استقال عن الخدمة في عام ١٢٣٥هـ/ ١٨٢٠م ثم تقلد القضاء في المدراس في بلدة جمنور في الرابع من جمادى الأولى سنة ١٢٤٠/ ٢٥ من الكانون الأول ١٨٢٤م على الوظيفة المذكورة ثم في سنة١٢٤٤هـ/ ١٨٢٨م فوض إليه نواب الهند منصب قاضي القضاة بمدراس على وظيفة سبع مأة روبية، وانتهت إليه رياسة العلم بها، وكان يفتخر أن يتلمذ عليه من كانوا من أهل العلم بها وكان معدن علوم المعقول والمنقول عالما بالحديث والتفسير والأصول و قاضي قضاة أهل السنة والجماعة في مملكة مدراس ممتازا بين الأقران والأماثل والفحول، كشافا للحقائق والدقائق، من الفروع والأصول، وحيد الدهر، فريد العصر، مشهورا في الآفاق، مرجع الكل بالاتفاق فما كان من عصره نده ولا في زمانه ضده.

آثاره العلمية

له مولفات وحواشي، وشروح وتعليقات كثيرة منها:

١. شرح الزاهدية على الرسالة القطبية (في علم المنطق، باللغة العربية)
٢. مقدمة ميرزاهد شرح موافق(في علم المنطق، باللغة العربية)
٣. حاشية على التهذيب (في علم المنطق، باللغة العربية)
٤. فرائض إرتضية (في الفرائض، باللغة الفارسية)
٥. شرح قصيدة البردة المسمى بـ"مراصد ارتضية في كواكب المضية" (في الأدب، باللغة الفارسية)
٦. شرح أسماء الله الحسنى المسمى بـ"منحة السراء في الدعاء بكاشف الضراء" (في التصوف، باللغة العربية)
٧. تصريح المنطق(في علم المنطق، باللغة العربية)
٨. الفوائد السعدية (في التصوف، باللغة الفارسية)
٩. مجمع الأعمال (في الأوراد والوظائف، في التصوف باللغة العربية)
١٠. تنبيه الغفول في إثبات إيمان آباء الرسول (في العقيدة، باللغة الفارسية، ترجمه تلميذه باللغة العربية)
١١. تفسيرالآيات والأحكام
١٢. النفائس الإرتضية على الرسالة العزيزية(في علوم البلاغة، باللغة العربية)
١٣. نقود الحساب (في علم الحساب باللغة الفارسية)
١٤. شرح الصدور في أحوال الموتى والقبورالمسمى بـ"تيسير المعسور" (في العقيدة، باللغة العربية)
١٥. حاشية رسالة مير زاهد
١٦. المواهب السعدية، (باللغة الفارسية جمع فيه ملفوظات مرشده الشيخ نصيرالدين السعدي)
١٧. التحفة المرضية والصلوة الإرتضية على خير البرية (في العقيدة، باللغة الفارسية)
١٨. اهتداء الناسك لأداء المناسك (في الفقه، باللغة الفارسية)
١٩. مقدمة عين العلم
٢٠. مكتوبات ارتضائية
٢١. مدارج الأسناد (في ذكر أسماء رجاله ومشايخه، باللغة العربية)
٢٢. إزاحة الأوهام عن مسألة الكلام (في علم الكلام)
٢٣. التعليقات على شرح السلم لحمدالله
٢٤. مجموعة فتاواه (جمعها بعض تلاميذه)

وله ديوان شعر في اللغة العربية والفارسية، فيها أبيات رائقة وقصائد فائقة أيضا.

تلامذته البارزون

قرأ عليه جماعة من أهل العلم من الأمصار وعلماء المدراس من بينهم:

١. الشيخ محمدقدرة الله المدعوبـ "قدرة الله خان بهادر " بن محمدكامل مؤلف "تذكرة نتائج الأفكار"
٢. الشيخ محمد يحي علي خان ابن الشيخ أحمد مجتبى المدعو بـ "مصطفى على خان بهادر،خوش دل"
٣. الشيخ غلام غوث شوقي من أبناء بنت القاضي محمد مبارك
٤. الشيخ السيد الشاه وجيه الدين أحمد القادري المديرالرئيسي لدارالعلوم بحيدرآباد
٥. الشيخ محمدحيات خان
٦. الشيخ زين العابدين رئيس الأساتذة لدارالعلوم بحيدرآباد
٧. الشيخ السيد محمدمودودي معتمدصدر مهام العدلية بحيدرآباد
٨. الشيخ غلام قادر
٩. الشيخ محمدحسين القادري الشهيربأفضل الشعراء (شيرين سخن)خان بهادر بن نجم الدين
١٠. الشيخ السيد قادر بادشاه القادري
١١. الشيخ محمدقادرعلي بن محي الدين أحمدخان
١٢. الشيخ السيد محمدحسين بن السيد إمام الدين حسين
١٣. الشيخ قدرت غني ناظم العدالة في حيدرآباد
١٤. الشيخ علي أحمد الفاروقي ابن بنت الشيخ إرتضاعلي خان
١٥. الشيخ رضاحسين خان بهادرالميبذي
١٦. الشيخ السيد محمد اسحق الشهير بـ "شمس العلماء طرازش خان بهادر"
١٧. الشيخ شهاب الدين
١٨. الشيخ محمدعبدالله صدارت خان بهادرابن قاضي الملك بدرالدولة
١٩. الشيخ قدرت رسول
٢٠. الشيخ غلام ضامن

إلى جوار رحمة الله

تشرف الشيخ القاضي رحمه الله بحج بيت الله الحرام وزار قبرالنبي عليه الصلوة والسلام مع الأهل والأولاد و المشاهير والعلماء الكبار، وبعد ذلك عاد إلى الهند و ركب السفينة يعني البابورفمرض

واشتد مرضه فيها فلما وصل البابور في مقام كان منه الحديدة على مسافة بعيدة يعني قريبابيوم وليلة فتوفي رحمه الله نهار يوم الجمعة وقت الإشراق سابع شهر شعبان المعظم عام سبعين ومأتين بعد الألف من الهجرة (٧من شهر شعبان١٢٧٠هـ/ ٥ مايو ١٨٥٤م)وكان عمره آنذاك اثنين وسبعين عاما، وصلى عليه كبير تلامذته الشيخ السيد شاه قادر بادشاه القادري الذي كان معه في السفر وجميع عمال السفينة وكان رئيس البابور محمد سعيد المسقطي مريدا ومعتقدا له و أرسلوا جنازته في البحر فسبحان من يرث الأرض ومن عليها.

وقد ظهر من كرامته أنه لماوصل نعشه إلى حافة الحديدة بعد أيام لم يتعرض لجسده دواب البحر ولم يتغير، وكان سالما من الخرق فوجده أهل الجزيرة، وجاؤوا بنعشه في البر، فلما كشفوا عن وجهه الشريف وجدوا على جبهته مكتوبا بخط السريانية حروفا فازدحم عليه الخواص والعوام، النساء والرجال من أهل الحديدة وأخذوا السريرة بالتعظيم والإكرام ودفنوا في المقبرة التي فيها قبور الأولياء الفخام قدست أسرارهم، أسكنه الله تعالى دار القرار ونفعنا به وبعلومه آمين وبجاه سيد المرسلين.

المراجع والمصادر

١. النفايس الارتضية للشيخ إرتضا علي خان الصفوي، دائرة المعارف النظامية، حيدرآباد، ١٣٢٨هـ.
٢. منحة السراء في شرح الدعاء المسمى بكاشف الضراء، للشيخ إرتضا علي خان الصفوي، دارالكتب العلمية، بيروت، لبنان ٢٠٠٧م
٣. Arabic and Persian in Carnatic 1710-1960- By Mohammad Yousuf Kokan-Madras.1394 AH=1974 AD
٤. حديقة المرام في تذكرة العلماء الأعلام،المطبع،مظهرالعجائب ،مدراس،١٢٧٩هـ.
٥. تصريح الأنساب(مخطوطة) لأبي سعيد محمد المدعوبياور حسين العمري الجوفاموي.١٣٦٠ه/ ١٩٤١م
٦. تذكرة علماء هند(تذكرة علماء الهند)، لرحمن علي، نولكشور، لكناؤ،١٩١٤هـ.
٧. مجلة الاردية برهان، يونيو١٩٩٣ء علي جراه
٨. أحمد مجتبى خوشدل فاروقي گوپاموى اور ان كا عربي كلام (أحمد مجتبى خوشدل الفاروقي وشعره العربي)للبروفيسر محمد صلاح الدين العمري، ط: علي جراه ٢٠٠٤م
٩. تذكرة أبوسعيد للبروفيسر محمد صلاح الدين العمري، ط:د هلي ٢٠٠٥م
١٠. فوائد سعدية للشيخ ارتضا علي خان الصفوي، منشي نول كشور لكناؤ ١٩٨٥ م
١١. حركة التاليف باللغة العربية في الإقليم الشمالي الهندي،للدكتور جميل أحمد بجامعة كراشي
١٢. فهرس الفهارس لعبد الحي الكتاني

*****

فضيلة الإمام السيد محمد زكي إبراهم قدس الله سره

رائد العشيرة وشيخ الطريقة المحمدية ومؤسس الصحوة الصوفية المعاصرة

أمين العشيرة المحمدية[1]

(١)

هو العالم الموسوعي،الداعية، القطب، المجاهد، الكاتب،الخطيب، الشاعر، المحاضر، المعتصم بالله، (السيد محمد زكي إبراهم) وكنيته (أبو البركات)، ولقبه(زكي الدين)، وقد ولد ببيت الأسرة ببولاق بمصر، ووالده القطب الشريف الحسيني(السيد إبراهيم الخليل بن علي الشاذلي)، ووالدته الشريفة الحسينية (السيدة الزهراء فاطمة النبوية) بنت الطب الأكبر الشيخ (محمود أبو العليان الشاذلي). وله ولدان وبنت، كلهم متزوج وله أولاد.

وهو خريج الأزهر،ويجيد عدة لغات. وكان مفتشًا للتعليم بوزارة التربية والتعليم، ثم أستاذا بالدراسات العليا والمعهد العالي لتدريب الأئمة والوعظ، ثم عميدا لمعهد (إعداد الدعاة) قبل أن تضمه إليها وزارة الأوقاف بعد أن أنشأته العشيرة، وتخَرَّج فيه كثيرمن أشرف الدعاة: وترجم لإقبال عن الفارسية،وللشاعر الألماني(هاينى رش هاينى)، ولغيره من شعراء أوربا، وقد نشر أكثر ذلك بمجلة"أبولو"التي كان يشارك في الإشراف عليها أمير الشعراء"أحمد شوقي"، وفي غيرها من المجلات الأدبية.

(٢)

وهو رائد العشيرة المحمدية، ومؤسسها، مؤسس مجلة(المسلم) المجلة الصوفية الأولى في العالم الإسلامي، و مؤسس معهد إعداد الدعاة. أول معهد شعبي من نوعه. و مؤسس الطريقة المحمديه الشاذلية، و مجدد مسجد و مشهد المشايخ بقايتباى، و مراقد مسجد أهل الله ببرقوق، ومجدد ساحات أبي عليان بالصعيد، و مؤسس المجمع المحمدي بمنشية ناصر و الدويقة والحرفيين، والساحة المحمدية بحميثرة، ثم هو عضو بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، واللجنة الدينية العليا بمحافظة القاهرة، و المؤتمر العالمي للسيرة والسنة، ومؤتمر التبليغ والدعوة العالمي، و بعض المجامع العلمية بالبلاد العربية و

---

[1] أمانة الدعوة بالطريقة والعشيرة المحمدية بمسجد المشايخ بقايتباى، القاهرة

الإسلامية، وله مكتبته النادرة العامرة بأمهات الكتب القيمة والنادرة القديمة والحديثة.

(٣)

وقد أهداه الرئيس جمال عبد الناصر (وشاح رواد الأوائل ونوط التكريم)، وأهداه الرئيس السادات (نوط الامتياز الذهبي) من الطبقة الأولى، وأهداه الرئيس حسني مبارك (وسام العلوم والفنون)المخصص لكبار العلماء والأدباء، ثم أهداه (نوط الامتياز الذهبي) من الطبقة الأولى أيضًا. وأهداه الرئيس اليمني عبد الله السلال (وشاح اليمن و الخنجر)، وأهدته محافظة القاهرة، و وزارة الشئون الاجتماعية، و بعض المؤسسات الكبرى: عددًا كبيرًا من شهادات التقدير والأوسمة، ذات القيمة الكبيرة. كما كان مؤسسا لمؤتمر الهيئات والجمعيات الدينية، للعمل على تطبيق الشريعة الإسلامية، باشتراك أخيه في الله، شيخ الأزهر الدكتور عبد الحليم محمود والأستاذ الشيخ حسنين مخلوف عميد الإفتاء، وعضوية جمهرة رؤساء و علماء وممثلي الجماعات الإسلامية الرسمية والشعبية بمصر الذى انعقد في الثمانينات لثلاثة أيام، كما أسس المؤتمر الصوفي العالمي، ومؤتمر المرأة المسلمة الذي عقد في أوائل الخمسينات.

(٤)

كما كان أمينًا و رائدًا دينيًا لجماعات الشبان المسلمين العالمية والمؤتمر القرآني، برئاسة نائب رئيس الجمهورية السيد حسين الشافعي، واللجنة العليا للدعوة بالأزهر برئاسة الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود، و كان خبيرًا باللجنتين التاريخيتين لإصلاح التصوف برئاسة السيد وزير الداخلية ثم برئاسة الشيخ الباقوري وزير الأوقاف وقتئذ (رحمه الله). وعلى مجهود هاتين اللجنتين صدرت اللائحة الصوفية الحالية، وقد كان له عليها عدة مآخذ لولا أنها كانت الخطوة الأولى في سبيل إصلاح التصوف بمصر.

كما كان عضوًا إداريًا عاملًا في أكثر من جماعة وهيئة ولجنة إسلامية و اجتماعية و ثقافية عامة و خاصة رسمية وشعبية، بمصر والخارج. منها جماعة (أبولو) للشعراء برئاسة المرحوم أحمد شوقي أمير الشعراء، كما اشتغل فترة بالصحافة والنشاة النقابي للمعلمين، كل هذا رغم امتحانه الدائم بالأمراض الشديدة والمواجع المستمرة، و برغم ما يبذل بكل السخاء، وبالغ الجود، من ماله الخاص في سبيل الدعوة والإسلام بلا من ولا أذى ولا إعلان. وله مشاركته الكبرى في تجديد المسجد الحالي لمولانا الإمام الشاذلي وتطهير مولده السنوي تمهيدا لما هو أفضل.

(٥)

وقد شارك في الإعداد لحرب عام١٩٧٣م هو وتلاميذه و كبار أعضاء العشيرة والطريقة بأعمال التعبئة و التوعية و الإعداد، حتى كان يبيت الليالي ذوات العدد مع جنود الجبهة على البحر الأحمر مع أخيه فى الله زعيم السويس الشعبي الصوفي الشيخ حافظ سلامة، و زميله فضيلة الشيخ محمد الغزالي، وبعض العلماء. و كم تعرض ومن معه للأخطار الداهمة و واجه الأسر والقتل بين بورسعيد والإسماعيلية والسويس أمام الهجمات اليهودية وذلك وراثة عن شيخه أبي الحسن الشاذلي في موقعة المنصورة أمام الصليبيين وغيره من الصوفية السابقين.

ولابد أن نشير هنا إلى فرع العشيرة والطريقة بالسويس الذي قام بالبطولات الفدائية وبالمشاركة الإجابية الدائمة في الكفاح ضد اليهود منذ حرب١٩٤٨حتى جآء نصرالله تحت إشراف الأخ الشيخ "المهدي عبد الوهاب"

ولشيخنا عشرات من مؤلفاته النادرة الكثيرة الدقيقة في التصوف الإسلامي والدفاع العلمي عنه، وبيان أصيله من دخيله، ثم مؤلفاته في بقية العلوم الإسلامية والآداب والشعر والاجتماع والمعارف العامة، وله نشاطه الديني بالإذاعة والتليفزيون والجرائد والمجلات بمصر وغيرها، وله خطبه ومحضراته ودروسه وفتاويه المسجلة على الكاسيت وغيره بالمساجد و النوادي والأحفال وغيرها، ولاتزال: خصوصًا دروسه بمسجد مشايخنا بقايتباي.

وهو يكافح الطرف والتشدد، يقدر ما يكافح التخريف و التحريف والتظاهر والرياء والضعف، داعيًا إلى الوسطية والسماحة والحب والسلام والعلم والعلاقة بالله والتقريب بين طوائف المسلمين على أساس الربانية القرآنية مكافحاً الجمود والجحود والتخلف والتعصب والتطرف والإرهاب والتخريب.

(٦)

وله دعوته العلمية الثائرة القوية العملية إلى الصحوة الصوفية الناهضة وإلى تحريرالتصوف وتطهيره وإدماجه في الحياة الجادة، على طريق الكتاب والسنة، قولًا و عملًا، ثم دعوته إلى (الجامعة الصوفية العالمية) كنواة للتجمع الإسلامي، وإلى الاتحاد العام للجمعيات الإسلامية، و دعوته إلى إنشاء (دائرة المعارف الصوفية التاريخية) وبيت الصوفية الجامع للمكتبة، والمستشفى و الفندق، و قاعة الإحتفال و معهد الدراسات الصوفية، والمطبعة والمجلة والجريدة، و كافة المرافق، والمؤتمر الصوفي العالمي الذي عقد في دورته الأولى في الأربعينات لثلاثة أيام. و مع كل هذا لم يقبل مشيخة الطرق الصوفية، ولاعضوية مجلسها الأعلى

ايثارًا لحريته في دعوة الإصلاح الصوفي والمذهبي و غيره، و وقوفًا مع رأيه الخاص في كل ذلك.

(٧)

و كل ذلك بالتعاون الكامل، مع شقيقه و نائبه و أمين سره و رفيق جهاده: العارف بالله السيد محمد وهبي إبراهيم (رحمه الله تعالى رحمة واسعة) حامل نوط الامتياز الذهبي، و مسئول إدارة العشيرة والطريقة بجميع الأنشطة المؤسسات المحمدية بالمدن والأقاليم، و بمشاركة العارف بالله السيد أبي التقي أحمد خليل رضي الله عنه، و تقبل منهم جميعًا و رحم الله أخانا السيد أبا التقي و رفع درجته عنده.

(٨)

هذا و قد قطع شيخنا مدارج السلوك الصوفي و أتم مسيرة (الأسماء السبعة) ثم (الثلاث عشرة) ثم (التسعة والتسعين) حتى إنتهى إلى (الاسم المفرد الأعظم) و دخل الخلوة الصغرى والكبرى مرات، و مارس العلوم الفلكية والروحية، و أجرى الله على يديه الكرامات، و تتلمذ عليه كبار القوم والسادة من الشباب والعلماء والأدباء، وقد أسلم على يديه عدد من القساوسة والشمامسة وغيرهم، و زارته الوفود، والشخصيات الكبرى من أطراف الوطن الإسلامي. فهو علم الصوفية و مفتيهم و قطب وقته و مجدد عصره لامحالة، و قد لاقى في سبيل دعوته ما لا يوصف من أنواع الأذى البالغ ماديًا و أدبيًا، وهو سعيد مستمر صامد، حتى يلقى الله مجاهدا راضيًا مرضيًا إن شاء الله.

وقد ألزمته الأمراض الاعتكاف عدة سنين، و لكنه لم يفتر قط عن كافة أنشطة الدعوة بكل مشاقها و تضحياتها الكبرى بكل ما بقى له من جهد و طاقة في الله في مرضه الدائم الطويل من سنين. و كما عانى من أعداء الصوفية بما لم يخطر على بال، كذلك عانى من أدعياء التصوف، حتى رفع الأمر إلى مجلس الدولة فحكم له لأول مرة في التاريخ الصوفي الرسمي، بالإضافة إلى ما ينظره القضاء العادي فيما بينه. بين المتمسلفة سواء منهم الحمقى أو الماجورين، مما تدخل فيه الأزهر الشريف، و بعض كبار الرجال، والله أشد باسًا و أشد تنكيلًا.

نفعنا الله به و بعلومه و ربانيته، و وقفنا إلى الاقتداء به الثبات على طريقته، و خدمة دعوته بفضله تعالى و نعمته. و نستغفر الله و نتوب إليه. *****

من واجبات الداعي أن لايطهر البول من الخمر

ـــــــــــ الدعية الإسلامي

الحياة المكية وأهميتها العصرية

جهانكير حسن المصباحي[1]

قـــال الله تعـــالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١﴾ (الأحزاب: ٢١)

هذه الآية الكريمة تفيدنا أن حياة النبي ﷺ بجميع أدوارها ومراحلها أسوة كاملة لجميع النـاس إلى يوم القيامة ، ولا يجوز لنا أن نفرق بين مرحلة و مرحلة أخرى من حياته ، فإنها وردت على إطلاقهـا ولم يرسم لنا أي تفريق بين دور من أدوار حياته الغراء، وقد مرت على حياة النبي ﷺ أدوار يمكن لنا أن نقسمها إلى قسمين في الجملة:

الأولى: الحياة المكية،

الثانية: الحياة المدنية

وقد امتـازت كـل مـن هـذه المراحـل بمعاني وخصائص نيرة لأهل الإيـمان إلى يوم القيامة.

أمـا الحيـاة المكيـة فهـي أيضـا تتسـم بميـــزات وخصـــائص تـــتلخص في النقاط التالية:

الأولى: الخلق العظيم، **الثانية**: العكوف على الدعوة السرية، **الثالثة**: الصبر والرضا، **الرابعة**: الاستقامة، **الخامسة**: الاحتراز عن التصادم الديني.

وبفضـل هـذه الخصـائص والميـزات

> إن الحياة المكية متسمة بالصدق والأمانة، والدعوة إلى الله بالحكمة البليغة والفراسة الصادقة، والتزام الصبر والشكر، والجهد المتواصل والعمل الدؤوب لإعلاء كلمة الله والاجتناب عن جميع ما يضع العراقيل في طريق الدعوة الإسلامية ومايوقع أثرا جانبيا على الحركة الإسلامية والدعوة الإلهية

[1] المدير المسئول لمجلة "خضر راه" الشهرية باللغة الأردية تصدر من الجامعة العارفية ، الله آباد، الهند

والحكمة الدعوية في الحياة المكية تيسر له بإذن الله أن يحدث ثورة شاملة دينية في جزيرة العربية بعد هجرته إلى المدينة المنورة.

١- الخلق العظيم

كان النبي صلى الله عليه وسلم أعظم أخلاقا، وقد جاء في محكم التنزيل ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(القلم: ٤) وأخلاقه كانت تفسيراً للقرآن الكريم. قال سعد بن هشام رضي الله عنه أنه سأل عائشة الصديقة رضي الله عنها، يا أم المؤمنين ! أخبرني عن أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم . فأجابت:
كان خلقه القرآن، أما تقرأ القرآن؟[1]

وقد أنزل القرآن الكريم هدى للناس. وعلى هذا نستطيع أن نقول إن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم منبع الهداية لكافة الناس مكرر الليالي والأنهار.

إن السيرة النبوية الوضاءة وعلى الأخص الحياة المكية تهدي البشرية جمعاء إلى طريق النجاح في الحياة الدنيا والأخرة ، بل اليوم هي مرشدتنا الكاملة، فإننا نعيش في أوضاع وظروف قاسيةللغاية، فلازم على كل المسلم أن يعمل بالسيرة النبوية كاملة.

٢- الصدق والأمانة

وفي الحياة المكية سواء كانت قبل البعثة أو ما بعدها ، كان النبي صلى الله عليه وسلم يُعرف فى الناس حليما و منكسرا وكريما ، وكان أهل مكة كله يسميه ﷺ بالصادق والأمين، ولذلك إذا اختلفت قريش عند تنصيب الحجر الأسود ، وقربت أن تبدأ الحرب بينهم، دخل النبي الكريم صلى الله عليه وسلم مبكرا، فحكموه فيما بينهم، فأصلح ﷺ وقضى بينهم بالحكمة ، ودفع المحاربة الممكنة بينهم، وكذا عندما وجه النبي صلى الله عليه وسلم دعوة التوحيد إلى الناس وأعلن رسالته على رؤوس الأشهاد قال : يا معشر قريش! لوأخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أ كنتم مصدقي ؟ قالوا : نعم ، ماجربنا عليك إلا صدقا[2].

وكان العظماء من تجار العرب يعتمدون على النبي صلى الله عليه وسلم لصدقه وأمانته، فهم كانوا يتمنون أن يأخذ أموالهم للتجارة، حتى أن الكفار والمشركين مع اختلافهم في الدين والعقيدة كانوا يودعون أماناتهم عند النبي ﷺ، لأنهم كانوا يعتقدون أن أماناتهم تكون محفوظة عنده ﷺمثل ما

[1] مسنداحمد ، عائشة الصديقة.
[2] الصحيح البخارى،باب وأنذر عشيرتك

لاتكون عند الآخرين، وكان ذلك كله لإيمانهم أنه رجل صادق أمين لا يخون الأمانة ويلتزم بالصدق في أدائها إلى صاحبها.

ولذلك مازال أمر المسلمين على التزام الصدق والأمانة فيما تلا النبيﷺ من القرون وكان الناس من اليهود والنصارى والكفار والمشركين عندما ينازعون في أمر ويمضي بهم المسلم فياخذونه قاضيا، وكانوا يرفعون نزاعهم إليه، لكن اليوم من الموسف أننا لانستطيع أن نقضي ما وقعت ذات البين فيما بيننا.

اليوم نحن لانحترز من الخيانة بأمانة الله ورسوله - أعني العهد- الذي أخذنا الله ورسوله، نترك الفرائض والواجبات ولا نرعى حقوق الله فكيف يتسير لنا أن نهتم بحقوق العباد ونحافظ على أمانة الناس، وكيف نمارس الوفا بالوعد الذي أخذنا الناس.

٣- العكوف على الدعوة السرية

لم يبرح النبي ﷺ عاكفا على الدعوة السرية للإسلام حتى أسلم على يديه جماعة من الناس تبلغ عددها الأربعين وقد طالت هذه الفترات إلى ثلاث سنوات قد أسلم خلالها عديد من كبراء مكة وعظمائها من أمثال سيدنا حمزة عم النبي ﷺ وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

٤- الصبروالإستقامة

إن النبيﷺ لم يزل قائماً على الدعوة بالصبر والشكر والعزم الشامخ في الحيوة المكية كلها و خاصة فترة الدعوة السرية ، صبت عليه وعلى أصحابه مصائب ولكنه مع ذلك صبر وأوصى بالصبروالاستقامة على الدين.

وبعدالصدع بالرسالة الإسلامية أصبحوا كلهم مناوئين للإسلام يظلمون على المسلمين ظلما عظيما، ويؤذونهم ويعذبونهم بطرق شتى، وهم يدبرون المؤامرات الكبرى ضد الإسلام والنبيﷺ ليلا و نهارا، ولكن النبي ﷺمع ذلك لم يجب دناءة أهل المكة بالدناءة، ولم يدافع السيئة بالسيئة بل دائما استمد بالصبر والصمت والهمة والفتوة والاستقامة والأخلاق الحسنة.

وإذا لم يجد أهل مكة سبيلا لمنعه عن دعوته حرصوا على استمالة قلبه بالدنيا وشهواتها فوعدوا له بالحكومة والأموال الهائلة والنساء الحسان على أن يتوقف عن دعوته وجاؤوا إليه بها مسرعين و لكن النبيﷺ قد رد كل من هذه الاقتراحات الآثمة على وجوههم ولم ينحرف عن الدعوة، بل لم

يزل مستقيما في أمره ومستعينا بربه فأصبحوا خائبين ترهق وجوههم قتر وذلة، فلما باءت مؤامرتهم هذه بالفشل حاولوا أن ينهوه عن الدعوة الإسلامية بواسطة عمه أبي طالب، فأجاب النبيﷺ، يا عمي الكريم! إن يوضع القمر في يد والشمس في يد أخرى ويقال لي دع هذا فلن أترك دعوة التوحيد وما بعثني الله به.

الاحتراز عن التصادم

يعلم من دراسة الحياة المكية أن النبيﷺ لم يزل يجتنب التصادم مع الكفار والمشركين بقدر الإمكان، وكلما وجد الفرصة لدعوة أهل مكة إلى التوحيد والرسالة انتهزها وبادر إليهم بالشفقة والرحمة، وبالمونسة والمواخاة.وهذا قد أوقع تاثيرا كبيرا في قلوب العرب فانقلبت الأوضاع تدريجا وجعل يدخل الإسلام في قلوب قبائل العرب المختلفة لما رأوا نحوهم مكارم أخلاق النبيﷺ.

ملخص القول أن الحياة المكية متسمة بالصدق والأمانة، والدعوة إلى الله بالحكمة البليغة والفراسة الصادقة، والتزام الصبر والشكر، والجهد المتواصل والعمل الدؤوب لإعلاء كلمة الله والاجتناب عن جميع ما يضع العراقيل في طريق الدعوة الإسلامية ومايوقع أثرا جانبيا على الحركة الإسلامية والدعوة الإلهية، فعلينا أن نأخذ العبر والدروس من الحياة المكية للنبيﷺ في كل حين وآن.

اليوم عندما نحن نحاسب نجد أنفسنا في قعر الظلمات والشهوات وسوء الخلق متسمين بالكذب والخداع، نستعجل في أمر الدين ولانستخدم الحكمة في سبيله و لانصبرعلى المصيبة ولا نشكر الله على ما أسدى إلينا من نعمة الإسلام، ولانضع الفرق بين العمل الصالح والعمل الطالح،ولانتأسف على سيئات أعمالنا ونتلاعب بالمشاعر والعواطف ولانبالي بما يترتب على الدعوة الإسلامية من آثار جانبية بسببها، ومع ذلك نعد أنفسنا في أمة النبي الشاكر والصابر والصادق والأمينﷺ، ولو كنا في الواقع من الأمة المحمدية لزينا أنفسنابالأخلاق النبوية ظاهرا وباطنا، ولجعلنا الصدق شعارنا، والأمانة علامتنا، والحكمة سلاحنا والصبرصفتنا، والشكرعادتناولكنا من عباد الله المخلصين العاملين المجاهدين.

وعندما نتحلى بالصدق والأمانة وبالصبر والاستقامة، ونتظاهر بالأخلاق الفاضلة والفضائل الحميدة من المحبة، والمونسة، والمواخاة. على الأخص مع الأغيار الذين بعيدون عن الإسلام وتعليماته، يتسنى لنا عمل الإصلاح والدعوة، ونقوم بإشاعة الدين و تبليغ الرسالة الإسلامية السمحة في أنحاء العالم.قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ (العنكبوت: ٦٩)

*****

الشيخ أبوسعيد وفكره الوسَطي

إظهار أحمدالسعيدي الثقافي

يركز الداعية الكبير العارف بالله الشيخ أبوسعيد إحسان الله المحمدي في جميع محاضراته على توحيد صفوف الأمة ويحذرهامن التشتيت والتفريق ويدعو الناس إلى الاعتصام بحبل الله تعالى امتثالا لقول الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾[1]. ويتمسك كل التمسك فى حياته الوسطية بقوله تعالى: ﴿وَكَذٰلِكَ جَعَلْنٰكُمْ أُمَّةً وَّسَطًا لِّتَكُوْنُوْا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُوْنَ الرَّسُوْلُ عَلَيْكُمْ شَهِيْدًا﴾[2]. و"خير الأمور أوساطها" يجعله نصب عينِه. ويشجِّع الناس على نشر الفكر الوسطي وتقديم الصورة الحقيقية للإسلام ويؤكد إلى صلات الترابط والتراحم، والتكامل والتعاون، قولا وعملا، بذلا وسخاء، وتقديم كل وسائل العون والمساعدة فيما بينهم خاصة لمن مستهم الضراء والبؤس ويشددعلى أهمية نشر الفهم الصحيح للإسلام بمفهومه الوسطي المعتدل، بعيدا عن الغلو والتطرف ويمنع الناس من الاستماع إلى الخطباء الفتانين الذين تعددت منابرهم وتقسمت مشاربهم وتنوعت أغراضهم وأهواءهم ولكنهم مع ذلك يلتقون عند هدف واحد وهو إشاعة الفوضى، تبديد الأمن، إضاعة الاستقرار وإيقاف العمل والانتاج، امتثالا لقول الله تعالى ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ اَغْفَلْنَا قَلْبَهٗ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوٰىهُ وَكَانَ اَمْرُهٗ فُرُطًا ۝﴾[3].

ويحرضهم على الاستماع إلى الدعاة الذين يدعوالناس بالحكمة والموعظة الحسنة امتثالا لقول الله تعالى: ﴿اُدْعُ اِلٰى سَبِيْلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[4]، وإلى الدعاة الذين يجاهدون في سبيل الله ابتغاء مرضاته والذين يتحلون بأخلاق عالية لا سافلة، أخلاق راقية لا منحطة، أخلاق فاضلة لا مرذولة.

ويلفت كل انتباهه على تزكية النفوس خاصة من الأمراض التى عمت وشاعت فى جميع القصور والأكواخ، والقلوب والأبدان، صاحبها يحسبها يسيرة ولكنها عسيرة وكبيرة، مثل: الغل، والحقد،

[1] سورة آل عمران: ١٠٣
[2] سورة البقرة: ١٤٣
[3] سورة الكهف: ٢٨
[4] سورة النحل: ١٢٥

والحسد، والغش، والبخل، والكبر، والريـاء، والغضـب، والطمـع، والبطـر، والفخـر، والمداهنـة، والعجب، والمكر، والخيانة، والمخادعة، والقسوة، والفظاظة، والجفاء، والطيش، وقلة الحيـاء، وقلـة الرحمة وغير ذلك من الأعمال القبيحة. امتثالا لقوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾[1]. ولقوله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾[2].

ولقوله تعالى فى الحديث القدسي، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله تعالى: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما قذَفتُه في النار.[3]

ولقول النبي صلى الله عليه وسلم: الحسد يأ كل الحسنات كما تأكل النارالحطب.[4]

و لقول النبي ﷺ: لاتحاسدوا ولاتقاطعوا ولاتباغضوا ولاتدابروا وكونوا عباد الله إخوانا.[5]

ولقول النبي صلى الله عليه وسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رجلا قال للنبـي صـلى الله عليـه وسلم: أوصني، قال: لاتغضب، فردَّد مِرارا، قال: لا تغضب.[6]

وقال رسول الله ﷺ: ثلاث مهلكات: شح مطاع، هوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه.[7]

ولقوله صلى الله عليه وسلم:لايدخل الجنة بخيل ولا خب ولا خائن ولاسيئ الملكة.[8]

ولقوله صلى الله عليه وسلم :لو لم تذنبوا لخشيتُ عليكم ما هو أشدّ من ذلك: العُجْب العُجْب.[9]

وغيرذلك من الآيات والأحاديث التي يطول ذكرها.

وكذلك يؤكد الشيخ أيضا على أن سُمعة الأمة وشوكتها التى كانت تلمع فيما مضى على أفق الأرض من أخضرها إلى يأبسها لن تحدث فى أيامنا هذا و لايمكن التفصِّي عـن الأزمـات والعاهـات التـي تعانيها الأمة، وعن الكوارث التى ألّمت على رؤوس المسلمين إلا بعد تضحيات كبيرة، وعمل جـاد بحيث يؤدي كل فرد من الأمة دوره في ميدان العلم والعمل ويضحي نفسه فى اتباع الشريعة المطهرة ويتمسك كل التمسك منهج السلف الصالح من الصوفية الأماجد البررة.

*****

[1] سورة الأعراف: ١٤٦
[2] سورة لقمان: ٣٣
[3] أخرجه مسلم:٦٨٤٦، وابن ماجه وأبوداؤد واللفظ له
[4] أخرجه أبوداؤد:٤٩٠٥، وابن ماجه:٤٣٥٠
[5] صحيح البخاري:٦١٣٣،صحيح مسلم:٦٦٩٠
[6] صحيح البخاري:٦١٨٤
[7] الطبراني في الأوسط:٥٤٥٢،البيهقي في شعب الإيمان:٧٣١
[8] مسندالإمام أحمد بن حنبل: ١٣
[9] مسندالشهاب: ٧٤٤١

أهمية التصوف وحاجة الناس إليه

أ.د: جمال فاروق جبريل محمود[1]

إن العلوم المادية بلغت درجة مرموقة في الرقي، بعد أن قطعت شوطاً بعيداً في التطور والشمول، غير أنه مع هذا التقدم المادي فإن دنيا الناس لازالت حبلى بمظاهر الحيرة والاضطراب والبؤس والشقاء، ولازال أهل المعمورة متلهفين إلى ما يزيل حيرتهم، ويبدد مخاوفهم، ويبعث فيهم بريق الأمل، ويحقق لهم الرخاء والسلام، وينشر عليهم السعادة والإيمان. وإنهم غير مدركيه إلا بالإسلام، والمقصود: الإسلام بأركانه الثلاثة:الإيمان والإسلام والإحسان.

غير أن عدداً هائلاً من المسلمين اليوم تخلوا عن ركن الإحسان الذى هو لب الدين وثمرته، فأصبحوا لايملكون من الإسلام إلا اسمه، ولايعلمون إلا رسمه، أسلموا وآمنوا، ولكن لم يحسنوا، فكان من نتائج ذلك أن فقدوا أسباب المناعة وبواعث القوة في دنياهم، وكان من نتائج ذلك أيضاً أن غفلواعن مراقبة الله في السر و العلن. فتفشى الغش، والرياء، والكبر، والعجب، والخيانة، والغدر، والتهافت في حطام الدنيا، فظهر داء الأنانية، مما أورث الوهن في الناس.

ومن هنا تبرز جلياً أهمية التصوف والضرورة إليه لإحياء الشعور الديني، وإذكاء الوجدان الروحي، والسمو بالبشرية عن حظوظها النفسية، والرقي بها إلى درجات الكمال الإنساني.

وفي حديثه عن التصوف في ندوة لواء الإسلام، ذكر الشيخ محمد أبوزهرة[2] أن شبابنا اليوم قد استهوته الأهواء، وسيطرت على قلبه، فأغرته دورالسينما والمجلات الفارغة، والإذاعات اللاهية، وبين أن الأهواء إذا سيطرت على جيل من الأجيال، أصبحت خطب الخطباء لاتجدي، ومواعظ الوعاظ لا تؤثر، إذن فلابد للناس من طريق آخر للإصلاح، أنه سلوك طريق التربية، تربية نفوس الشباب وتهذيبها، بواسطة الشيخ المربي ومريديه، انتهى بتصريف.

---

[1] الأستاذ بقسم الأديان والمذاهب، كلية الدعوة الإسلامية، القاهرة

[2] مجلة لواء الإسلام، عدد، ١٢/شعبان ١٣٧٩ هـ، ندوة لواء الإسلام:التصوف في الإسلام، ص: ٧٥٨إلى٧٦٦

روى أبو داؤود عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أو قال العشب[1].

ولقدكان رسول الله ﷺ يوجه إهتمامات الصحابة رضي الله عنهم لإصلاح قلوبهم إذ صلاح الإنسان متوقف على صلاح قلبه الذي هومحل نظر ربه وبهذا تستقيم الجوارح ويتقوى الإيمان وترسخ العقيدة ويشهد لهذا ما أخرجه الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :إن الله لاينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم[2].

وروى البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:ألا و إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح (يجوز في صلح وفسد الفتح والرفع والفتح أفصح) الجسد كله و إذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب[3].

وهكذا تتأكد حاجة الفرد إلى التصوف الحق، أو نقول إلى التحقق بمقام الإحسان.

ولابد له حينئذ من شيخ، مرشد ، محقق، خبير بأمراض القلوب، عليم بدسائس النفوس، ماهر في أسلوب التذكير، ينقله من حال إلى حال ومن مقام إلى آخر. فالمرشدون لهم تأثير غريب في بواطن مريديهم، يرفعونهم من حضيض المعصية إلى مستوى الطاعة إلى الرفيق الأعلى من الحضور مع المعبود جل جلاله وتقدس كماله[4] وإلا فـ

من لم يكن خلف الدليل مسيرة كثرت عليه طرائق الأوهام

ومادام صلاح الانسان متوقفاً على صلاح قلبه، وجب عليه العمل على إصلاحه، ومن أوكد وسائل الإصلاح تحصيل علم التصوف، وحكمه الوجوب.

قال حجة الإسلام الغزالي: الدخول مع الصوفية فرض عين إذ لايخلوا، أحد من عيب إلا الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ[5].

وقال بعضهم :القلب كالمعدة، والمعدة بيت الداء، فإذا كثرت عليها الأخلاط مرضت وفسدت، وعلاجها الحمية من الأخلاط. وكذلك القلب إذا كثرت عليه الهموم والخواطر فسدت فكرته، وانطمست مرأة بصيرته.وإذا قلت منه الهموم والخوار سلمت فكرته وانصقلت مرآته.

---

[1] رياض الصالحين، ص:٤٤١، وقال السيوطي في الجامع الصغير، ج:١، ص:١١٦، سنده ضعيف

[2] في كتاب البر والصلة

[3] البخاري في كتاب الإيمان، ومسلم في كتاب المسافاة

[4] اللحظة المرسلة على حديث حنظلة، للشيخ ، محمدالمدني، ص:٩، :٢،١٤٠٤هجرى

[5] النصرة النبوية، لمصفى المدني على هامش شرح الرائية، ص:٢٦، مطبعة العامرية مصر،١٣١٦هجري

وممـا يدل على أهمية التصوف وقيمته مانقل عن العلماء من وجوب تلقيه والاعتناء به وتحصيله، قال العلامة ابن ذكري:

عـلم به تصـفية الـبواطـن | من كدرات النفس في المواطن
به وصول العبد للإخلاص | روح العبـادة بالاخـتصـاص
وذاك واجب على المكلف | تحـصيلـه يكـون بالمعـرف

وقال الشيخ الإبياري في كتاب سعود المطالع مانصه[1]: اتخاذ شيخ عالم عارف بعلاج النفس الأمارة ودسائسها الخفية يطهر الإنسان من النجاسة المعنوية، فرض عين، كما نص عليه الغزالي و ابن عبدالسلام والسبكي والسيوطي من السادة الشافعية، وشيخ الإسلام والناصر اللقاني وزروق من السادة المالكية، وخير الدين الرملي والحموي من السادة الحنفية، والهروي وابن النجار من السادة الحنابلة لأن ما لايتم الواجب إلا به فهو واجب.

وقال العلامة الصاوي المالكي في حاشيته[2]على تفسير الجلالين عند قول الله تعالى:﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾(سورة الفرقان:٥٩). مانصه: والمعنى اسأل عنه خبيراً أى عالماً بصفاته يطلعك على ما خفي عليك، والخبير يختلف باختلاف السائل، فان كان السائل النبي ﷺ فالخبير هوالله، وإن كان السائل أصحابه فالخبير النبي، وإن كا ن السائل التابعون فالخبير الصحابة عن النبي عن الله وهكذا، فآل الأمرإلى المشايخ العارفين يفيدون الطالب عن الله، وفيه دليل على وجوب معرفة التوحيد.

والتصوف الإسلامي السني الخاص إيجابي لاسلبي، فيأخذ طالبه والسالك فيه بأسباب الدنيا وأسباب الآخرة ويحمل ممارسته بالعلم والعمل والحال عاملاً نافعاً بجسده في الدنيا بنيته مستقبلاً للآخرة.أما قلبه فيكون دائماً مع الله ابتغاء لمرضاته وطلباً لرضوانه، وبهذا وذاك يكون التصوف الحق زاداً لقلوب الصديقين وشعاراً لعباد الله الصالحين.وذلك لأن الصوفي الحق إذا رأيته أو عاشرته أوعاملته أوجاورته أو صاحبته علمت أنه رجل دائب الفكر كثير الذكر دائم العبرة غزيرالحكمة محب للعلم كاره للجدل وهو قليل المنازعة في الأمور سهل المراجعة للصواب وهمته دائماً محصورة في البحث عن الحق ولو ظهر على لسان غيره من الخلق وأنه وراء ذلك أوسع الناس صدراً وأقبلهم لهم عذراً وألينهم للحق قياداً وأصعبهم على الباطل مراساً وأعزهم نفساً وأعفهم شخصاً وأكثرهم وداً

[1] رسالة الناصر معرفو، للشيخ أحمد العلاوي، ص:٦٧٦، الطبعة الأولى،١٩٣١م، مطبعة التوفيق، دمشق
[2] حاشية الصاوي على الجلالين، ج:٣، ١٦٣) دارالفكر

وأعمقهم حباً وأدومهم مثابرة وصبراً وأوفاهم عهداً وأكثرهم أدباً[1].

يقول الأستاذ أبو الحسن علي الحسني الندوي عضو المجمع العلمي، العربي بدمشق ومعتمد ندوة العلماء بالهند في بحث:الصوفية في الهند وتأثير هم في المجتمع[2]: أن هؤلاء الصوفية كانوا يبايعون الناس على التوحيد الإخلاص واتباع السنة والتوبة عن المعاصي وطاعة الله ورسوله ويحذرون من الفحشاء والمنكر والأخلاق السيئة والظلم والقسوة ويرغبونهم في التحلي بالأخلاق الحسنة، والتخلي عن الرذائل مثل الكبر والحسد والبغض والظلم وحب الجاه، ويحثونهم على تزكية النفس وإصلاحها ويعلمونهم ذكرالله والنصح لعباده والقناعة والإيثار.

فقدكان تأثير الصوفية في الحياة العامة، وأخلاق المجتمع كبيراً، فمن ذلك أن الشيخ محمد معصوم (المتوفى:سنة١٠٧٩هجري) بن الشيخ أحمد السرهندى بايعه وتاب على يديه تسعمأة ألف من الرجال، على ماذكره صحاب نزهة الخواطر.

ومن ذلك أيضا:ماذكره مؤرخ الهند الشهير القاضي ضياء الدين البرني من أن السنوات الأخيرة من عهد السلطان علاء الدين بالهند امتازت بكساد سوق المنكرات من الخمر والغرام والفسق والفجور والميسر والفحشاء بجميع أنواعها بفضل مشايخ التربية أمثال شيخ الإسلام نظام الدين وشيخ الإسلام ركن الدين.

وخلاصة القول، أن التصوف ركن تقره النصوص الشرعية، وتفرضه حاجة الناس الأكيدة إلى قوت روحي، يحي القلوب، ويغذي الأرواح، ويروي النفوس، وينير البصائر، ويوقظ الضمائر، ويطهر السرائر، ويهذب المشاعر، قوت يتوصل إليه عن طريق ترويض الروح على يد الأشياخ العارفين، ولا يتأتى هذا إلا بسلوك طريق الصوفية.

والطرق الصوفية، بفضل الله، منتشرة بانتشار الأرض، باقية ببقاء الإسلام، ولن تزال طائفة من الأمة ظاهرين على الحق، لايضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله.

*****

[1] (التصوف الإسلامي الخاص، ص:١١إلى١٢)

[2] كتاب:المسلمون في الهند، ص:١٤٠إلى١٤٦، مكتبة دار الفتح، دمشق،١٣٨١هجري

هؤلاء حذَّرنا منهم رسول الله ﷺ

أ.د./ فتحي عبدالرحمن أحمد حجازي[1]

أقبلت الدنيا على الناس في هذه الزمان في كل مكان فجعلت الناس ينظرون إليها معجبين ، ويتلمسونها في كل وقت وحين ، ويتواصلون فيمابينهم عليهامتقاتلين ، ولذاسادت بينهم ألاعيب الشيطان ، وتربص بهم في كل آن ، وزرع في نفوسهم الأحقادوالعداوات ، وأنبت في قلوبهم الشهوات ، وأنساهم ذكرالله ، الذي خلق الأرض والسماوات ، كماقال تعالى :﴿نَسُوااللَّهَ فَأَنْسٰهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ (الحشر: ١٩). وكان من أمرالشيطان معهم أنه كره إليهم أهل الطاعات ، وحبب إليهم أصحاب المفاسد والسيئات وغرس فيهم حب الشهرة في المجتمعات ، فأخذوا أنفسهم بكراهةالصالحين ، والبعد عن أهل العلم والنورالمبين ، خصوصا أهل المعرفة بالله ، والأصفياء من المتقين ، وأهل التصوف من المؤمنين ، وقد قال الله — جل في علاه — وهوأصدق القائلين :﴿اَلشَّيْطٰنُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَ يَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَآءِ ۚ وَ اللّٰهُ يَعِدُكُمْ مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَ فَضْلًا ۗ وَ اللّٰهُ وَاسِعٌ عَلِيْمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٨).

> **"إنا رأينا أقواما ينتشرون في البلاد . وقد أشاعوا فيها أنهم هم الفاهمون للعلم والإرشاد . وعلى سماتهم صورة الإسلام . ويتحدثون بلسان أهل الإيمان . ويقولون بأفواههم ماليس في قلوبهم . بدليل أفعالهم ومعاملاتهم مع الذين من حولهم. وفي أسرهم فإن التعامل يخرج مما في قلوبهم . ومااستتر في أفئدتهم . وهم لايعلمون"**

فهؤلاء الكارهون الحاقدون هم أتباع الشيطان ، فلهم الفقرفي الدنيا وإن كانوا يملكون ، وعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، إلامن تاب توبة نصوحا ، وعمل صالحا، فأولئك يتوب الله عليهم

[1] الأستاذ بكلية اللغة العربية،قسم البلاغة والنقد - بجامعةالأزهرالشريف

وهو التواب الرحيم، فضلا وكرماً على عباده الأوابين .

ومن الذين حُسِدواعلى عباداتهم ، وذكرهم لربهم، وحبهم لنبيهم، والصالحين من التابعين، والناس أجمعين"أهل التصوف" أو"الصوفية" .

فهولاء العارفون بربهم، والمحبون لنبيهم، والقائمون على عبادة مولاهم نالهم الأذى بألسنة الحاقدين، والفاجرين، ومن هم أتباع الشيطان اللعين، سواءكانوا من المسلمين أوالكافرين.

أما المسلمون الذين أخذوا الدين بظاهره، وانحرف بهم الشيطان إلى سواءالسبيل، فجعلوا دينهم في ملابسهم، وحناجرهم، يقولون بلاعلم، وينطقون بلاهدى ولاكتاب منير، يعيبون أهل الله العابدين، ويزنون هذا الدين بميزان غيرمستقيم، وقدتحدث عنهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في بداية عصرالإسلام، وكان ينظر إلى هذا الزمان، بوحي الله العليم الخبير لينبه إلى خطرهم، وماسيكون عليه الناس إذا ظهروا فيهم، ونال الصالحين أذاهم وكيدهم، ليكون الناس على بينة من أمرهم، فقدروى أئمة الحديث أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان يقسم الغنائم بإذن الله فأقبل رجل مظهره كريه، إذهو غائرالعينين، ناتئ الجبين "مرفوعه" كث اللحية"كثيف الشعر، مشرف الوجنتين"مرتفعها"محلوق الرأس[1]، أي بهذا الشكل الذي لايسرـ الناظرين، بل يدخل في قلوبهم الريب، ويدعوا إلى القلق والخوف؛ وكما قال الأستاذ فتح الله كولن:"ولعله كان يمثل ظهور أمة فى المستقبل"(٢) فنظر إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – نظرة حاقدة وأخذ يقول: يامحمد، اعدل، فقال : رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " ويلك ! ومن يعدل إذا لم أكن أعدل ؟ لقد خبتُّ وخسرتُّ إن لم أكن أعدل "، والرواية في " خبتَّ وخسرتَّ " بضم التاء أوبفتحها فيها، ولكلٍّ معنى يؤدي إليه، وكلاهما صحيح، فبالفتح يكون المعنى تكون أنت من الخائبين إذا لم أكن عادلا، وهذا محال على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بصفاته التي بعثه الله عليها، وأرسل بها، ليشيع العدل بين المؤمنين.

ورواية الضم فيها نسبة الخيبة والخسران إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا لم يعدل ، وهذا مستحيل كذلك ، لأن الذى بعثه بالهدى ونورالحق ؛ ليظهره على الدين كله جعله عادلا فى كل أمره، فى قوله وفعله ، وحاله بين أهله، وقضائه فى أمته، ليعلن على العالمين أن العدل أساس الملك، والله وصف نفسه – سبحانه – بأنه " العدل "، وكان من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ظهرت العدالة فى أمره كله حتى صارعلماعلى العدل وهوالفاروق ، فرق الله به بين الحق والباطل ،

---

[1] صفات هذا الرجل وقعت في حديث البخاري، كتاب المغازي، باب: بعث علي بن أبي طالب و خالد بن الوليد ـ رضي الله عنهماـ إلى اليمن قبل حجة الوداع ٤\١٥٨١

[2] : "محمد" المسمى: النور الخالد ـ صلى الله عليه وسلمـ مفخرة الإنسانية صـ:٩٦,٩٧ .طـ : الخامسة ١٤٣١هـ-٢٠١٠م – دارالنيل .

وهذا العدل تعلمه من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، فكيف يكون القول فى رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ؟ وقد أراد سيدنا عمر ـ وقد حضر الواقعة ـ أن يؤدب هذا الرجل المعتدي ، الذي لاأدب معه (١) فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " دعه فإن له أصحابا يحقرأحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ".

وهذا ماكان فى هذا الزمان ، فإنا رأينا أقواما ينتشرون في البلاد ، وقد أشاعوا فيها أنهم هم الفاهمون للعلم والإرشاد ، وعلى سماتهم صورة الإسلام ، ويتحدثون بلسان أهل الإيمان ، ويقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم ، بدليل أفعالهم ومعاملاتهم مع الذين من حولهم، وفى أسرهم فإن التعامل يخرج مما فى قلوبهم ، ومااستتر فى أفئدتهم ، وهم لايعلمون .

ثم قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " يقرؤون القرآن لايجاوزتراقيهم ، يمرقون من الدين كمايمرق السهم من الرمية ، يُنْظَرإلى نصله فلايوجد فيه شيء ، ثم ينظرإلى رصافه فلايوجدفيه شيء ، ثم ينظرإلى نضيه – وهوقدحهُ – فلايوجدفيه شيء ، ثم ينظرإلى قُذَذه فلايوجدفيه شيء ، قدسبق الفرث والدم " .

وهذا تصوير لحالهم فى هذا الدين فهم كالسهام التى نفذت من الميتة وخرجت فلم تحمل منهاشيئا ، لامن لحم ، ولادم ، ولافرث ، وهذا دليل على أنهم لما يأخذوا من دينهم أجرا لا من قليل ولا من كثير، بل ضاعت حياتهم هباء منثورا ، وذهبوا إلى ربهم فى نهايةالآجال بلاعمل مقبول ، ولاقول طيب ، فخسروا الدنيا والآخرة أولئك حزب الشيطان، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ، ثم يتابع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حديثه فيقول : " آيتهم " أي دليلهم ورائدهم الذى يسيرون ورائه ، ويتبعون قوله ، يأتمرون بأمره "رجل أسود ، إحدى عضديه مثل ثدي المرأة أو مثل البضعة تَدَرْدَرُ ـ تتحرك وتضطرب ـ ويخرجون على حين فُرْقَة من الناس" (٢) .

وهؤلاء على الساحة الأرضية موجودون ، وقدبعثوا القلاقل فى البلاد ، وأعلنوا فيها الفساد ، وأهل الله يحاولون معهم أن يتفهموا هذا الدين ، وجمعوا لهم من الأدلة على مايدعون إليه ، من الصلاح والفلاح مايكون عليه الإفهام والإفحام ، وأقاموا لهم المساجلات العلمية ، ولكنهم كانوا قوماشياطين ، واستمسكوا بمايقولون وهم مارقون ، وهذا دليل صدق المصطفى الأمين في قوله الذي عرفناه قبل وقوع ماقال على الأرض أمام الناظرين . وليت قومي يعلمون، والله الموفق والمعين.

*****

---

[١] : صحيح الإمام البخاري – باب المناقب ٢٥ ، والأدب ٩٥ ، والمسند للإمام العابد الورع أحمد بن حنبل ٥٦/٣ وغيرها .
[٢] : انظر حديث البخاري بالتخريج السابق .

علامة العارف وحقيقة التصوف

قال الحسن الفرغاني: سألت الشبلي:ما علامة العارف؟
فقال: صدره مشروح، وقلبه مجروح، وجسمه مطروح، والعارف؛ الذي عرف الله، وعرف مراد الله، وعمل لما أمر الله، وأعرض عما نهى الله، ودعا عباد الله إلى الله، والصوفي؛ من صفا قلبه فصفا، وسلك طريق المصطفى، ورمى الدنيا خلف القفا، وأذاق الهوي طعم الجفا، والتصوف؛ التآلف والتطرف والإعراض عن التكلف.
وقال أيضا: هو التعظيم لأمر الله والشفقة على عباد الله.
وقال أيضا: الصوفي؛ من صفا من الكدر، وخلص من الغير، وامتلأ من الفكر، وتساوى عنده الذهب والمدر.

(تاريخ دمشق/ ذكر أبي بكر الشبلي)